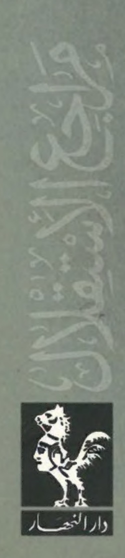
٨

يوسف سالم

٥٠ سنة مع الناس



يوسف سالم

٥٠ سنة مع الناس

الطبعة الثانية

تقديم تقي الدين الصلح



الطبعة الأولى، ١٩٩٥
الطبعة الثانية، تشرين الأوّل ١٩٩٨
ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٧٣٨١٥٩-١-٩٦١
ISBN 2-84289-054-X

المحتويات

مفاوضات الجلاء في باريس ٢٤٥
مفاوضات الجلاء في باريس ٢٤٥

يوسف سالم

بقلم تقي الدين الصلح

عرف عن يوسف سالم انه فعال في شتى مجالات عمله. وربما كان من الادلة على فعاليته ان توظيفه في السلك الديبلوماسي في مطلع عهد الاستقلال - بالاضافة الى الاستفادة من مواهبه - كان وسيلة لابعاده عن ميدان السياسة الداخلية والتخلص من تحركاته.

لقد كان حكام ذلك الزمان مهرة في ممارسة هذا الاسلوب الذي لم يختص به لبنان وحده، بل مارسه كثير من البلاد الاخرى. ان عددا كبيرا من سفراء العالم وموظفي السلك الديبلوماسي ليسوا في الحقيقة وفي حساب من ارسلهم الى الخارج، الا منفيين من نوع ممتاز. لكن يوسف سالم كان بارعا بدوره في اعطاء المركز الذي اسند اليه قيمة واثرا كبيرين. فسرعان ما اصبح السفير اللبناني لدى بلاط الملك فاروق، نجما من المع نجوم الجسم الديبلوماسي في مصر، واكثر من ذلك، بات مشاركا فعليا في سياسة بلده. فكان حضوره في لبنان، وهو بعيد عنه، ملموسا وحسيا كما كان في القاهرة.

ان حياة يوسف سالم هي صورة دائمة عن الرجل الذي يحول بكفاءته اي منصب يسند اليه، الى مهمة من الدرجة الاولى، اذ هو يعطيه اللمعان والاهمية اللافتين للانظار.

واذا كنت كمستشار للسفارة اللبنانية في القاهرة قد شهدت ـ وانا المنفي الاخر ـ فن يوسف سالم هذا، فان كثيرين غيري، حتى الذين لم يكونوا يضمرون له الود، يعترفون للرجل بهذه المقدرة.

ان يوسف سالم لم يكن وجوده عضوا في لجنة الدستور اللبناني من باب الصدف، كما لم يكن وجوده في وفد الجلاء صدفة ايضا، بل كان مبعثه الثقة بكفاءته ونزعته الدستورية والاستقلالية.

وهو، وان تكن نيابته قد سبقت العهد الاستقلالي، فانها كانت تعكس ميله الى التحرر والانعتاق. وان النزعة الدستورية جزء من هذا الشعور.

اما يوسف سالم الاداري الذي تبرزه صفحات «ذكرياته» فهو نموذج من الرجال القليل عديدهم في تاريخ لبنان السياسي. ونحن بحاجة الى ابراز اسمائهم وسيرهم ولا سيما في ايام تظهر فيها الادارة كمشكلة من اهم مشاكل الوطن.

ان قيمة هذه الذكريات تكتسبها من قيمة التجربة المهمة التي هي حياة يوسف سالم العامة، وتكتسبها ايضا من عضوية الشهادة وصدقها، ومن الهدف الوطني الدافع اليها.

فجيل يوسف سالم سيقرأها مستمتعا باستعراض ايام واحداث عاصرها وعاشها. والاجيال التالية تتعرف الى فترة تاسيسية من حياة لبنان ديموقراطيا ووطنيا، كما ستفيد خبرة وعبرة.

وانه لفضل يسجل ليوسف سالم ان يقدم الى الناس، وبهذا الشكل الرائق، جزءا من تاريخ البلد، جاريا في ذلك مجرى قلة من رجال السياسة يدركون ان هناك واجبا هو، اعطاء من يخلفونهم ثمار معرفتهم وتجربتهم.

ان الكسل عن التدوين احد عيوب رجال السياسة عندنا. ويقول بعض المفكرين ان هذا الكسل من امارات التخلف في الشعوب. فالشعب المتخلف هو الذي تبقى فيه الحقائق في الصدور، والشعب المتقدم هو الذي تنتقل فيه الحقائق من الصدور الى الصحائف.

ان كل من يملك تجربة او معرفة ولا يدونها، انما يفقر تراث وطنه ويخل بخدمة التقدم في بلده. وهذا ينطبق على كل الناس، فكيف بمن شاركوا في صنع الاحداث او كانوا في صميمها. انهم ليدفنون كنوزا ليست لهم.

ان خمسين سنة عاشها يوسف سالم مع الناس جديرة بأن تنفح من يرافقها عبر هذا الكتاب بمتعة المطالعة وطرافة التاريخ، وفوق ذلك وخصوصا، بتلك الروح الطامحة التي تجعل الفرد لا يعيش مع الناس فحسب، بل يعيش للناس. وان فكرة العمل العام هي في الجَوهر، ان يكون المرء مع الاخرين ولهم، بقدر ما يكون مع نفسه ولها.

تقي الدين الصلح

الى القارىء

ليس هذا الكتاب سيرة حياة، مع ان لكل انسان قام بعمل مثل عملي، صعودا وهبوطا في حياته، يحسبان سيرة. الا ان الناس لا تهمها من سيرة الفرد الا أعماله المتصلة بسيرهم وتحسسهم ومجتمعهم.

واعرف اني قمت بدور ذي اثر ــ وان ضعيفا ــ في تطور بلادي، على مختلف ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة الوطنية، في عهود خطيرة تتصل بمصائر الناس وتحسساتهم، فقررت ان ارسم لوحة عليها ذكريات من حياتي بالوانها الصادقة قد يكون فيها فائدة وعبرة لأخواني.

هذا الكتاب

ورأيت، بعد ان بلغت السبعين وجاوزتها قليلا، انني، عايشت في بلادي، وخارج بلادي، اناسا عرفتهم وعرفوني، من ذوي الاثر البارز في مسيرة وطني لبنان نحو السيادة والاستقلال.

ثم انني عاصرت احداثا اسهمت في بعضها، وعشت في بعضها الاخر، وكان لها، في زمانها وزماني، اهمية بلغت احيانا من الخطورة حد الحسم في مصير وطني الذي فيه ولدت، ومن اجله عشت، وفيه ارجو ان يضمني ترابه يوم اموت.

وكنت، بعد السبعين، كلما اويت الى مخدعي، والقيت راسي على الوسادة، واغمضت عيني، ارى اولئك الناس ماثلين مع الاحداث في خاطري، اسمع ما قالوا وارى ما فعلوا. فيلم سينمائي يكر امام عيني المطبقتين في قاعة مظلمة فسيحة ليس فيها من النظارة سواي.

وشريط الفيلم طويل. يزيد على خمسين عاما. واشخاصه كثيرون. واحداثه اكثر!

ارهقني الفيلم. اتعبني وملك علي لبي.

رايت فيه صورا جميلة. وصورا بشعة. وفي كل مشهد من مشاهده، يردني عشرات السنين الى الوراء. وفي كل حادثة من حوادثه اشعر بحاجة ملحة الى ان يشاركني الناس في رؤيته ويجلسوا معي في القاعة المظلمة الفسيحة، فلا اظل فيها وحدي.

وهكذا ولدت فكرة الكتاب.

ذكريات وعتها نفس انسان كان شاهدا على حقبة مهمة من تاريخ بلده. لكنه كان شاهد حقيقة، لا شاهد زور.

وربما وقع القارىء على حوادث تبدو غير ذات خطر، واحيانا تافهة، فتساءل لماذا أوردتها وعنيت بها وبسردها؟

أسارع فأجيب، ان لكل حادثة، وان بدت تافهة، مغزى تشير اليه، وعبرة قد يستفيد منها المتأمل.

وربما قسوت على اناس تصلني بهم صلات وثيقة من ود مقيم وتقدير كبير. وانا حين اقسو لا اظلم بل اقول الحقيقة التي نذرت لها نفسي وستكون ساطعة في هذا الكتاب. فهي التي تقسو وهي التي تملي علي ما اكتب.

لان الحقيقة، في النهاية، يجب ان تقال، اذا كان الكاتب، ولا سيما كاتب التاريخ، حريصا على ان يحترم رسالة القلم فيحترمه الناس.

احببت في هذه المقدمة ـ من اول الطريق ـ ان اضع القارىء في جو كتابي، حتى يعرف قبل ان يقرأ كلمة منه لماذا كتبته، وماذا ابتغي من وضعه بين يديه.

ي.س.

كيف دخلت معترك الحياة

الباخرة تقترب على مهل من شواطىء لبنان كأنها تعبت من الرحلة الطويلة.

وانا اتمشى على ظهرها منتظرا بلهفة وصولها الى بيروت. ولو ان في مقدوري ان ادفعها لفعلت.

واقول لنفسي: وانا تختلط مشاعري بعضها ببعض. شوقي الى وطني يختلط بخوفي من الفشل في الحياة. لذة الوصول الى بيتي يمازجها القلق من المستقبل الذي يلفه الغموض.

انا حائر بين فرح العودة وظلام المجهول.
والمستقبل هو هاجسي الاكبر.
كيف اواجه الحياة وماذا ينتظرني؟
وارى نفسي رغم تداخل الاحاسيس بعضها في بعض مغتبطا الى حد السعادة.
انه الوطن!

كان ذلك في تموز من سنة ١٩٢٢ وعمر الشاب يوسف سالم ثلاثة وعشرون عاما. الفتى الذي سافر الى باريس قبل ثلاث سنوات ساعيا

وراء شهادة تكون تأشيرة مرور في الحياة، يعود اليوم حاملا تلك التأشيرة، شهادة الهندسة من مدرسة الكهرباء والميكانيك الصناعية.

انها لحظات فاصلة في عمري، وقد ختمت رحلة الدراسة وبدأت رحلة جديدة يساورها القلق.

وبالطبع لم يكن يدور في خلدي، وقدماي تطآن ارض الوطن، ان حقبة طويلة من تاريخ لبنان ستمتلىء بها حياتي وسيكون لي فيها دور، قد يكون ضئيلا أو كبيرا ـ لا ادري ـ ولست انا الذي يقيمه بل الناس والتاريخ.

الإنتداب الفرنسي

عهد الجنرال غورو

كان لا بد لي من فترة التقط فيها انفاسي واستريح، كما يفعل المقاتل بعد المعركة. فسنوات الدراسة الثلاث في باريس كانت معركة حقيقية بين شبابي المتأجج وكل ما في باريس من فتنة وجمال واغراء. لكنني كبحت جماح الشباب ووقفت كل وقتي وجهدى على الفوز بالشهادة.

لم تكن الشهادة في نظري هي الغاية والهدف، بل وسيلتي الى غاية كبرى وهدف اسمى. كانت في نظري السلاح الذى اخوض به معركة الحياة. وهي معركة اشد صعوبة من معركة الدراسة في باريس.

ورحت اسعى واسأل وابحث عن مجالات العمل الذي يتفق وتحصيلي واختصاصي ويفتح امامي سبيل الانطلاق.

كان وطني لبنان تحت الانتداب الفرنسي. وكذلك كانت سورية، ويحكم البلدين «مفوض سام» ترسله باريس الى بيروت مع جيش من المستشارين، والموظفين، والاعوان، يحتلون الوظائف الكبرى ويتمتعون بامتيازات لا يصل اليها ابناء البلاد ولا يحلمون بها.

مجال العمل ضيق ينحصر في قطاعين. وظائف الدولة، والاعمال

الحرة. كنت اكره ان ابدأ حياتي بقيود الوظيفة، وانا الشاب الذي لا تسع الدنيا طموحه واحلامه. كنت ارفض ان ادفن طموحي في غرفة صغيرة من غرف السرايات واعد الأيام منتظرا نهاية الشهر لاقبض مرتبي كما يفعل الكثيرون.

العمل الحر يغريني. لكنني لم اكن املك من المال ما يكفي لفتح مكتب اكون فيه سيد نفسي.

لذلك اتجهت الى المؤسسات الكبرى، وهي قليلة العدد: شركة الكهرباء. شركة المرفأ. شركة السكة الحديدية. شركة المياه. حيث العمل يختلف عن العمل في السرايات وحيث الجهد الشخصي والكفاءة هما اللذان يفتحان ابواب التقدم. والعمل في مثل هذه المؤسسات لا يختلف كثيرا عن العمل الفردي.

ان وضع هذه الشركات، وانظمتها، وقوانينها، تقف في وسط الطريق بين وظائف الدولة والاعمال الحرة. كان اشراف الدولة عليها امرا واقعا. لكنها تتمتع باستقلال ذاتي في العمل يحببها الى امثالي الذين يعشقون العمل الحر ويعجزون عن ممارسته.

وهكذا طفت بجميع الشركات، مبتدئا بشركة الكهرباء.
وكلما طرقت بابا انفتح امام شهادتي نصف فتحة، ثم لا يلبث ان ينغلق في وجهي.

ليس للبناني ان يطمح الى وظيفة مهندس

وكنت اتلقى جوابا واحدا: «ان مركز المهندس في الشركة مخصص للفرنسيين، وليس للبناني ان يطمح اليه». حتى الوظائف الصغيرة تحتاج الى توصية فرنسية من المفوضية السامية، او من احد المقربين منها، او من مقرب من احد موظفيها.

صدمت، في بادئ الامر وساور نفسي الاستغراب. ثم غمرتني مشاعر الانقباض والحسرة والحزن. احسست اني غريب في وطني، وان كل شيء في قبضة الفرنسيين. لقد وضعوا ايديهم على المؤسسات التجارية والصناعية وتحكموا بالبلاد.

لكنني لم ايأس بل ثابرت على السعي حتى استطعت الوصول الى المفوض السامي نفسه، وكان يومذاك الجنرال غورو احد كبار القادة الفرنسيين الذين اشتهروا في الحرب الكونية الاولى. ولم يكن من السهل على كبار اعيان البلاد الوصول الى من هم دونه، فكيف بشاب مجهول مثلي يصل اليه؟

لذلك كانت فرحتي كبيرة عندما تلقيت دعوة لمقابلة المفوض السامي في مصيف عاليه، بعد عشرة ايام من طلبي مقابلته في رسالة ذكرت فيها انني شاب لبناني انهى تحصيله في عاصمة النور باريس.

كان الجنرال غورو يقضي الصيف في قصر بسترس الكبير المختبئ بين الاشجار الملتفة في اعلى المصيف فوق الخط الحديدي. وينتقل معه الى القصر بعض الموظفين من امانة سره. ولم يكن يخطر ببالي انني ساقابل القائد الكبير، صاحب الذراع المقطوعة في معركة الدردنيل. ولكنه

استقبلني، واصغى الي، فعرضت عليه حاجتي وشكوت احتكار الفرنسيين للوظائف الفنية في الشركات. فطلب الجنرال من سكرتيره – وهو يومذاك السيد بيير ليوتي الذي يعرفه اللبنانيون – ان يراجع باسمه المؤسسات الفرنسية.

ولكن على رغم تدخل المفوض السامي بنفسه ظلت ابواب الشركات مغلقة في وجهي.

حقيقة الانتداب

ذهلت. وكان ذهولي تخالطه خيبة امل كبيرة وحسرة اكبر.
كنت في عداد اللبنانيين الذين رحبوا بانتداب فرنسا على لبنان، بعد حكم العثمانيين ومآسيه. واعتبرت الانتداب صيغة جميلة للتعاون بيننا وبين فرنسا، فاذا بي اكتشف انه قناع شفاف يختفي تحته وجه الاستعمار البشع.

رحبت مع المرحبين بالانتداب، وفي ظني ويقيني انه جسر انعتاق من العبودية والاضطهاد والمهانة والمذلة الى التحرر والحياة الكريمة. فاذا به طوق جديد يحز رقاب اللبنانيين بقساوة اعتى واشد، ويعاملهم في قلب وطنهم على انهم رعايا من الدرجة الثانية او الثالثة، بينما الصدارة والامتيازات للفرنسيين، حكاما واناسا عاديين. واذا بالفرنسي، وقد خلناه رفيقا لنا متعاونا معنا على النهوض ببلدنا، يتصرف كأن لبنان مستعمرة او بلد فتح بقوة السلاح لا صديق جاءت فرنسا اليه تلبية لرغبة ابنائه!

تكشفت لي هذه الحقائق – كما تكشفت لكثيرين غيري – وامتلأت نفسي بالمرارة والأسى. ورويدا رويدا بدأت تتغير ملامح الصورة الجميلة

التي كانت لفرنسا في خاطري، وتتغير خطوطها المشرقة لتحل محلها خطوط قاتمة.

وبدأت أفكر وأؤمن وأعي ان لا نعمة توازي نعمة الحرية والسيادة والاستقلال.

في شركة مياه بيروت

وجاء القدر ذات يوم يلاعبني كما يحلو له ان يلاعب كثيرا من الناس. وابتدأت لعبته بالصدفة.

في صباح أحد الايام كنت أطالع احدى الصحف فوقع نظري على نبأ يقول ان مهندسا في شركة مياه بيروت قد توفاه الله. فطويت الصحيفة وتساءلت: لماذا لا اطرق باب الشركة مرة اخرى واعرض عليها نفسي؟ لماذا لا اقدم على هذه التجربة؟ لماذا لا احاول المستحيل؟

ووجدتني احمل نفسي الى شركة المياه واطلب مقابلة مديرها – الفرنسي بالطبع – الكومندان دي بوريغار الذي كنت قد قابلته من قبل دون جدوى.
وبعد انتظار طويل دخلت عليه وهو جالس وراء مكتبه، فنظر الي من فوق نظرة ملؤها الغطرسة. ولما بسطت له حاجتي افترت شفتاه عن كلمات قليلة: «آسف. ان هذه الوظيفة مخصصة للفرنسيين».

في لحظة، أو جزء من لحظة، لمعت في خاطرى افكار كثيرة ما لبثت ان اطفأتها بقوة ارادتي مسلما أمري الى الله. وانصرفت.

سيدنا المطران يسلم عليك

وفيما انا اغادر مكتب المدير، لقيت في الباب احد رفاق المدرسة. وكان موظفا في الشركة. فسألني عما بي وقد رآني عابسا مقطبا. فرويت له قصتي مع المدير الحاكم بأمره. فاشار علي رفيق المدرسة بان اقابل رئيس مجلس ادارة الشركة السيد الياس صباغ. وقال: «جرب. ولن تخسر شيئا. واذا لمست منه عدم اهتمام بامرك، او وجدته مترددا، دعه يعرف انك من طائفة الروم الكاثوليك، فهو ايضا ينتمي الى هذه الطائفة».

طرقت باب السيد صباغ في مكتبه، واستقبلني بعدم اكتراث وظل يقلب اوراقا بين يديه، وأنا واقف في مواجهته دون ان يدعوني للجلوس. ثم سألني، كأنه شعر فجأة بوجودي: ماذا تريد؟

قلت: أنا شاب لبناني درست الهندسة في فرنسا. وقد بلغني انه شغر مركز في شركة مياه بيروت، فجئت اطلب تعييني فيه، وأنت، يا سيدي، رئيس مجلس ادارة الشركة.

قال، غير مكترث: «صحيح انني رئيس مجلس الادارة. ولكنني لا اتدخل في مثل هذه الامور. فاذهب وراجع المدير المسؤول».

اجبته، والغيظ يتفاعل في نفسي ويكاد ينفجر في كلماتي: يا سيدى. ذهبت الى المدير وعرضت عليه الامر، فكان جوابه ان المركز مخصص لحملة الجنسية الفرنسية. لماذا يميزون الفرنسي على اللبناني اذا كانت كفاءة ابن لبنان توازي كفاءة الفرنسي، او تفوقها؟

فاجابني السيد صباغ بحدة، واصابعه تعبث بالاوراق عبثا سريعا: «قلت لك راجع المدير، فأنا لا اريد ان اتدخل مباشرة في شؤون موظفي الشركة».

قال ذلك وأوحى الي بحركة من وجهه ويده بأن المقابلة قد انتهت ولم يبق علي إلا ان انصرف.

وفجأة تذكرت نصيحة رفيق المدرسة، فقلت لرئيس مجلس الادارة الخطير، بصوت ناعم: نسيت يا سيدي ان اقول لك ان سيادة المطران عرف انني آت اليك فكلفني ان انقل اليك تحياته.

قلت ذلك، وخطوت خطوة كأنني أهم بالانصراف. فاذا السيد الصباغ يترك الاوراق التي بين يديه ويسألني بفضول واهتمام: من هو سيادة المطران الذي تعنيه؟

قلت: المطران مكسيموس الصايغ رئيس اساقفة صور.
فقال بلهفة: ولكن من أية طائفة أنت؟
قلت: روم كاثوليك. وابتسمت.
وابتسم!
يا سبحان الله! لقد حدثت المعجزة.
فجأة تغيرت ملامح الرجل، وبلهجة طافحة بالود والعطف قال: لماذا لا تزال واقفا؟ تفضل واجلس.
ثم طلب لي القهوة.
وأخذ يحدثني باهتمام كبير ويسألني عن المطران وعن صور، وعن عدد الروم الكاثوليك في بلدي، وعن احوالهم.

وكنت اجيبه بما يسره ويثلج صدره.

وما كادت القهوة تصل حتى كان السيد صباغ قد انهى كتابة بطاقة الى المدير. ثم اعطاني اياها وهو واقف يقول لي بلهجة من يعرفني من سنين وسنين: «اذهب غدا الى مدير الشركة وسلمه هذه البطاقة، تحصل على ما تريد»

... وهكذا اصبحت مهندسا في شركة مياه بيروت.

اجل. لقد حدثت المعجزة، وحصل الشاب اللبناني على الوظيفة المخصصة للفرنسيين دون سواهم.

ولكن بأي ثمن!

جراح عميقة فتحها في نفسي سلاح الوصول الى الوظيفة، قبل ان ينفتح امامي باب مكتبي الجديد في شركة مياه بيروت. لقد تركت كلمات رفيقي في اذني رنينا عميقا.

حتى تلك اللحظة التي نلت فيها الوظيفة، لم يكن يخطر ببالي انه سيأتي يوم اضطر فيه الى الاستعانة بالطائفية بدلا من الشهادة التي أحملها، وأن سر النجاح في ما اسعى اليه قد يكون كامنا في انتمائي الى هذه الطائفة او تلك، لا في كفاءتي ولا في العلم الذي تلقيته.

وجرح آخر، هو وقوفي بالابواب وقفة الذليل، اسابيع بطولها. وتأرجحي بين الامل واليأس وانا في مطلع حياتي وعز شبابي. والصدمات التي القاها كل يوم فتثير كبريائي، وتحطم اعتزازي بعلمي. ونظرات التعجرف التي اراها في عيون الاسياد في بلدي، الغرباء عنها، كلما قابلت واحدا منهم، وكلماتهم التي تلسعني.

لم تكن فرنسا التي درسنا تاريخها وتعشقنا مبادئها، والتي هللنا

وكبرنا لنزولها بيننا، واعتبرنا مجيئها الى لبنان نعمة الله علينا، وعقدنا الآمال عليها، لتكون عونا لنا على اجتياز مرحلة العبودية وايصالنا الى الاستقلال الناجز التام. لا. ان تلك الدولة التي تحكم بلادنا هذا الحكم السيئ وتتصرف بنا تصرفها بالمستعمرات، ليست فرنسا التي عرفناها.

وشهد شاهد من اهله

وفي ذلك كتب السيد ريمون بوانكاره الذي كان رئيسا للجمهورية الفرنسية مقالا طويلا في «مجلة العالمين» الباريسية عنوانه «فرنسا في سورية» حذر فيه من سوء التصرف الذي يتصرفه الفرنسيون في بلادنا.

قال بوانكاره:

«.... واذا اردنا ان يتوطد وضعنا في الشرق، وجب علينا ان نتصرف فيه تصرف المحررين والمرشدين، لا تصرف المحتلين والاسياد... ويبدو ان بعض الوزارات (الفرنسية) استحلت ان ترسل الى سورية موظفين مرذولين، وان الشرق صار فردوسا مرتهنا للمأمورين الذين شاء سوء حظهم ان لا ينجحوا في بلادهم».

(ريمون بوانكاره ـ التاريخ السياسي ـ ج ٣ ص ٣٥).

قلت: والواقع ان جميع الدول تتساوى في اطماعها عندما تضع يدها على شعب من الشعوب ولا سيما اذا كان ضعيفا.

ولكن خيبة الامل بالدولة المنتدبة ـ «الصديقة» ـ لم تكن شيئا يذكر بالنسبة الى الجرح الثخين الذي فتحته في نفسي الشابة حقيقة مخيفة. وهي ان الطائفية هي التي اوصلتني الى ما كنت اصبو اليه. وبدأت أشعر، ثم أتساءل هل تكون الطائفية هي القانون السائد فوق كل قانون؟

ولم يخطر لي يومذاك ان الدستور اللبناني الذي وضع بعد ذلك باربع سنوات سيكرس الطائفية ويرتكز عليها، ويجعل مبدأها الرجعي اساسا له.

ولم أكن أتصور، في سذاجة شبابي، انني بعد خمسين عاما، وبعد الاستقلال وتمتعنا بالسيادة والحرية، وهما نعمة الحياة الكبرى، ستظل هذه الطائفية البغيضة تنخر جسم بلادي، وتهدد كيانه واستقلاله.

كل يوم تنبت للطائفية شوكة جديدة في جسم لبنان.

مرة تثير الطائفية مسألة سياسية هي من صميم عمل الدولة وواجبها.

ومرة تطالب بامتيازات تتورع الدولة نفسها عن ممارستها خوفا من ان تخرق القاعدة الاساسية التي نص عليها الدستور وهي ان اللبنانيين متساوون امام القانون.

وكثيرا ما تحاول الطائفية ان تملي على الدولة ساعات عملها وساعات راحتها حتى صرنا في لبنان نتساءل: هل الطائفية اقوى من الدولة ام الدولة اقوى من الطائفية؟ ومن هو صاحب السيادة والسلطان

في لبنان؟ أممثلوه الشرعيون من رؤساء ووزراء ونواب الى آخر السلم ام المتاجرون بالطائفية الذين يخدعون باسمها السذج من الناس؟

طموح سياسي في نفسي

ان الاحداث التي تغير مجرى الحياة او تسهم في هذا التغيير قد تكون كبيرة، طاغية، عنيفة، يحسها الانسان ويتأثر بها، او تكون من النوع الذي ينحفر في الاعماق ولا يطفو على سطحها الا بعد ان يتم التغيير ويتكامل.

وبالنسبة الي فقد بدأت اشعر بميل الى السياسة منذ ان تسلمت عملي في شركة المياه في تشرين الاول من سنة ١٩٢٢. ولم يكن لي سبيل ـ لسبب لا ادريه ـ الى كبح هذا الميل ودفنه في قرارة نفسي.

كنت اقرأ الصحف بشغف، وانجذب على غير وعي مني الى المقالات والاخبار السياسية. وكنت اتعمد الاختلاط بالسياسيين والتحدث اليهم. وسهل لي ذلك، عملي في شركة المياه وحاجة الناس من جميع الطبقات الى موظفي هذه الشركة مهما صغر شأنهم.

لماذا الاهتمام بالسياسة؟

كنت اشعر والمس لمس اليد ان هنالك امورا غير مستقيمة يجب تقويم اعوجاجها وان اصلاحها واجب وطني، وان العمل السياسي هو السبيل الى الاصلاح المنشود.

لا شك ان الواقعتين المؤسفتين اللتين اصطدمت بهما وانا اطرق ابواب الحياة العملية لاول مرة، اعني طغيان الحكم الاجنبي وطغيان الطائفية، كان لهما اثرهما الحاسم في دفعي الى معترك السياسة.

ومع الايام نما حب السياسة في نفسي وتفاعل، وصار طموحا مستقلا عن طموحي كمسؤول في شركة المياه، وان لم يتعارض معه. كان الطموح السياسي وطموح رجل العمل يشكلان خطين متوازيين في طريق مستقبلي أشعر انهما قد يلتقيان يوما من الايام. ولا ينس القارئ انني مهندس، وانني اعرف ان الخطين المتوازيين لا يلتقيان ابدا في علم الحساب. ومع ذلك كان في داخلي شعور يقول لي ان لكل قاعدة شذوذا وان خطي وطموحي الاثنين قد يكونان هذا الشذوذ في مسيرة حياتي.

حادث صغير دخلت منه

ولم تمض سنة حتى وقع الحادث الذي دخلت منه، على غير انتظار مني، باب الحياة العامة.

كان الحادث على ضآلته كافيا لان يجعلني اخطو خطوتي الاولى في طريق طالت، كنت فيها، ولا ازال، امشي احيانا، واقف حينا. افوز مرة واخفق مرارا. لكنني دائما اعاود السير من جديد.

تلك هي مسيرة السياسة والحياة العامة، مشيتها من مهندس بسيط في شركة مياه بيروت، الى نائب عن الشعب، الى سفير يمثل بلاده في الخارج، الى وزير يشترك في الحكم، ثم الى مفاوض في معركة جلاء الجيوش الاجنبية، بعد معركة تحقيق الاستقلال.

ان تربيتنا السياسية والمدنية، على رغم ما حصلناه من تقدم وتطور في ميادين العلم والثقافة والاجتماع والاقتصاد، ظلت متخلفة لا تتفق مع طموح شعب يتوق الى ان يكون مصدر اشعاع في الشرق كله.

جائزة التنشيط على دراسة تاريخ لبنان

اني في ذات صباح من ايام الربيع، وبالضبط في الخامس من نيسان سنة ١٩٢٣، وانا اقرأ الصحف المحلية، وقعت على خبر قزت منه نفسي، مآله ان وجيها ثريا من اصحاب العقارات والبنايات الكثيرة في بيروت كان قد منح جائزة قدرها خمسون ليرة للتلميذ الذي يفوز باحسن علامة في تاريخ البلاد وجغرافيتها، ووضع المانح شروطا للجائزة وعرضها كلها على المجلس النيابي ليقرها.

وفجأة رجع الوجيه المشار اليه عن مكرمته وكتب الى رئيس المجلس يقول له بالحرف الواحد انه:

«بسبب التنقيصات المهمة التي لا مسوغ لها، والتي اجبرتني لجنة الاجور على احتمالها في املاكي المأجورة،

وبسبب التقلب المقلق الذي سببته القوانين غير العادية، التي تنشر من يوم لآخر، والذي جعل تخفيضا في اسعار الاملاك غير المنقولة واجورها، واحتجاجا على لجنة الاجور، الخ...»

وانتهى الوجيه بأن طلب من رئيس المجلس التمثيلي ان لا يطرح مشروعه للمناقشة فيه، الى اشعار آخر.

وكان لعمل مانح الجائزة وقع سيئ في نفوس النواب والحاضرين. فوقف النائب الدكتور ايوب تابت رحمه الله وقال:

«كان الاحرى بهذا المجلس ان لا يضيع وقته في بحث هذه الهبة. وهذا دليل على قولي السابق ان المجلس يجب ان يهتم بالامور الهامة لا بالمسائل التافهة كهذه.

الرئيس ـ يقول المانح في كتابه انه يطلب ان ترفع مسألة هبته عن بساط البحث حتى اشعار آخر منه. فهل تقبلون التأجيل او ترفضون البحث بها بتاتا؟

اصوات مختلفة ـ لقد استغنينا عن هذه الهبة ولن نبحث بأمرها ابدا».

(محضر جلسة ٤ نيسان ٩٢٣ ص ٧٧ من المحضر الرسمي).

قرأت هذا الخبر في الصحف فثارت مشاعري وهزتني حماسة الشباب فوجدتني اتناول القلم لاكتب ما يأتي:

«لجانب عطوفة حبيب باشا السعد رئيس المجلس النيابي الافخم

يا عطوفة الرئيس

اتشرف بابلاغكم اني قد اطلعت في الجرائد المحلية على الكتاب الذي قدمه لكم حضرة (.....) طالبا فيه صرف النظر عن المناقشة في المساعدة التي كان قد تبرع بها تنشيطا للعلم في لبنان بالنظر لاسباب ذكرها.

ولما كنت اعتقد ان فكرة تشجيع العلم بطريقة الجوائز المالية هي خير الفكر وانجحها لرقينا. وان فريقا كبيرا من

الوطنيين اولي الحمية كانوا منتظرين نتيجة مناقشة المجلس بهذا الموضوع حتى يقتدي كل منهم بحضرة الوجيه صاحب الفكرة الاولى، ويقدموا من اموالهم بعض ما قدمه احياء للعلم والادب.

ولما رايت ان كتاب (فلان بك) الاخير جاء عثرة في سبيل هذا المشروع المفيد، وكنت لا اريد ان يحرم العلم في لبنان من تبرعات اللبنانيين الذين كانوا منتظرين اشارة المجلس حتى يمد كل منهم يده للتبرع. فاني اتبرع من معاشي الزهيد بالخمسين ليرة سورية التي استردها صاحب الكتاب كهبة للتصرف بها للغاية نفسها، بلا قيد ولا شرط، سوى ما يرتئيه مجلسكم الخطير.

وارجو ان تجرى المناقشة بهذا الموضوع كما كانت جرت لو لم يحدث ما حدث اخيرا، عسى تتم الفكرة التي احلم بها.

واني بانتظار اصدار اوامركم تفضلوا بقبول احتراماتي الفائقة سيدى

يوسف سالم
«مهندس شركة مياه بيروت»

ونشر هذا الكتاب بنصه في محضر جلسات المجلس وجاء في صدده ما يأتي :

« تلاوة كتاب يوسف افندي سالم

تلي كتاب بامضاء يوسف افندي سالم مهندس شركة مياه بيروت يعرض على المجلس هبة بمقدار هبةجاك بك تابت بدون قيد ولا شرط. فصفق له المجلس استحسانا. وقد الحق نصه بهذا المحضر وقرر المجلس ان ترسل نسخة منه الى الحكومة. وهي تعيده الى المجلس للمناقشة.»

(محضر جلسة ٩ نيسان ١٩٢٣ ص ٨٨ و ٨٩)

ووافقت الحكومة على الجائزة وكتبت الى المجلس الكتاب الآتي نصه :

« ترى الحكومة ان تقبل الهبة التي يقدمها حضرة يوسف افندي سالم المهندس في شركة مياه بيروت، رغبة في التشجيع على التعليم العام. وتقترح ان يجعل هذا المبلغ جائزة تعطى مناصفة للفتى والفتاة اللذين يتفوقان في مسابقة موضوعها : تاريخ لبنان وسوريا وجغرافيتهما. »

« ناظر المالية : يوسف ميرزا »
(المحاضر : ص ١١٢)

« واثار جواب الحكومة تعقيبا من النواب ووافقوا على اقتراح قدمه زميلهم ابراهيم المنذر نائب جبل لبنان بان « يزاد في هذا المبلغ (من صندوق الحكومة) لاعطاء ثلاث جوائز : واحدة للفائز الاول وثانية للفائز الثاني وجائزة ثالثة للفائز الثالث » وقد وافق المجلس على طلب زميلهم.

(المحاضر : جلسة ٣ ايار ١٩٢٣)

لماذا ارسلت ذلك الكتاب الى رئيس المجلس التمثيلي، انا الموظف الناشئ في شركة المياه؟

اكبر ظني ان ما حفزني على ذلك كان ثورتي على هذا النوع من التصرف الاناني والخيبة التي شعرت بها تجاه رجل اعجبت بفكرته، فاذا به لا يستحق الاعجاب.

وعلى كل حال فهذه الحادثة الصغيرة وضعتني في طريق السياسة ودفعتني الى الحياة العامة، ثم القتني في قلب المعترك طوال خمسين عاما لم انقطع فيها عن مرافقة احداث بلادي من قريب او بعيد. وجعلتني، في ما بعد، اتصل اتصالا وثيقا بصانعي التاريخ فيها، واحمل اليهم والى وطني من فيض قلبي، وعقلي، وايماني، اسهامي المتواضع في حقبة دقيقة وخطيرة من تاريخ لبنان.

عهد الجنرال ويغان

اقالة الجنرال غورو وتعيين الجنرال ويغان خلفا له

كان العام ١٩٢٣ عام الحيرة بالنسبة الى الانتداب. فيه مادت الكراسي تحت المفوضين السامين، وتدحرجت رؤوسهم المتعالية نتيجة تبدلات سياسية داخل فرنسا. وكان كل كرسي يميد تهتز معه كراسي عشرات الحكام والموظفين.

مفوض سام يأتي. وآخر يروح. حاكم يعين وآخر يقال. ولبنان وسوريا يشاهدان ما يجري في باريس وبيروت ولا يستطيعان ان يفعلا شيئا.

كان الحكام يتبدلون. ولكن الانتداب ظل يلعب لعبته المفضلة ويمارس اساليب الحكم الطاغي في لبنان. لعبة السيد المطلق الصلاحية، المطلق الحرية، المطلق النفوذ.

وكانت الحيرة هي ايضا تتلاعب برؤوس الحكام الذين ترسلهم

الينا باريس من جنرالات ومدنيين.

في اواخر سنة ١٩٢٢، أقيل الجنرال غورو وعين الجنرال ويغان خلفا له. وكلاهما بعيد الصيت في عالم الجندية.

ومارس المفوض الجديد عمله بحزم واستئثار كأنه وال روماني، ولم يجرؤ احد على معارضته.

وبهذه الذهنية جاء الجنرال ويغان سنة ١٩٢٤ من فرنسا بصديقه العجوز المتقاعد الجنرال فاندنبرغ وعينه حاكما على لبنان. ولبنان يومها انقاض حكومة تحتاج الى شباب وقوة ونشاط. وحاكمه يستمد سلطانه من المفوض السامي، ويعاونه في الادارة مجلس من النظار اللبنانيين، والى جانب كل ناظر ـ والاصح القول ـ على يمين كل ناظر مستشار فرنسي في يده الحل والربط.

المستشار

لا بد من استدراك هنا على كلمة مستشار: فقد شاعت هذه الكلمة في اكثر الاقطار العربية لكثرة المستشارين في مختلف دوائرها، حتى في التي لا تحتاج الى مشورة! والاصل في وظيفة المستشار ان صاحبها ذو اختصاص في العمل الذي ينتدب لابداء المشورة فيه، وان يبدي هذه المشورة حين تطلب، وبها تنتهي مهمته.

واما في الاقطار العربية الواقعة تحت الانتداب فكان اكثر المستشارين موظفين عاديين لا اختصاص عندهم، الا انهم يتدخلون في الكبيرة والصغيرة، ومن دون طلب، ويبتون في الامور ويحكمون حكم سلاطين، ارادتهم مقدسة منفذة.

كان مجلس النظار او المديرين في ذلك الوقت مؤلفا من السادة: شارل دباس للعدلية، الشيخ محمد الجسر للداخلية، الامير جميل شهاب للمالية، نجيب عبد الملك للمعارف، ابراهيم حيدر للزراعة، الفونس ايوب للامور الاقتصادية، ادمون بشارة للاشغال العامة، الدكتور يوسف منضور للصحة والاسعاف العام.

عهد الجنرال سراي

وقفة ضد رجال الانتداب

جرت الانتخابات النيابية في فرنسا سنة ١٩٢٤، وفازت كتلة اليسار المؤلفة من الراديكاليين الاشتراكيين ومن الحزب الاشتراكي (ليون بلوم) ومن حلفائهما، وسجلت انتصارا قويا. فدعي الى تشكيل الوزارة الزعيم الراديكالي ادوار هريو، واستعان بوزراء معروفين بعداء اكثرهم للاكليريكية.

وكان الجنرال ويغان متدينا، وقد ساير رجال الدين في بلادنا وقربهم ورفع رايتهم. فأقلقت ميوله بعض الفئات في لبنان وسورية، وازعجت الفرماسونيين والعلمانيين، على قلتهم، من بلديين وفرنسيين.

وما ان بدأت الوزارة الراديكالية الاشتراكية في فرنسا عملها حتى بدأت المساعي، هنا وهناك، الى اقالة ويغان. وقد لباها هريو، وانهى مهمة المفوض السامي ببرقية علنية أثار اسلوبها ضجة.

وعين القائد المتقاعد سراي خلفا لزميله ويغان. والجنرال سراي من ابطال الحرب العالمية الاولى وذو نزعة يسارية تخاصم الاكليريكية.

فكان أول عمل قام به على أثر وصوله الى بيروت ان دعا المجلس التمثيلي الى انتخاب حاكم على لبنان. ولم يكن قصد المفوض السامي الجديد ان يمارس النواب حقهم الطبيعي في انتخاب حاكم للبلاد بقدر انتقامه من الجنرال فاندنبرغ الذي شهد في الماضي ضده امام مجلس عسكري.

نرى مما تقدم ان لبنان لم يكن مسرحا لمخاصمات متزعمية فحسب، بل صار مرتعا ايضا للمنازعات الحزبية الفرنسية وحزازاتها، تعبث بمقدراته وتحيده عن اصلاح شؤونه وبناء بيته.

وعين الثاني عشر من كانون الثاني سنة ١٩٢٥ موعداً لان ينتخب المجلس التمثيلي حاكم لبنان. وفي الميدان مرشحان: اولهما معروف اعلن نفسه، هو اميل اده رئيس المجلس يومذاك، والآخر (سري) لم يذع اسمه ولا ترشيحه، وهو ليون كايلا الحاكم الفرنسي لمنطقة العلويين، يريده الجنرال سراي ويؤيده بكل النفوذ الفرنسي.

وكان روح الوطنية في اللبنانيين قد بدأ يتأجج، فبدأوا يفتحون عيونهم، وبدأوا يفقهون... وقد سمع جميع مثقفيهم الراجعين من فرنسا، حاملين شهاداتها العليا، ما سمعه المهندس يوسف سالم يوم طلب ان يعمل في احدى المؤسسات الكبرى فأجيب بغطرسة وقسوة: «ان مركز المهندس في الشركات مخصص للفرنسيين». نعم بدأ الوعي يهز ضمائر اللبنانيين، وبدأ الشجعان فيهم يظهرون.

من الحق القول، ان اقدام اميل اده على ترشيح نفسه ضد رغبة

المفوض السامي في ذلك الزمان، كان اكثر من جرأة. وان تأييد اخوانه من النواب كان جرأة اكبر.

وقبيل افتتاح جلسة الانتخاب، جاء من يؤكد لموظفي الانتداب انهم خاسرو الجولة، وان اميل اده فائز حتما. وما كان للسادة المسيطرين ان يسمحوا بمثل هذا التحدي، فاتفقوا مع اصدقائهم من النواب على تعطيل عملية الانتخاب بالشغب والبلبلة. وتم لهم ما ارادوا. فاصدر الجنرال سراي قرارا تلي في تلك الجلسة بتعطيل المجلس، ودعوة اللبنانيين الى انتخاب مجلس جديد بمهلة ستة اشهر اي في الثاني عشر من تموز في سنة ١٩٢٥.

واصدر قرارا آخر بتعيين ليون كايلا حاكما على لبنان الكبير.

كيف
صرت نائبا

جرى ذلك كله وانا اتابع الاحداث بلهفة واهتمام.

ورحت اطرح على نفسي السؤال الكبير : ما هو واجب اللبناني نحو وطنه في مثل هذه الظروف ؟ وماذا يستطيع ان يفعل من اجله؟

وكان طرح السؤال مثيرا للاستغراب، اذ لم يكن احد يتصور او يعرف ما سيحدث.

وفي ليلة لم انم فيها الا قليلا اخذت اقلب الامور على وجوهها وبت نهبا لشتى الافكار، حتى اذا بدت خيوط الفجر كنت قد اتخذت قراري.

سأخوض معركة الانتخابات النيابية القريبة، فاذا قدر لي ان افوز استطعت ان اراقب الاحداث السياسية عن كثب، وان اشارك فيها فعلا، وان لم افز فلا بأس علي ما دمت اخوض المعركة للمرة الاولى.

وهكذا وجدتني اخطو الخطوة الثانية في طريق الحياة السياسية، تدفعني اليها رغبة صادقة في تبديل الاساليب التي تحكم بها بلادي.

كان المجلس التمثيلي يتألف من ثلاثين عضوا ينتخبون على مرحلتين.

المرحلة الاولى : انتخاب مندوبين ثانويين. كل ٢٥٠ ناخبا يمثلهم مندوب.

المرحلة الثانية : ينتخب المندوبون الثانويون اعضاء المجلس.

وكانت محافظة الجنوب، وانا احد ابنائها، تمثل بسبعة اعضاء.

اربعة من الطائفة الشيعية. وعضو لكل من الطوائف الثلاث الاخرى : السنة والموارنة والروم الكاثوليك.

وعندما خطر لي ان ارشح نفسي، نزلت فورا الى ساحة المعركة وبدأت اسعى لدى الناخبين في منطقة صور اولا. وكانت الحكومة المحلية بالاتفاق مع المفوضية العليا تسعى الى تشكيل لوائح موالية في المحافظات جميعها.

اخفقت في نيل العطف السامي

واعترف بانني سعيت الى ان اكون احد اعضاء هذه اللائحة، لان اختيارها كان مثل القضاء والقدر لا يقف في وجهه شيء. لكنني اخفقت لان المشيئة العليا اختارت سعيد الحداد ارضاء لعمه سليمان كنعان. وكان سليمان بك احد اعضاء مجلس ادارة لبنان في عهد المتصرفين وواحدا من رجال لبنان المرموقين.

وتم اختيار اللائحة الرسمية على الوجه التالي : يوسف الزين، عبد اللطيف الاسعد، نجيب عسيران، فضل الفضل، الدكتور حبيب ناصيف، الامير خالد شهاب، سعيد الحداد.

لم يشملني الانتداب بعطفه، فاقصيت عن اللائحة التي كان يؤيدها المفوض السامي واعوانه والحكام المحليون. غير ان ذلك لم يوهن عزيمتي فمضيت في ترشيح نفسي واعلنت ذلك على الناس. وتحدي الانتداب في ذلك الزمان كان ضربا من الجنون. وربما كنت الرجل الوحيد الذي اقدم على ذلك يومئذ. واتكلت بعد الله على نفسي وعلى التجاوب الذي لقيته من الاصدقاء والناخبين. وساعدني على الاقدامَ الجريء شبابي وثقافتي اللذان منحاني بعض التفوق على خصمي سعيد الحداد المرشح

مثلي للمقعد الكاثوليكي.

لكن حادثا خطيرا ملأني لوعة وحزنا ووضعني على حافة العزوف عن القرارات التي اتخذتها. فقد توفي والدي فجأة في الخامس والعشرين من ايار ١٩٢٥ فهزت وفاته كياني، وكانت تلك اولى الصدمات العنيفة التي تلقيتها في حياتي.

وشعرت بأن وفاة والدي القت على عاتقي تبعات جمة لا بد من ان انهض بها. وفي رأس هذه التبعات المحافظة على كيان بيتنا وعلى الاسم الطيب الذي خلفه لنا فقيدنا الكبير.

وانضم هذا الشعور عاملا جديدا الى العوامل السابقة وزادني اندفاعا في ولوج السياسة من بابها الواسع.

الانتداب غير راض عن ترشيحي

احتدمت المعركة، مثل كل معاركنا الانتخابية. واشتد ضغط الانتداب على الناخبين لاختيار اللائحة المرضي عنها بأكملها.
وذات يوم، قبل موعد الانتخاب باسابيع قليلة، طلب الي مدير شركة المياه ان اقابل السيد ديمون مندوب المفوض السامي في لبنان بناء على رغبته. ففعلت.

قال المسيو ديمون، المالك سعيدا في سراي البرج :

« اعرف عنك من صديقي الكومندان دوبوريفار انك شاب نشيط،

مثقف، وانك اهل لأن تكون عضوا في المجلس التمثيلي. لكن الا ترى معي انك لا تزال فتيا؟... اقول لك هذا واريد ان تأخذ علما بان لائحة الجنوب قد اقفلت واكتملت باعضائها السبعة، ووافق عليها المفوض السامي، وليس من سبيل للرجوع عنها او اجراء اي تعديل فيها. وهذا – ببساطة – يعني ان لا أمل لك بالنجاح.»

قلت: «اعرف ان النيابة انتخاب لا تعيين.»

واضفت: «اما عن فتوتي فان عمري ستة وعشرون عاما، والقانون يخولني حق خوض المعركة. وقد صممت على ان اجرب حظي مع الناخبين.»

قال: «اكرر عليك انك اذا رشحت نفسك ضد اللائحة الرسمية فلن تنجح. واني اعتبر ذلك تحديا لارادة المفوض السامي. ويهمني ان اجنبك الفشل وانت في مطلع حياتك. لذلك انصح لك بالانسحاب. واعدك بانك بعد اربع سنوات ستكون مرشح الحكومة في الانتخابات المقبلة.»

قلت: «من الان الى اربع سنوات ستجري مياه كثيرة تحت الجسور». وانصرفت.

سليم تقلا يشجعني

ولست انكر انني عندما خرجت من مكتب السيد ديمون، تولاني القلق ورحت اتأرجح بين الاستمرار في المعركة والانسحاب.

وقبل ان اغادر سراية البرج خطر لي ان ازور صديقي المرحوم

سليم تقلا وكان مديرا للداخلية ومكتبه مجاور مكتب المسيو ديمون.

رويت له ما حدث معي.

فقال: «اذا كنت واثقا بان لك حظا ولو ضئيلا في النجاح فتوكل على الله وانزل الى الميدان ولا تعبأ باللائحة الرسمية. هذا هو رأيي وان يكن نجاحك غير مضمون.»

وكان لكلام سليم تقلا تأثير كبير في نفسي، قضى على كل تردد في عزيمتي، ووضع حدا لحيرتي. فودعته وانا مصمم اكثر من اي وقت على المضي في المعركة.

عدت الى شركة المياه وطلبت اجازة اسبوعين، ثم قدمت ترشيحي رسميا وانتقلت الى الجنوب اقوم يوميا بجولاتي على القرى، حتى زرتها قرية قرية بعكس منافسي الذي لم يقم بأي جهد لاعتماده على وجوده في لائحة الحكومة.

لن أنسحب

خططت للمعركة. وانطلقت فيها من مدينة صور ورأسمالي اصوات مندوبيها ومندوبي قضائها الذين وثقت بتأييدهم، نظرا للصداقات الكثيرة التي اورثني اياها المرحوم والدي.

واعددت لوائح انتخابية لجولة الانتخاب الثانية بعد الجولة الاولى التي تم فيها اختيار المندوبين الثانويين. وكانت لوائحي تحمل اسماء اعضاء اللائحة الرسمية ما عدا اسم سعيد الحداد فقد وضعت اسمي مكانه.

حيلة من حيل الانتخابات تتجدد كل يوم وتعرفها كل معركة...

وليلة الانتخاب جئت الى صيدا واجتمعت ببعض الاصدقاء في مقهى يقع في الشارع الرئيسي.

وكان يجلس في المقهى عينه، غير بعيدين عني، اقطاب كبار التف حولهم جمع غفير. من هؤلاء الاقطاب رضا الصلح والد رياض. وسليمان كنعان الزعيم الجزيني الذي قام بدور كبير في عهد لبنان الصغير، عهد المتصرفين. وكان عضوا في مجلس ادارة لبنان كما ذكرت في ما سبق. والحاج اسماعيل الخليل، والد كاظم، وهو احد زعماء الجنوب المرموقين.

وكان المقهى يضج باحاديث الانتخاب. فلما رآني سليمان كنعان طلب الى الحاج اسماعيل الخليل ان يدعوني الى الانسحاب من المعركة ليوفر علي تعبا لا فائدة منه، ونفقات غير مجدية، لأن سقوطي في رأيه لا ريب فيه. وكان الحاج اسماعيل صديقا للمرحوم والدي، فلما ابلغني الرسالة شكرته وقلت له ان انسحابي امر غير وارد، فقد رشحت نفسي على اساس ان لي الحق في الترشيح، والقضية تهمني من حيث المبدأ ايا كانت النتيجة، سواء افزت بالنيابة ام كنت من الفاشلين.

واضفت : اني اريد ان استطلع رأي الناس واختبر ردود الفعل عندهم، لا بالنسبة الي شخصي، بل بالنسبة الى الانتداب وممثليه. هل في نفس هذا الشعب عزة واباء كما اعهد، ام ليس عنده سوى الاستسلام والخنوع؟ انا متأكد ان الشعب اللبناني يأبى ان يفرض عليه التمثيل والممثلون فرضا. وسيثبت انه هو الذي يختار.

والمعروف عن الحاج اسماعيل الخليل انه كان من طلاب

الاستقلال المشهود لهم. وكان رحمه الله صديقا وفيا يؤيد ترشيحي كل التأييد، رغم صلته السياسية بسليمان كنعان.

فزت باكثرية صوت واحد

وجاء يوم الانتخاب. ونشطت المعركة واستعملت فيها اسلحة الضغط، والاغراء، وانواع الاقناع والوعود. اما سلاح المال فلم يكن معروفا عندنا ولا عند سوانا في ذلك الزمان، ولم يكن له سوق في المعارك الانتخابية.

وشد ازري وايدني اصدقاء كثيرون. ونصرني اناس لم يكن لي معرفة بهم. وانما هم ايدوا المبدأ الذي اعتنقته والذي منه انطلقت معلنا ان التمثيل يجب ان يكون حرا، وان ممثلي الشعب لا يجوز ان تفرضهم السلطة فرضا بل عليها ان تدع امر اختيارهم للناخبين.

ومما ساعدني كثيرا في المعركة انني اتصلت بصديقي حسن الزين شقيق الزعيم الجنوبي يوسف الزين، فضربت على وتر الوطنية في نفسه وحركت شعور النقمة على اساليب الانتداب في الضغط على الناخبين وتعطيل حريتهم. وظللت احاوره والقي في اذنه الكلام المؤثر حتى وعدني بمساعدتي على اقناع مندوبي صيدا والنبطية بالاقتراع لي دون المساس باخيه يوسف واطلاعه على الامر. وهو ما حرصت منذ البداية على ان اتحاشاه.

وفرزت اوراق الاقتراع وكانت المفاجأة الكبرى. فقد نلت ثلاثة وستين صوتا من اصل مائة وخمسة وعشرين. واصبحت نائبا باكثرية صوت واحد.

الحرية تؤخذ ولا تعطى

وفوجئت دوائر المفوض السامي ودوائر الحاكم وتولتها الدهشة يمازجها كثير من الامتعاض. لم يكن احد يصدق ما حدث، ولا سيما المسيو ديمون الذي قال عندما نقلوا اليه النبأ : « دعوني اصدق اولا... »

مرت فترة الفرحة والابتهاج وحان وقت التأملات. لقد دفعني القدر دفعا الى ما وصلت اليه. كانت ثقتي كبيرة بالشعب وبافراد من الناس عرفتهم عن قرب، اما الان فقد صارت ثقتي بهم اكبر. وكذلك بنفسي.

وخرجت من هذه التأملات بيقين راسخ وهو ان الحرية تؤخذ ولا تعطى.

انا وصبري حماده اصغر الاعضاء سنا

دخلت المجلس وعمري ٢٦ سنة، وكنت والرئيس صبري حماده اصغر الاعضاء سنا.

صرت نائبا وانا في تلك السن المبكرة، وحصل في حياتي تبدل كبير. دخلت الحياة السياسية والاجتماعية من بابها الواسع. وصار لكل كلمة من كلماتي اهمية ولكل موقف نتيجة، ولكل خطوة اثر.

وصرت، كلما خلوت الى نفسي، اتساءل : هل القدر وحده هو الذي لعب لعبته الكبرى معي وقادني الى ما اقدمت عليه وجعلني اثابر حتى اصل الى الهدف؟ ام انني خططت وعزمت وحققت حلما راودني؟ لقد هبت

رياح مواتية في شراع سفينتي فدفعتها الى الامام. ولكن ماذا تستطيع الريح ان تفعل اذا لم تقبض على الدفة يد قوية ولم يقد السفينة انسان يعرف ما يريد والى اين يتجه؟

كنت اعرف ان المشاعر التي ملأت نفسي بعد فوزي بالنيابة يخالطها كثير من غرور الشباب. لكن قسطا كبيرا من الشعور بالواجب والمسؤولية يشفع بهذا الغرور عند شاب في مثل سني، قفز بهذه السرعة من كرسي موظف في شركة المياه الى مقعد نائب في المجلس التمثيلي.

ادركت ان النيابة يجب ان تكون وسيلتي الى هدف سام وضعته نصب عيني، وهو خدمة وطني والاخلاص له، ومحاولة كسر الطوق الحديدي المضروب عليه. وكنت اعرف اني اضعف من ان احقق هذا الحلم وحدي. او اراه حقيقة وواقعا في المدى القصير. ولكن التفكير فيه والسعي له صار يملأني ثقة بنفسي ويمدني بالقوة التي تعوزني.

كنت اعيش في عزلة عن الناس، او شبه عزلة، انتقل من البيت الى مكتبي ومن مكتبي الى البيت. وفجأة القتني النيابة في خضم الحياة السياسية والاجتماعية وضجيجها.

صارت حياتي اكثر انفتاحا، واكثر حركة، واسطع اضواء. وبدأت عن طريق النيابة اتعرف الى كبار القوم ونجوم المجتمع. دخلت صالونات لم اكن احلم بدخولها، بل كانت صورا تتراقص في مخيلتي. واتصلت باناس تتردد اسماؤهم على صفحات الصحف والسنة الناس. وتعددت الولائم والسهرات وانا ادعى اليها كلها فالبي.

٢٨ تشرين الثاني ١٩٢٦

تغيرت اشياء كثيرة في حياتي. واكثر ما تغير نظرة الناس الي، ولا سيما نظرة مدير شركة المياه الى الفتى الذي طرق بابه قبل عامين يطلب وظيفة ولا يحصل عليها الا بشق النفس. صار المدير يعاملني معاملة الند للند، ويخاطبني باحترام زائد. وسقط الحجاب الذي كان بيني وبينه.

في خضم هذه الحياة السياسية الاجتماعية الصاخبة كنت احضر مأدبة عشاء عند موسى نمور رئيس المجلس النيابي. وفي السهرة تتألق آنسة رائعة الحسن، كثيرة الخفر قدمني اليها صاحب الدار. فترك جمالها ولطفها في نفسي اثرا كبيرا. كانت الانسة وداد زهير.

ولم يمض اسبوعان حتى سعيت الى بيتها طالبا يدها من والديها. وتم ذلك في الرابع عشر من نيسان ١٩٢٦..

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٦ عقد سيادة المطران مكسيموس صايغ رئيس اساقفة صور والبطريرك بعدئذ رحمه الله قراننا في كنيسة المخلص للروم الكاثوليك في بيروت.

وسار كل شيء على ما يرام. اعطي للنيابة وقتها وللعائلة حقها. وأواظب على القيام بعملي في شركة مياه بيروت، من دون ان يحد ذلك من نشاطي الاجتماعي ولا من طموحي السياسي.

❊

بينما كنت اثبت خطواتي في الحقل السياسي مستلهما طموحي وقوة ارادتي، جاعلا هدف حياتي مصلحة بلادي، كانت تتفاعل وتجري في لبنان وفي المنطقة المحيطة بلبنان امور على جانب كبير من الخطورة.
ذلك ان مجيء سراي، المفوض السامي الماسوني، خصم

الاكليروس، خلفا لويغان، على ما بسطته في صفحات سابقة، قد رافقته ضجة ظلت تتصاعد مع الشهور والايام، حتى صارت مهاترة علنية وصخبا في جميع المحافل، هنا وفي فرنسا.

لم يكد سراي يطأ ارض لبنان حتى اعلن الحرب على رجال الدين، ومؤسساتهم العلمية، والتربوية، والخيرية. وبدورهم اعلن رجال الدين الحرب عليه.

كان الجنرال سراي عنيفا في كلامه، فجا في تصرفاته، لا يخفي كراهيته لرجال الدين فيهاجمهم في كل مناسبة.

وانقسمت البلاد الى علمانيين يشجعهم المفوض السامي واكليريكيين يحاربهم. ونشطت المحافل الماسونية فتعددت اجتماعاتها وتوالى خطباؤها على المنابر.

ومن طريف ما حدث في تلك الآونة ان مدارس الرهبان والاباء اليسوعيين، وكل معهد علمي او تربوي يديره او يشرف عليه اكليريكيون كانت تبدأ دروسها في الصباح بدقيقة صمت حدادا على وجود سراي ممثلا لفرنسا.

وقد يكون اطرف من ذلك كله الحوار العنيف بل المبارزة الكلامية التي جرت علنا بين الجنرال سراي والخوري لويس الخازن.
كتبت جريدة الارز في العدد ٤٢١، الاربعاء في ١٨ من اذار ١٩٢٥ :

« قبيل ظهر الثلاثاء في ١٧ من اذار ١٩٢٥ استقبل الجنرال في مكتبه بالسراية الكبيرة رجال الصحافة وقال لهم :
« احببت ان اجتمع بكم مرة في كل شهر لأرى ما عندكم فتبدونه

لي، وما تطلبون ايضاحه مني ـ فماذا عندكم؟ »

وبدأ الصحافيون اسئلتهم، ووصل دور الاب انطون عقل صاحب « مجلة السلام » فسأله عن «صحة ما تتحدث به الناس عن عدم رد زيارة غبطة البطريرك الماروني» فقال الجنرال سراي :

ـ اني اقول لك بصراحة امام الجمهور : اني وعدت غبطته ان ارد له الزيارة، وكنت عجلت في الامر لو لم تحدث في المجلس النيابي الفرنسي تلك الضوضاء المعروفة التي اثارها ذوو المآرب. وعرفت الان ان العوائد لا تسمح برد الزيارة في ايام الصيام. فاذا كان غبطته يرغب في ان ارد له الزيارة الان فما عندي شرط الا الانتظار، ريثما تنتهي المناقشة في مجلس الشيوخ (الفرنسي).

الاب لويس الخازن (مدير الارز) : هل لك يا فخامة الجنرال ان تبين لنا ما هي علاقة رد زيارتك لغبطة البطريرك بالمناقشات التي اشرت اليها، سواء اكان في مجلس النواب ام في مجلس الشيوخ؟

الجنرال سراي : هنالك مسائل لا استطيع التصريح بها لاي كان.

الاب الخازن : ليس هذا مما نبحث عنه، وانما نكرر الكلام اننا كنا نود ان نعرف ما هي الرابطة السياسية بين زيارتكم للمقام البطريركي وبين السياسة والمناقشات، لاننا نرى ان الامر هو مسألة لياقة لا مسألة سياسية.

الجنرال سراي : اني حتى الان لم ارد الزيارة لاحد، فلماذا تطلب مني ان ارد الزيارة لغبطة البطريرك الماروني قبل سواه؟ وعلى كل فاني بانتظار نتيجة المناقشة في مجلس الشيوخ.»

وما لم تذكره جريدة «الارز» من تلك المقابلة المشهورة ان مديرها

الخوري لويس الخازن قد اثار الجنرال بقوله ان المسألة «مسألة لياقة» فرد عليه مغضبا وبنبرة عالية بانه لا يسمح لاحد بان يلقي عليه درسا في اللياقة...

وفي اليوم الذي تلا هذا المؤتمر الصحفي الصاخب اصدر المفوض السامي قرارا يخوله حق «تعطيل اي صحيفة او مجلة تنشر مقالا او خبرا من شأنه المس بالسلطات او الاخلال بالامن والنظام.»

وكان القرار يشمل لبنان وسوريا.

اتسمت اعمال الجنرال سراي بالطابع اللاديني وكرهه لرجال الدين. وذهب الامر به الى حد انه رفض حضور القداس القنصلي التقليدي الذي جرت العادة باقامته على شرف فرنسا وبحضور ممثلها في عيد الفصح من كل عام.

وثار رجال الدين على سراي وثار معهم اللبنانيون المتعلقون بالتقاليد ولا سيما اولئك الذين ينبع تعلقهم بفرنسا من ينبوع الدين.

وارتفعت اصوات الاحتجاج واصداء النقمة على المفوض السامي «الكافر الملحد» حتى بلغت سماع اولي الامر في فرنسا.

وعلى رغم «راديكالية» حكومتها فان فرنسا خشيت ان تفقد صداقة لبنان عندما وقفت على حقيقة ما يجري في بيروت وعلى اخطار تصرفات المفوض السامي وانعكاساتها على علاقتها باللبنانيين، خصوصا برجال الدين الذين كانت تعتمد عليهم في حكمها لبنان ووجودها فيه. لذلك اوعزت فورا الى الجنرال سراي بان يكبح جماح عواطفه وان يحضر القداس الاحتفالي كما جرت العادة.

لكن طالع سراي السيىء لم يكتف بجر المتاعب عليه في لبنان بل جر عليه موقفا خطيرا في سورية، عندما شبت الثورة في جبل الدروز ضد الحكم الفرنسي، ثم امتدت الى دروز لبنان الذين ثار اكثرهم على الجيش الفرنسي وحاصروا قلعة راشيا وكادوا يحتلونها، لولا سرعة الامدادات التي وصلت الى القلعة من الجيش الفرنسي المرابط في سورية ولبنان. وامتدت النار فشملت سورية كلها ودامت اكثر من سنة تكبد فيها الفرنسيون خسائر عسكرية ومادية كبيرة.

عهد دي جوفنيل

نحو الحياة الدستورية

نتج من جراء اندلاع نيران الثورة في انحاء كثيرة من سورية ولبنان ان اضطرب الوضع السياسي والاقتصادي اضطرابا شديدا في البلدين وظهرت النقمة على اعمال رجال الانتداب في كل مكان، حتى في صفوف اصدقاء فرنسا. فرأت باريس ان لا بد لها من نهج جديد تنتهجه يحول دون التدهور الكامل، فاقالت مفوضها السامي الجنرال سراي وبدلت به مفوضا مدنيا من اعلام البرلمان الفرنسي هو مسيو هنري دي جوفنيل الوزير السابق وعضو مجلس الشيوخ واحد اصحاب جريدة « لي ماتان » الباريسية الكبيرة ذات المكانة في فرنسا وعواصم اوروبة.

اول عمل عمله مسيو دي جوفنيل انه اتصل ببعض لبنانيين وسوريين في باريس يعملون في السياسة فاسمعوه اراء جديدة عن حقيقة الحال في البلدين، مؤكدين له ان الاعتراف بالاستقلال الحقيقي للبلدين مع عقد معاهدة هو اسلم السبل الى التفاهم وايجاد الهدوء.

واقتنع دي جوفنيل بصواب هذا التفكير المعتدل ووافق على ان يمر بمصر ويلتقي فيها رجال اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، ممثلة معظم اتجاهات الثورة. وفي مصر تلاقى الفريقان.

كتب اسعد داغر في مذكراته : على هامش القضية العربية : ص ١٦٧ .

«واعرب لنا المسيو دي جوفنيل عن رغبته في السلم وحقن الدماء، وقال انه يتمنى ان يوفق في الشرق لعقد ميثاق سلام كميثاق لوكارنو في الغرب، وان العلاقات بين سورية وفرنسا يجب ان تقوم على اساس التعاقد، فتعقد بين الفريقين معاهدة تحل محل الانتداب».

وتبادل الفريقان الاراء، وتناقشوا، وقدم وفد اللجنة التنفيذية لمسيو دي جوفنيل مذكرة من اهم قواعدها استقلال سورية استقلالا تاما وعقد معاهدة بينها وبين فرنسا تحل محل الانتداب، وعندها تستطيع اللجنة ان تتوسط بين الثوار والمفوض السامي الجديد. وساد جو الاجتماع تفاهم وصراحة.

لكن وفدا من العسكريين الفرنسيين وصل من بيروت الى القاهرة في ذلك اليوم واجتمعوا ليلا بمسيو دي جوفنيل واكدوا له ان الثورة قد تلاشت، وان مجاراة اللجنة التنفيذية في مطالبها يقضي على المصالح الفرنسية المادية والمعنوية، وهي كثيرة لا تحصى، ويفسح في المجال لاستئثار النفوذ البريطاني بالشرق.

وفجأة اقتنع دي جوفنيل بما سمع وغير رأيه، واذا به يعلن في اليوم الثاني انه آت الى الشرق لايجاد الاستقرار والهدوء، وشعاره : « الحرب لمن يريد الحرب والسلم لمن يريد السلم!». واسرع الى بيروت.

ايجابية وتحذير

وعندما وطئت قدماه ارض لبنان، والثورة في ابانها، القى خطابا ايجابيا «وتحذيريا» دعا فيه القائلين بالثورة الى سلوك سبيل التفاوض بدلا من الحرب، وختمه مكررا قوله في القاهرة قبل يومين : « الحرب لمن يريد الحرب والسلام لمن يريد السلام » فاحدث كلامه دويا بعيدا وذهب «تحذيره» مذهب الامثال!

ورأى دي جوفنيل ان يؤكد سياسته الايجابية الجديدة التي جاء ينفذها باسم فرنسا، فزار المجلس التمثيلي اللبناني وخطب خطبة طويلة قال فيها : «ان عهد الاستشارات قد انتهى... وسأطلب من حاكم لبنان الكبير ان يدعو مجلسكم الى دورة استثنائية يضع فيها دستور لبنان».

فشكره موسى نمور رئيس المجلس.

واستقبل لبنان هذه البادرة بارتياح، فهو يرى في صاحبها طرازا مختلفا عن المفوضين العسكريين الذين سبقوه، ويرى في بادرته ايذانا بعهد جديد.

وغاب عن اكثر الناس يومها ان الدعوة لوضع الدستور لم تكن تكرما من المفوض السامي الجديد، ولا من حكومته، وانما هي واجب قانوني دولي وارغامي. فقد نص صك الانتداب في بنده الاول على «وجوب وضع الدولة المنتدبة، في مهلة مدتها ثلاث سنين، تبدأ يوم مباشرة تنفيذ هذا الانتداب، دستورا اساسيا لسورية ولبنان، ويعد هذا الدستور بالاتفاق مع السلطات البلدية» — (ترجمة حرفية).

لجنة وضع الدستور

كانت الخطوة خطيرة حقا. والدستور امنية اللبنانيين.

لم يضع المجلس التمثيلي وقته بل انه بادر الى انتخاب لجنة لوضعه برئاسة الرئيس موسى نمور من الاعضاء : ميشال شيحا. شبل دموس. عمر الداعوق. يوسف الخازن. فؤاد ارسلان. يوسف سالم. جورج زوين. بترو طراد. روكز ابو ناضر. صبحي حيدر. يوسف الزين. جورج ثابت. عبود عبد الرزاق.

واختارت اللجنة ميشال شيحا مقررا.

وعينت المفوضية العليا كلا من شارل دباس والمستشار القانوني مسيو سوشه لمؤازرتنا.

وانصرفنا حالا الى العمل الجديد.

كيف تريدون الدستور ؟

ورأت اللجنة ان تقوم باستفتاء شعبي على بعض النقاط المحددة، فوجهت الى رؤساء الطوائف الدينية، والموظفين، وكثير من الشخصيات والافراد، اسئلة تتعلق بالاسس التي يجب ان يقوم عليها ويرتكز كل دستور. واهم تلك الاسئلة :

١ ـ ما شكل الحكومة : ملكية دستورية او جمهورية؟
٢ ـ هل يجب ان يتألف البرلمان من مجلس ام من مجلسين؟
٣ ـ هل تكون الوزارة مسؤولة امام رئيس الدولة ام امام البرلمان؟
٤ ـ ما هو الافضل : المسؤولية الوزارية الفردية او المسؤولية الوزارية التضامنية؟
٥ ـ ما هو الافضل : تعيين اعضاء مجلس الشيوخ او انتخابهم؟
٦ ـ هل يجب اعتماد الطائفية اساسا لتوزيع المقاعد في البرلمان؟

وتلقت اللجنة اجوبة مختلفة بعضها مثير وبعضها طريف، وكثير منها بعيد عن جوهر الموضوع الذي من اجله بعثت بالرسائل.

فمنهم من طالب بالملكية، كنظام اساسي للبنان وتعيين احد افراد عائلة البوربون ملكا. ومنهم من طالب بجعل لبنان امارة على ان يكون

احد ابناء الملك حسين اميرا. ومنهم من طالب بالاستفتاء الشعبي العام، ومنهم من طالب بلبنان بلدا مستقلا تحت الحماية الافرنسية، الى ما هنالك من اقتراحات.

غير ان اللجنة لم تنتظر ورود الاجوبة بل نشطت للعمل على الفور. لم تكن الرسائل قد وصلت الى اصحابها بعد، حين بدأ ميشال شيحا يضع نصوص الدستور مستلهما الدستور الفرنسي الصادر سنة ١٨٧٥، ومستمدا منه معظم نصوص الدستور اللبناني العتيد.

وبديهي ان يستلهم المشترع اللبناني يومذاك دستور الجمهورية الفرنسية الثالثة.

ولم يكن السبب وحده ان فرنسا تحكم لبنان باسم الانتداب، بل لان دستورها دستور الحريات، وهي الجمهورية الوحيدة في اوروبا التي تعتمد النظام الديموقراطي القائم على حكم الشعب بالشعب.

وكان ايضا من الحكمة ان نستأنس بالدستور الفرنسي حتى يطمئن المفوض السامي ولا يقيم العراقيل في وجهنا، اذ ان وجود الدستور امنية غالية من اماني اللبنانيين.

وصار ميشال شيحا كلما وضع مادة او فصلا او نصا عرضه على الرئيس موسى نمور وعلى كل واحد منا نحن اعضاء اللجنة لتمحيصه والتعليق عليه وابداء الرأي فيه.

الطائفية في الدستور « بصورة موقتة »

ووصل بنا البحث الى موضوع الطائفية وانقسمت الآراء، واشتد

الجدل وحصلت مشادة حادة بين شبل دموس وصبحي حيدر من جهة، وميشال شيحا من جهة أخرى. فدموس وحيدر يصران على وضع نص يراعي الطائفية ويحدد على اساسها توزيع الوظائف في الدولة. واما ميشال شيحا فعارض هذا الرأي وقال انه اذا كان قانون الانتخاب قد بني على التمثيل الطائفي، فلا يجوز وضع نصوص طائفية في صلب الدستور من شأنها ان تحدث انعكاسات سيئة على تطور البــلاد ومستقبلها.

وكنت انا من مؤيدي ميشال شيحا ومعارضا النص على الطائفية في الدستور. وقلت يومها انه من السهل علينا ان نلغي الطائفية في المستقبل من قانون الانتخاب. اما ان نلغيها من الدستور فامر صعب، لان تعديل القوانين اسهل من تعديل الدساتير.

واستغرق النقاش حول الطائفية وقتا طويلا. واشترك فيه جميع اعضاء اللجنة بين محبذ ومعارض. الى ان رجحت كفة «الطائفيين» فوضع نص المادة ٩٥ الذي جاء فيه:

«بصورة مؤقتة والتماسا للعدل والوفاق تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وبتشكيل الوزارة دون ان يؤول ذلك الى الاضرار بمصلحة الدولة».

ولا تزال هذه المادة الموقتة على حالها كما وضعت منذ حوالي نصف قرن. وقديما قيل : لا شيء يدوم اكثر من الموقت..

ان معظم المبادىء التي اشتمل عليها الدستور هي مبادىء النظام البرلماني الديموقراطي. فالهيئات الحاكمة جميعها منبثقة عن الانتخاب اما رأسا او بطريقة غير مباشرة. فمجلس النواب ينتخبه الشعب. ورئيس الجمهورية ينتخبه المجلس. والوزراء يعينهم الرئيس وهم مسؤولون امام

المجلس المنتخب. وغالبا ما يكونون من اعضاء المجلس، وان اجاز الدستور تعيين جميع الوزراء او قسم منهم من خارج المجلس.

ونص الدستور على وجود مجلسين. مجلس نواب منتخب ومجلس شيوخ.

تحفظات فرضها الانتداب

وفي ١٩ من ايار ١٩٢٦ عقد المجلس التمثيلي جلسة بحث خلالها مشروع الدستور فاقره بعد ان ادخل عليه تحفظات فرضها الانتداب.

وهذه التحفظات وردت في المواد التالية التي اضافها المفوض السامي الى الدستور وصدقها المجلس :

«المادة التسعون :

ان الاحكام المقررة في هذا الدستور يعمل بها مع الاحتفاظ بما للدولة المنتدبة من الحقوق والواجبات الناتجة عن المادة ٢٢ من «عهد جمعية الأمم ومن صك الانتداب».

«المادة الحادية والتسعون :

عندما تسمح الظروف، تطلب دولة لبنان الكبير قبولها في جمعية الامم مستعينة بتوسط الدولة المنتدبة».

«المادة الثانية والتسعون:

تؤكد الجمهورية اللبنانية في هذا الدستور حسن قصدها في المحافظة على روح السلام والوفاق مع الدول الأخرى، وخصوصا الدول المجاورة الواقعة ضمن نطاق الانتداب الفرنساوي التي يرغب لبنان في توثيق عرى الولاء معها في جو هادىء من الوئام، على شرط المعاملة بالمثل».

«المادة الثالثة والتسعون :

تتعهد الجمهورية اللبنانية بمقتضى هذا الدستور تعهدا رسميا ان تحكم الدولة المنتدبة بتسوية الخلافات التي من شأنها ان تعكر صفو الأمن، ولذلك فالجمهورية اللبنانية مستعدة لابرام الاتفاقات بينها وبين جيرانها، وكل الدول الأخرى الراغبة في الاتفاق معها، على ان تتضمن هذه الاتفاقات نصا صريحا يقضي بالزام الدول المتعاقدة على التحكيم الاجباري في كل خلاف».

«المادة الرابعة والتسعون :

«تتفق الحكومة اللبنانية فيما بعد مع ممثل الدولة المنتدبة لانشاء وكالة لبنانية في باريس، ووظائف ملحقين لبنانيين بدور الاعتماد السياسية والقنصليات الفرنسوية في المدن الاجنبية حيث تدعو الحاجة الى ذلك، بالنسبة لعدد اللبنانيين المقيمين فيها.

وتبذل الحكومة الفرنسوية كل ما في وسعها في سبيل توثيق العرى التي تربط اللبنانيين المهاجرين بوطنهم الاصلي».

وعلى هذا الاساس اتخذ المفوض السامي قرارا بتاريخ ٢٣ ايار ١٩٢٦ بتحويل المجلس التمثيلي القائم الى مجلس نواب، وقرارا اخر بتاريخ ٢٤ ايار ١٩٢٦ بتعيين اعضاء مجلس الشيوخ. وانتخب الشيخ محمد الجسر رئيسا لهذا المجلس.

وفي ٢٦ ايار عقد المجلسان معا برئاسة الشيخ محمد الجسر جلسة مشتركة سميت «المجتمع النيابي» لانتخاب رئيس الجمهورية.

ولم يكن هناك سوى مرشح واحد للرئاسة هو شارل دباس الذي اشار المفوض السامي باختياره. فانتخب بالاجماع وكان اول رئيس للجمهورية اللبنانية.

يقول الشيخ بشارة الخوري في مذكراته «حقائق لبنانية» :

«كانت البطريركية المارونية ترى بحكم الطبع ان منصب الرئاسة الاولى هو من حق الطائفة المارونية الاكثر عددا في لبنان. وقيل ان البطريرك حويك كان يفكر بنجيب باشا ملحمه. لكن الفرنسيين اقنعوه بصعوبة الامر، وان خير من يولى في هذه الظروف هو مرشحهم، على ان تعود الرئاسة المقبلة الى «الطائفة الاكثر عددا.» (ص ١٣٤).

عانقه واجلسه على الكرسي

فور اعلان انتخاب شارل دباس رئيسا للجمهورية تقدم منه حاكم لبنان ليون كايلا وعانقه ثم دعاه الى صالون الحاكم في السرايا الصغيرة واجلسه على الكرسي وانسحب من القاعة.

منذ تلك الدقيقة انتقل الحكم في لبنان نظريا من ايدي الفرنسيين الى ايدي اللبنانيين.

وفي ٣١ من ايار ، عين الرئيس الجديد اول وزارة عرفها لبنان. وكانت مؤلفة من اوغست اديب رئيسا ووزير مال، ونجيب القباني للعدل، وبشارة خليل الخوري للداخلية، وعلي نصرت الاسعد للزراعة، ونجيب الاميوني للمعارف، ويوسف افتيموس للاشغال، والدكتور سليم تلحوق للصحة.

الشيخ محمد يؤخر انعقاد الجلسة

اوجب الدستور تجديد انتخاب رئيسي مجلس الشيوخ ومجلس النواب في يوم الثلاثاء الذي يلي الخامس عشر من شهر تشرين الاول من

كل سنة. وقد تنافس على رئاسة مجلس الشيوخ الشيخ محمد الجسر والاستاذ اميل اده، بينما تنافس على رئاسة مجلس النواب موسى نمور والامير خالد شهاب.

واطرف ما حدث في ذلك اليوم ان الشيخ الجسر سعى الى ان ينتخب مجلس النواب لرئاسته نائبا مارونيا حتى يزداد حظه ويطمئن الى ان رئيس مجلس الشيوخ سيكون حتما محمديا حفظا للتوازن.

وأيد الاستاذ اميل اده الامير خالد شهاب ضد موسى نمور لكي يحظى هو برئاسة مجلس الشيوخ!

وزيادة في الحيطة والاحتراز، عمد الشيخ محمد الجسر الى تأخير انعقاد مجلس الشيوخ بضع ساعات الى ما بعد انعقاد مجلس النواب واعلان نتائج الانتخاب.

وهكذا كان. وما كاد يعلن فوز موسى نمور برئاسة مجلس النواب حتى دعي مجلس الشيوخ الى الانعقاد، وكان من الطبيعي ان ينتخب الشيخ محمد الجسر للرئاسة.

مدير شركة مياه بيروت

كنت اعيش واعمل في عالمين، واحرص على ان لا تنسيني مشاغل السياسة في المجلس النيابي التبعات الملقاة على عاتقي في شركة المياه، ولا تصرفني عن سهري عليها.

ومن عادة مدير شركة المياه، الكومندان دي بوريغار، ان يأخذ اجازة صيفية كل سنتين يقضيها في فرنسا. وكان في السابق يعين مدة غيابه السيد كازيمير اينار مديرا بالوكالة. والسيد اينار عضو في مجلس ادارة الشركة وفرنسي الجنسية.

وفي صيف سنة ١٩٢٧ دنا موعد اجازته. فلم ير بدا من تعييني مديرا بالوكالة، رغم انه كان يرى في مزاحما جديا نظرا لمركزي السياسي ولعلائقي الاجتماعية بالمسؤولين في الدولة.

قمت بمسؤولياتي خير قيام، وبرز اسمي في عالم الشركات الاقتصادية. واخذ رئيس مجلس الادارة السيد الياس صباغ يراقب اعمالي بكثير من الارتياح والتقدير.

لم يمض على سفر المدير بعض اسابيع حتى تلقيت برقية من زوجته تنبئني بوفاته. فوجب علي والحالة هذه ان امضي في ممارسة مهام المديرية مع ما يتبعها من مسؤوليات. وطال الوقت. وشاع خبر وفاة الكومندان

دي بوريفار مدير شركة مياه بيروت. وابتدأ الطامحون الى منصبه يتحركون.

وبدأت الوساطات والشفاعات والمداخلات تجري من كل جانب على قدم وساق لتعيين مدير اصيل. فمنهم من اقترح تعيين احد العسكريين الفرنسيين المتقاعدين او احد حكام المقاطعات المتقاعدين. وكان المسؤولون في المفوضية من اكثر المتدخلين الحاحا في هذا الموضوع، وكذلك بعض رجال السياسة والدين.

غير ان السيد صباغ رفض جميع الاقتراحات وتعمد اطالة وجودي مديرا بالوكالة، الى ان هدأت الوساطات والمراجعات التي استمرت حتى اوائل ١٩٢٨، وفيها صرت مديرا اصيلا لشركة مياه بيروت.

عهد بونسو

جو معارضة وطنية

منذ السنة الاولى لممارسة لبنان الحياة الدستورية النيابية، بدا واضحا انْ بلدا صغيرا مثله واقعا تحت الانتداب، لا يتحمل مجلسين لاشتراع القوانين فيه، مجلس نواب ومجلس شيوخ. ولا سيما ان سلطة ثالثة كان لها حق التشريع هي سلطة المفوض السامي.

وزاد في الطين بلة ان الاتفاق لم يكن سائدا بين مجلس النواب ومجلس الشيوخ.

صارت القوانين تتأرجح بين المجلسين. القوانين التي يقرها مجلس النواب يرفضها مجلس الشيوخ او يعدلها ويعيدها الى مجلس النواب، فيرفض هذا التعديل بدوره. فرأى «الحكماء» في الضفتين، ان لا بد من تعديل الدستور بغية الغاء مجلس الشيوخ وضم اعضائه الى مجلس النواب.

وعدل الدستور ـ للمرة الاولى في تاريخ الحياة النيابية في لبنان ـ في الثامن عشر من شهر تشرين الاول ١٩٢٧، وصار عدد اعضاء مجلس النواب خمسة واربعين عضوا، ثلاثون منهم منتخبون وخمسة عشر معينون.

في شهر تموز من السنة ١٩٢٩، انتهت مدة ولاية مجلس النواب

بعد ان جدد انتخاب شارل دباس رئيسا لثلاث سنوات اخرى.

بدأت الحكومة تعد العدة لانتخاب مجلس جديد.

وتساءلت، هل ارشح نفسي للنيابة ام انصرف الى الاهتمام بشركة المياه، بعد ان صرت مديرها وعضوا في مجلس ادارتها، وبعد ان دلت الارقام على ان حاجة مدينة بيروت الى الماء تزداد يوما بعد يوم، والتبعات الملقاة على عاتقي تزداد معها؟

واقترب موعد الانتخابات النيابية. وبدا يترامى الى مسمعي ان طابخيها من المسؤولين الفرنسيين واللبنانيين، قد اعدوا لوائح المرشحين في جميع المناطق، واقصوني عنها. كأنه كتب علي ان انال حقي دائما بالقوة!

وكان رد الفعل في نفسي ان فكرت في خوض معركة الانتخاب مرة اخرى، ولكن شعوري بعظم مسؤوليتي في الشركة طغى على كل شعور آخر. فصرفت النظر عن السياسة الى حين.

واحدث عزوفي عن الاهتمام بالانتخابات فراغا في وقتي، فقررت ان املأه بمضاعفة جهدي في خدمة بيروت بتأمين المياه الصالحة والكمية الكافية الموازية لتزايد السكان.

شركة المياه تلتزم مد شبكة المجارير

وعرضت لي فرصة اخرى لخدمة بيروت، اذ اقدمت باسم شركة المياه، على التزام شبكة المجارير التي تقرر بناؤها على الطراز الحديث. وقرر مجلس ادارة الشركة ان اتولى تنفيذ المشروع فيما اذا فزنا بالمناقصة، وان تكون لي حصة في الارباح. وبرغم اهمية تلك الشبكة يوم

انشئت، فانها تبدو اليوم، كما تبدو شبكة مياه بيروت، مقصرة عن تلبية حاجة السكان، اذ انهم بتزايد عددهم بنسبة قياسية لم يكن يتوقعها ابعد المخططين نظرا واكفاهم كشفا.

وعندما انجزنا مشروع المجارير بلغت حصتي من الارباح اكثر من ثلاثين الف ليرة لبنانية، سعدت بها كثيرا. فقد كانت تلك المرة الاولى التي اوفر فيها لنفسي مالا على هامش مرتبي في شركة المياه، فاشتريت بالمبلغ الذي كسبته ارضا في محلة «الصنائع» في بيروت بنيت عليها منزلا يأويني وعائلتي، وهو البيت الذي اسكنه الان.

التصرف بوحي من الضمير المتحرر

ان من يدرس تاريخ لبنان السياسي في ظل الانتداب، ولا سيما بين ١٩٢٦ و١٩٤٣، او يعيش هذه الحقبة كما عشتها انا وسواي، يدرك على الفور انه على رغم وجود الانتداب، وضراوة ممثليه من مفوضين سامين، ومستشارين، وموظفين وعملاء من جميع الدرجات، وقبضهم على خيوط السلطة كلها، فان شخصيات سياسية لبنانية عديدة كانت تعارضهم وتتصرف بوحي من سياستها المتحررة لا من سياسة الانتداب. والى جانب هذه الفئة شخصيات ترفض الانتداب وترفع الصوت في كل مناسبة مطالبة بالغائه.

صحيح ان ممثل الانتداب كان، بشطحة قلم، يعلي من يشاء ويسقط من يشاء. حتى الدساتير، والمجالس النيابية، كان المفوض السامي يعلقها ويلغيها ساعة يريد. غير ان لبنان كان يعاود سيرته وحياته الدستورية بعد مدة تقصر او تطول حسب تقدير المفوض السامي ومشيئته، او تحت ضغط الرأي العام وتأثير الاحداث.

وفي هذه الحقبة بالذات، برزت شخصيات لم يستطع ممثل الانتداب رغم عنفوانه وسيطرته وغطرسته، ان يتجاهلها او يمنعها من القيام بدورها وفرض نفسها كقوة فاعلة في المجالين السياسي والوطني.

فئات من شخصيات متعددة. بعضها لا يترك فرصة الا اظهر فيها عيوب الانتداب وانحرافه عن مهمته الاساسية. والانتداب في الاصل، كما اخترعته «جمعية الامم» مفروض عليه ان يأخذ بيد البلاد ويقودها الى الاستقلال.

كان ثمة فريق من اللبنانيين يعتبر الوحدة بين سورية ولبنان هي الوطنية الحقة والسبيل الى التخلص من الانتداب.

وفريق آخر متمسك بلبنان على حاله يرفض كل فكرة ترمي الى وحدة او اتحاد مع سورية او اي بلد آخر، ويفضل في هذا الجال بقاء الانتداب ويعتبره ضمانا للبنان.

على ان كثرة من اللبنانيين، وبخاصة الشباب، صارت ترفض الانتداب والدعوات الوحدوية معا، وتنادي بلبنان سيدا مستقلا استقلالا تاما ناجزا، وكانت رسالة هذه الفئة شاقة، وجهادها مضنيا صعبا.

في ذلك الزمان بدات المحاور السياسية اللبنانية تتبلور، والصراع يتخطى الانتداب. فاذ جاء العام ١٩٣٢، اخذت السياسة اللبنانية شكلا يكاد يطغي على الانتداب. لكن السلطة الفرنسية شعرت بالخطر وتنبهت له قبل ان يفلت زمام الامور من يديها.

اميل اده وبشاره الخوري

ذلك انه عندما قربت ولاية شارل دباس من نهايتها، بدأ الصراع الداخلي لانتخاب خلف له. ودارت المعركة بين الشيخ بشارة الخوري واميل اده، ولكل منهما في المجلس وفي البلاد، وبين رجال الانتداب، انصار ومؤيدون.

كل منهما يطمح الى الرئاسة. فان لم يرافقه الحظ اليها فلا اقل من الحؤول دون فوز خصمه.

فاما الشيخ بشارة فرشح نفسه بموافقة دوائر الانتداب وتأييدها، وفي مقدمتها هنري بونسو المفوض السامي نفسه.

ترشيح الشيخ محمد الجسر

وادرك اميل اده ان لا امل له بالرئاسة، فهمس الى الشيخ محمد الجسر، رئيس مجلس النواب، ان يرشح نفسه لها، ووعده بدعم ترشيحه واعطائه صوته واصوات الذين يماشونه في المجلس. وكانت تلك هي المرة الاولى التي يرشح فيها مسلم لرئاسة الجمهورية اللبنانية.

ومن المفارقات «اللبنانية» التي تبدو غريبة لمن يجهل تعاريج السياسة الداخلية عندنا، وتصارع الاحزاب، ان كثيرين من النواب المسيحيين، وفي مقدمتهم اميل اده، كانوا يؤيدون الشيخ محمد الجسر، وان كثيرين من النواب المسلمين دعموا ترشيح الشيخ بشارة!

ويبدو لنا السبب واضحا اليوم، بعد ان ابتعدنا عن الصورة. ذلك ان المفوضية العليا، عندما ادركت ان ترشيح الشيخ محمد للرئاسة لم

يكن مداورة سياسية منه او من اميل اده بل جدية، بدأت تضغط على النواب لحملهم على تأييد الشيخ بشارة.

وكان تجاوب اكثر النـواب المسلمـين مع ممثلي الانتـداب، وانصياعهم لهم، اسهل من تجاوب النواب المسيحيين. ذلك لان الكثرة من مسلمي لبنان كانت سلبية تعارض الانتداب من اساسه وتقاطع الانتخابات النيابية. واذا اشترك معارضو الانتداب في الانتخابات تحاربهم السلطة ولا يتسنى لهم الفوز بالنيابة الا ما ندر. لذلك كان اكثر النواب المسلمين من اصدقاء الانتداب. والسلبية كانت تعني في ذلك الزمان معارضة الانتداب من اساسه، والدعوة الى الوحدة السورية والاستقلال.

وهنالك «ردة بسيكولوجية» لم ينتبه احد الى احتمال وقوعها، والى وجوب استغلالها، الا اميل اده. بل هي التي جعلته يتحمس لترشيح الشيخ محمد الجسر. وذلك ان الجماهير الاسلامية، وخاصـة في طرابلس، تقبلت نبأ ترشيح مواطنها بشعور يشبه شعور الانفراج من غم مكبوت، فسرت بالنبأ وصارت تتحمس له ساعة بعد ساعة.

وصار النواب المسلمون يشاهدون هذه الحماسة ويرون انه صار من واجبهم مسايرة ناخبيهم، تظاهرا على الاقل، ايا كان استياء رجال الانتداب من هذه المسايرة. بل ان بعض هؤلاء النواب لم يكتموا عن الفرنسيين تطور ذلك الشعور في مواطنيهم، ولم يكتموا خوفهم من غضب التيار فيما اذا عارضوا ترشيح «المرشح المسلم».

وهكذا مضى الشيخ محمد في عزمه، على رغم الضغط الشديد الذي مارسه الانتداب عليه ليحمله على الانسحاب. وصار مقتنعا بأن النواب المسلمين لا يملكون من أمرهم إلا تأييده، ولا سيما بعد أن لمس لمس اليد

تأييد اميل اده واكثر النواب المسيحيين له. وكان اكثر النواب المسلمين الذين دخلوا المجلس في العام ١٩٢٩ من صنع يديه. وهو، الى هذا، ذو حظوة لدى الانتداب وذو شخصية قوية أوصلته لأن يصير احد اركان الدولة اللبنانية، وواحدا من الذين يديرون دفة السياسة فيها.

وحميت المعركة. وكثرت التكهنات. وشغلت الاندية السياسية، والسرايات والصالونات، والناس، بتقدير عدد الاصوات المؤيدة لكل من المرشحين الشيخ بشارة الخوري والشيخ محمد الجسر.

وكان على رأس المفوضية العليا رجل ضعيف هو هنري بونسو. عالي الاخلاق طيب القلب، لكنه أكول نهم، كل همه ولذته طبق دسم وشراب طيب. وكان عملاؤه ومستشاروه، وزبانيته يحملون اليه اخبار المعركة ساعة فساعة ويقولون له ان الكفة متعادلة بين المرشحين الاثنين، وأن حظ الشيخ المسلم برئاسة الجمهورية كبير. وقد يتوقف على صوت او صوتين.

ولعب شارل دباس، رئيس الجمهورية الذي اشرفت مدة رئاسته على الانتهاء لعبة ماكرة لم تذع كثيرا، ولم يعرفها سوى المطلعين على اسرار الصراع السياسي الداخلي في لبنان.

كان شارل دباس يكره اميل اده، ولا يحب في الوقت عينه ان يفوز بشارة الخوري. وكان يعرف ان الاكثرية بجانب بشارة الخوري على رغم جميع المظاهر. ويعرف ضعف المفوض السامي وخور عزيمته وخوفه على منصبه. فألقى في روعه ان الشيخ محمد فائز لا محالة وانه اذا فاز مسلم بالرئاسة الاولى في لبنان غضبت باريس على ممثلها فيه، فيحل به ما حل بالجنرال سراي ويفقد مركزه، وأن رئاسة الجمهورية في لبنان ترمز الى هوية البلد قبل كل شيء. وخاف بونسو خوفا شديدا.

.. والكي دورسي يغضب

وقبل ظهر الرابع من أيار، طلب الشيخ محمد والشيخ يوسف الخازن نائب جبل لبنان مقابلة المفوض السامي، ودعيا الى المقابلة. وما ان اطلا عليه حتى قال بصوت عال:

«ماذا تريدون ان اقول للكي دورسي... ان باريس غير مستعدة لقبول الاحتجاجات والانتقادات والشكايات من انتخاب رئيس جمهورية مسلم في لبنان... انا لا اقدر... لا، هذا مستحيل.»

وسكت قليلا. وبدأ الشيخ يوسف الخازن يشرح له وضع النواب في المجلس، وان الاكثرية المارونية هي التي كلفته ان يرافق الرئيس الجسر ويطلب باسمها ان لا ترفض ارادة ممثلي الشعب. وان اكثر النواب الموارنة مستعدون لان يعلنوا على الاشهاد انهم هم، بملء اختيارهم وكامل وعيهم، يصرون على انتخاب مواطن مسلم رئيسا للجمهورية اللبنانية، سبيلا الى توطيد الوحدة اللبنانية...

وظل المفوض السامي يهز رأسه علامة الرفض، ويقاطع النائب الخازني بقوله: «مستحيل... باريس لا تقبل! .. الكي دورسي يغضب!!»

وقد أخبرني صديق كان وثيق الصلة بالشيخ محمد ان الشيخ عندما دخل قصر الصنوبر، وهو كعادته يلبس الجبة فوق البنطلون ويعتمر العمامة، خلع عمامته عن رأسه وعلقها على عمود القبعات، ودخل على المفوض السامي عاري الرأس ومعه الشيخ الخازني.

خاطب المفوض السامي الشيخ الجسر بقوله انه يقدر مزاياه واخلاصه لبلاده وصداقته لفرنسا، لكنه يجد نفسه مكرها على ان يطلب

منه سحب ترشيحه لرئاسة الجمهورية اللبنانية، لأن سياسة فرنسا ووضعها الدولي يحتمان عليها ان لا تسمح بأن يتولى الرئاسة الاولى في لبنان الا مسيحي. واضاف: وهذه هي تعليمات باريس لا يسعني ان اخالفها.

ورد عليه الشيخ محمد، وتولى الشيخ يوسف الخازن الترجمة: «سعادة المفوض السامي. لقد خلعت عمامتي وانا ادخل عليك. واني اسألك لو كنت اضع على رأسي بدل العمامة قبعة هل كنت اصير رئيسا للجمهورية اللبنانية ما دامت اكثرية نواب المجلس تؤيدني، وفي طليعتها النواب المسيحيون، والنواب الموارنة على الاخص، الممثلون خير تمثيل برفيقي وصديقي الشيخ يوسف الخازن الذي تعرفه جيدا؟»

فسكت المفوض السامي ولم يحر جوابا. وتابع الشيخ الجسر: «انني يا سيدي اعتذر اليك فلن أحقق رغبتك، وما دامت الاكثرية تؤيدني فأنا ماض في ترشيح نفسي. ان هذه الاكثرية هي التي تنطق باسم لبنان ولا يسعني ان اخذلها».

ثم انصرف الشيخان.

يأتي من دون مداميه

ورأت الجبهة الجسرية ان تبقي جواب المفوض السامي مكتوما لئلا ينفرط عقد المجرورين اليها — واكثرهم راهب لا راغب — جمعتهم كراهية شخصية ضد بشارة الخوري او خشية من التيار المسلم. وراحت الصحافة تتكهن وتخبط خبط عشواء، وازدادت الصفوف المتنافسة بلبلة، والموقف غموضا.

وظل الرأي العام يتوقع دعوة المجلس النيابي لانتخاب رئيس جديد للجمهورية بين ساعة واخرى فلم يدعه رئيسه، ولم يبق من المدة الدستورية لوجوب دعوته سوى ثلاثة اسابيع، والا فالنواب عند انتهاء هذه المدة يجتمعون وجوبا بحكم نص القانون وينتخبون الرئيس.

وصارت الازمة تتعقد، فتم الرأي على ان يقابل الشيخ الجسر المفوض السامي مرة اخرى. ولما قالوا للمسيو بونسو ان رئيس المجلس يطلب مقابلته اجاب: اهلا وسهلا، لا ارى مانعا. شرط ان لا يصطحب محاميه! (أي ان لا يأتي معه الشيخ يوسف الخازن) فلم يرتح الشيخ محمد الى هذا الجواب وايقن ان دار الانتداب مصرة على منعه من اكمال طريقه فصرف النظر عن الزيارة.

ويوم الاحد مساء في الثامن من أيار ذهب المسيو بونسو الى بكركي في سيارة عادية منعا للفت النظر، وهمس في اذن غبطة البطريرك انطون عريضة انه سيحل المجلس النيابي ويقيل الوزارة ويوقف الحياة النيابية. وقيل ان البطريرك وافقه على مضض.

تعطيل الحياة النيابية

وفي صباح اليوم التالي قبل الظهر ٩ من أيار ١٩٣٢ ـ اصدر المفوض السامي قرارا كلف بموجبه «السيد شارل دباس بصفته الحالية وظائف رئيس الحكومة، وبتكليف المديرين اللبنانيين الحاليين مهام انجاز الامور تحت سلطة رئيس الحكومة مباشرة، وباعتبار مهام الوزراء الحاليين منتهية، وبوقف جلسات مجلس النواب» (القرار رقم ل. ر ـ ٥٦).

كانت تلك المرة الاولى التي يعلق فيها المفوض السامي الدستور ويعطل الحياة البرلمانية. ولكنها لم تكن المرة الاخيرة.

وفي صباح ذلك اليوم عينه نزل الشيخ محمد الجسر رئيس المجلس الى مكتبه في سرايا البرج ليجمع أوراقه الخاصة، وكان قد سمع قرار المفوض السامي من اذاعة «راديو الشرق».

قال شاهد عيان عاش تلك الاحداث: «دخل على الشيخ محمد عدد من النواب والوزراء. والجميع ساهون وقد صعقهم قرار التعطيل.

وفجأة ارتفع صوت النائب ميشال زكور يقول، مخاطبا الشيخ محمد: «يا سماحة الرئيس، لماذا لا تدعو المجلس على الفور الى عقد جلسة رسمية نتخذ فيها تحت قبة البرلمان قرارا بالاحتجاج على العمل الذي اقدم عليه ممثل الانتداب، والذي يراه اللبنانيون عملا تعسفيا وعدوانا صارخا على الحياة الديموقراطية في لبنان».

لكن الشيخ محمد ابتسم ابتسامة حزينة واجاب النائب المتحمس الشاب: «وهل نسيت يا أخي ميشال اننا تحت حكم الانتداب؟»

حبيب باشا السعد في رئاسة الجمهورية

كان تأثير قرار المفوض السامي في رجال السياسة مختلفا باختلاف الاشخاص والمصالح والنزعات.

فاما الشيخ محمد الجسر فقد قبع في بيته وغاب عن مسرح السياسة وابتعد عن الاضواء. واما اميل اده وجماعته فرضوا من الغنيمة بهزيمة الشيخ بشارة وشعارهم: علي وعلى أعدائي يا رب. وأما الشيخ بشارة الخوري واصحابه فبلعوا الموسى وظلوا ينتظرون فرصة مؤاتية اخرى.

لكن البطريركية المارونية في بكركي، وعلى راسها البطريرك انطون عريضة لم تقبل بالحل الذي ابقى شارل دباس رئيسا للجمهورية، وطالبت بوجوب اختيار رئيس من الطائفة المارونية لجمهورية لبنان. وعندما قيل للبطريرك عريضة: انك وافقت على قرار المفوض السامي، اجاب: اجل. وافقت لكي احول دون وصول الشيخ الجسر الى الرئاسة.

وشدد البطريرك وبعض اقطاب الموارنة حملتهم، وظلوا يحتجون ويلحون ويوفدون الرسل الى المفوض السامي، ويضغطون على الحكومة الفرنسية في باريس، الى ان عين حبيب باشا السعد بقرار من المفوض السامي رئيسا للجمهورية في العام ١٩٣٣.

وانتهت حياة شارل دباس السياسية. وظل لبنان سنتين من دون دستور.

المفوض السامي : دوما رتيل

رئيس الجمهورية : اميل اده

عودة الى الحياة الدستورية

واخيرا تحرك السياسيون. هب فريق كبير يتقدمه الشيخ بشارة الخوري يطالب باعادة الحياة الدستورية. ومن طلائعهم سليم تقلا وفريد الخازن وجبران تويني وكميل شمعون وميشال زكور واميل لحود ومجيد ارسلان والدكتور الياس الخوري وغيرهم كثيرون. واطلق الشيخ بشارة على هذه الجماعة اسم الكتلة الدستورية.

وقامت فئة اخرى بزعامة اميل اده من اركانها كسروان الخازن وطنوس فريحة وامين السعد وروكز ابو ناضر وحكمت جنبلاط وغيرهم. وكان الناس يسمونهم الاديين. ولم يطلق على هذه الفئة اسم الكتلة الوطنية الا في العام ١٩٤٢.

كانت كلتا الفئتين تطالب بعودة الدستور والحياة البرلمانية. لكنهما تتنافسان على الزعامة والوصول الى الحكم.

ورأى دي مارتال المفوض السامي الجديد ان لا بد من العودة الى الحياة الدستورية، فاشارت باريس باعادة الدستور وتعديل قانون الانتخاب على اساس جعل عدد النواب خمسة وعشرين. وتمت الانتخابات في ٣٠ من كانون الثاني سنة ١٩٣٤.

وفي سنة ١٩٣٥ جددت رئاسة حبيب باشا سنة اخرى تنتهي في ٢٠ من كانون الثاني ١٩٣٦. وفي ذلك اليوم دعي المجلس الى انتخاب رئيس الجمهورية، ففاز اميل اده باكثرية صوت واحد.

« يا الوزارة ، يا بشارة »

ومن القصص الطريفة التي تروى عن هذا الانتخاب قصة النائب الامير خليل ابي اللمع. فقد كانت المعركة حامية وكفة الميزان تتأرجح كل يوم بل كل ساعة بين المرشحين المتنافسين: بشارة الخوري واميل اده. واشتد الضغط على النائب ابي اللمع المتأرجح بين الاثنين. وقبل الانتخاب «حشروه في زاوية من منزل اميل اده والحلوا عليه بانتخابه باذلين له الوعود المعسولة. وكان في لسان الميرلتغة بحرف «الشين» يلفظه ثاء» فقال كلمة صارت لسنوات مثلا يتندر به السياسيون: يا «بثارة، يا الوذارة». فوعدوه بالوزارة، وفاز اميل اده بصوت المير خليل الذي عين بعد ذلك عضوا في الوزارة.

تولى اميل اده الرئاسة وبدأ يمارس صلاحياته بصرامة وقوة، وتحمل مسؤولياته وهي صفات عرف بها طول حياته.

واول ما فعله انه اوعز بتعديل قانون الانتخاب النيابي ورفع عدد النواب الى ثلاثة وستين بدلا من خمسة وعشرين. وتم هذا التعديل. وعين يوم ٢٧ من تشرين الاول سنة ١٩٣٧ لانتخاب مجلس نيابي جديد.

معاهدة مع فرنسا

في تلك الاونة كانت المعارضة في سوريا قد استطاعت اقناع حكومة

احزاب اليسار الفرنسية بتنسيق العلائق بين البلدين، وذلك بعقد معاهدة تعترف فيها حكومة باريس باستقلال الجمهورية السورية استقلالا كاملا لقاء الاعتراف ببعض امتيازات لفرنسا.

وعقدت المعاهدة المنشودة وبدأ عهد جديد في سوريا.

احدث العمل العاقل الذي حققته احزاب اليسار الفرنسية وقعه الطيب عند الوطنيين اللبنانيين، واخذت صحفهم تنادي بوجوب عقد معاهدة مماثلة مع لبنان.

استجابت فرنسا الى هذا النداء، ودعي لبنان الى اجراء مفاوضات لاجل معاهدة مماثلة. وطلب المفوض السامي دي مارتيل من الرئيس اميل اده ان يشرك المعارضة الممثلة بالشيخ بشارة الخوري بهذه المفاوضات فلم ير الرئيس اده بدا من الانصياع لهذا الطلب وتألفت لجنة لهذه الغاية قوامها الشيخ بشارة الخوري رئيسا والنواب المير خالد شهاب، بترو طراد، نجيب عسيران، حكمت جنبلاط، كبريال خباز، محمد العبود، وهرام ليلكيان اعضاء. وكان رئيس الجانب اللبناني اميل اده.

وعقدت جلسات كثيرة في المفوضية العليا انتهت بتوقيع المعاهدة المطلوبة في الثالث عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٣٦.

غير ان احزاب اليمين في فرنسا لم ترض عن هذا التدبير العاقل، فراحت تعبث بمصير المعاهدة في مختلف اللجان البرلمانية، وبالنتيجة لم يبرمها مجلس النواب الفرنسي.

واتى ذلك العمل الطائش من احزاب الاستعمار اليمينية بنعمة على لبنان، اذ سمح له بعد سنوات بتحقيق استقلاله الكامل دون قيد ولا شرط ولا معاهدة.

الانتداب يفرض الائتلاف

بعد ان طال غيابي عن النيابة عاودني الحنين اليها. وكنت مطمئنا الى ان الاعمال في شركة المياه سائرة على احسن سبيل.

وكان كلما اقترب موعد الانتخاب ارتفعت حرارة المعركة، اذ راح اميل اده يعمل على ادخال اكبر عدد مستطاع من مؤيديه الى المجلس، بينما بشارة الخوري ومناصروه يشنون عليه حربا لا هوادة فيها. وحدثت حوادث شغب سقط فيها بعض الجرحى. واقام اركان «الكتلة الدستورية» مهرجانا في الباروك هددوا فيه باعلان الثورة في البلاد، بعدما كان الشيخ بشارة قد عاد من زيارة لباريس، واستقبله جمهور غفير عندما وطئت قدماه أرض مرفأ بيروت، وواكب سيارته الى عاليه، وحصل احتكاك بين موكبه ورجال الدرك، وتكهرب الجو وهدد الموقف بالانفجار.

عند ذلك خشيت سلطة الانتداب من تفاقم الامر ونشوب فتنة، فتدخل المفوض السامي دو مارتيل مع رئيس الجمهورية اميل اده طالبا اليه تحقيق ائتلاف مع خصمه بشارة الخوري على ان يتقاسم الاثنان مقاعد مجلس النواب المقبل.

ولست اعتقد ان خطر اندلاع ثورة كان حقيقيا، ولكن رجال الانتداب كانوا يعمدون الى اطفاء النار كلما رأوا في الافق شرارة ولو صغيرة. يضاف الى ذلك ان اميل اده ورئيس حكومته خير الدين الاحدب وجدا في الائتلاف الذي اقترحه المفوض السامي فرصة لتحقيق رغبة اده بالاتيان باكثرية نيابية تدين له بالولاء.

ووضعت اسس الائتلاف بين الحزبين. واطلق على تلك الانتخابات

في ما بعد اسم «الانتخابات الائتلافية». ولم يكن لها من الائتلاف سوى الاسم. لانها في الواقع كانت اقتساما للمقاعد بين كتلة اميل اده وكتلة بشارة الخوري. وطبيعي ان ترجح حصة اميل اده، وهو رئيس الجمهورية، وان لم تكن حصة الاسد.

عهد جدید

ان الانتخابات النيابية موسم تكثر فيه الزيارات، والمراجعات والتوصيات، ويغتنمها رجال الدين وكل صاحب نفوذ فرصة لاثبات وجودهم، والتدليل على مكانتهم، فيؤيدون هذا المرشح ضد ذاك، ويتحركون تحرك اهل السياسة انفسهم. ثم تنطلق الاشاعات بأن المرشح الفلاني يتمتع بعطف المطران فلان، وان خصمه لا ينعم بهذا العطف، الى آخر ما هنالك من شؤون هي ابعد ما تكون عن عبادة الله وتلاوة الانجيل...

كنت مرشحا عن الجنوب، وعلى رغم انني رجل مؤمن بالله، ممارس لتعاليم الكنيسة، فقد شن علي بعض رجال الدين من طائفتي حربا لا هوادة فيها.

ومن اطرف المداورات التي جرت بيننا، ان جاء في ذات صباح (الخوري...) وبعد السلام وقبل ان يجلس ويستريح قال لي: قد لا تعرفني شخصيا، لكني اعرف عنك انك من اعيان طائفتنا الذين نفتخر بهم. وهذا ما دفعني الى ان آتي اليك في هذه الساعة، لأعلمك ان اربعة من المطارنة الكاثوليك هم فلان وفلان وفلان وفلان، طلبوا موعدا من المفوض السامي، وسيقابلونه غدا بعد الظهر طالبين منه التدخل لمنع ترشحك عن الجنوب واستبدالك بالدكتور حنا الحداد.

لا انكر ان هذا النبأ ازعجني. واستغربت هذا المسلك من السادة المطارنة، وان كنت لم أفاجأ بخصامهم، فانا طوال حياتي لم أسىء الى أي منهم، بل ان الاحترام الدائم هو الذي بدا مني نحوهم... عجبا لأتباع المعلم الاعظم يحاربون مؤمنا مثلي لم ينقص ايمانه لحظة واحدة عن ايمانهم، ولم يتأخر عن عمل الصالحات واتمام الفروض الدينية، فكيف تطاوعهم ضمائرهم على الاضرار بي، عن عمد وتصميم؟

وحالا ذهبت الى صديقي المطران مكسيموس صائغ، وكان قد نقل منذ سنة ١٩٣٣ رئيسا على ابرشية بيروت، وقصصت عليه الخبر، وسألته هل تعرف يا سيدنا الدافع الذي يدفع المطارنة الى هذا العمل؟

واطرق ساكتا رحمه الله، ثم قال بصوت منكسر: يا ابني، هذا العمل موجه ضدي وليس ضدك...

– وماذا عساك تعمل لوقف هذا العمل الضار؟
– لا ادري... سوى ان اصلي لاجل نجاحك. فتوكل على الله.
– اعقل وتوكل.
– ماذا تعني؟
– هذا حديث شريف. لقد ذهب اعرابي الى النبي محمد وقال له:

يا نبي الله لقد سرقت ناقتي.
– هل عقلتها.
– كلا ولكني توكلت على الله.
– أعقل وتوكل.

فيمكنك يا سيدي، بعد الاتكال على الله ان تتصل حالا بالمسيو دي مارتل وتطلب مقابلته قبلهم.

واتصل المطران صائغ برئيس غرفة المفوض السامي. وبعد قليل جاءه الرد بأن المفوض السامي سيستقبل غدا مساء اربعة من اساقفة الطائفة الكاثوليكية، ولا يرى مسيو دي مارتيل مانعا من ان يرافقهم رئيس اساقفة بيروت. واجابه المطران: بل اريد ان اقابل فخامته قبلهم، ووحدي...

وعين له موعدا قبل الظهر.

واستقبل مسيو دي مارتيل المطران مكسيموس، وبدأ الحديث معه عن الجو الحسن الذي اوجده الائتلاف الانتخابي، واغتنم السيد صائغ المناسبة وقال:

في الواقع اني آت لانقل اليك الارتياح العام الذي لقيه هذا التدبير، وقد اطلعت على لوائح المرشحين، فاذا بهم كلهم من خيرة اللبنانيين.

واضاف: ولقد لفت نظري بصورة خاصة احد مرشحي طائفة الروم الكاثوليك هو يوسف سالم الذي اقدره كل التقدير لما اعرفه عنه من وطنية واخلاق ورصانة...

وسر مسيو دي مارتيل بكلام زائره وقال له: انا ايضا اعرف السيد سالم مدير شركة مياه بيروت، ويطيب لي ان يلقى اختياره هذه الشهادة.

واتصل بي السيد مكسيموس رحمه الله ينقل الي هذا الاطمئنان، فسررت به، لكني بقيت على بعض قلق.

وفي مساء ذلك اليوم دخل علي الكاهن الذي رافق السادة المطارنة، واخبرني ان مسيو دي مارتيل «مرمغ» زائريه بمنتهى التهذيب والمنطق والديبلوماسية مستغربا طلب اقصائي عن قائمة الائتلاف...

فارتبكوا... وقد اجاب احدهم:

– انه مدير شركة مياه بيروت ولا يجوز له ان يجمع بين النيابة والمديرية.

فأجابهم المفوض السامي ان اكثر نواب فرنسا وشيوخها هم مديرو شركات ورؤساء شركات.

ـ ولكن الامر مختلف بالنسبة الى يوسف سالم. ان اركان الاكليروس الكاثوليكي غير راضين عن ترشيحه نائبا عنهم.

ـ دعوني اشك في هذا الكلام. ان رئيس اساقفة بيروت للروم الكاثوليك الذي اجله واحترمه، كان عندي قبل ساعات واخبرني انه سعيد بترشيح يوسف سالم، ويفتخر بأن تتمثل طائفتكم بأمثاله، وعلى كل حال فهذا رايي ايضا فيه.

وختم دي مارتيل حديثه ببرودة قائلا: هذا امر لا يتعلق بي بل بالناخبين، فما عليكم الا ان تتصلوا بهم.

وانتهت الزيارة.

وتم الانتخاب على الشكل الذي خطط له المفوض السامي بالاتفاق مع اده والخوري. وتقاسم القطبان السياسيان مقاعد المجلس، وفزت بالنيابة مع الفائزين.

وبعد ان انتهت الانتخابات، قمت بزيارة اصحاب السيادة المطارنة الاربعة الذين ناصبوني العداء واحدا واحدا. ولم تبدر مني كلمة عما حدث. وبديهي انهم لم يأتوا على ذكر أي شيء مما فعلوه. بل بالعكس ابدوا لي ما تكنه افئدتهم من احترام وتقدير لي.

وهكذا عدت من جديد الى المجلس واستأنفت الحياة السياسية التي ابتعدت عنها الى حين.

... الى ان كان العام ١٩٣٩.

الحرب على الابواب

اطلت سنة ١٩٣٩ والعالم موقن انها حبلى بالاحداث الجسام. كل شيء يوحي بان الحرب واقعة لا محالة.

ولكن متى؟ بعد اسبوع؟ بعد شهر؟ بعد سنة؟. لا يدري احد. وانما جميع الناس يشعرون بانها وشيكة. هتلر يلقي الخطب العنيفة ويدلي بالبيانات المثيرة. وهو يهيىء المانيا ويعدها للساعة الصفر. واوروبا تضع يدها على قلبها بين مصدقة ومكذبة. وطبيعي ان تكون المنطقة العربية الرازحة تحت الانتداب الفرنسي هتلرية الشعور - ومثلها الرازحة تحت الانتداب او النفوذ البريطاني - إلا أن هذا الشعور كان قليل الظهور، كثير الحياء، فالذين يتمنون انتصار المانيا الهتلرية انما يفعلون ذلك سرا في ما بينهم وبين أنفسهم، لا لحبهم لهتلر في الاكثر، بل أملا بالتخلص من الانتداب.

وتمر الايام.

ويعم التوتر والقلق والخوف العالم كله.

جاء شهر أيلول فسافرت الى باريس لانجاز عمل يتعلق بشركة المياه. ووجدت الرئيس إميل اده يقوم بزيارة رسمية لفرنسا. وشاءت الصدف أن يزور باريس في الوقت عينه بشارة الخوري وسليم تقلا.

وكان اميل اده كلما استطاع الافلات من قيود البروتوكول قصد الى احد المطاعم او المقاهي التي يرتادها اللبنانيون. ومن طريف ما كان يحدث اننا صرنا نلتقي احيانا في مطعم او مقهى واحد، اميل اده وبشارة الخوري وسليم تقلا وانا. فيتحلق اميل اده واصدقاؤه حول طاولة، واجلس انا مع بشارة الخوري وسليم تقلا الى طاولة اخرى. على اني كنت اذهب لتحية اميل اده، واجالسه بعض الوقت، ذلك لأنه تربطني به اكثر من صلة. فقد زاملته في شركة المياه، لأنه كان عضوا في مجلس ادارتها

ومستشارها القانوني، وانا مديرها العام وعضو في مجلس ادارتها ايضا. اما الشيخ بشارة وسليم تقلا فتربطني بهما صداقة شخصية فضلا عن الحزبية السياسية.

لم يكن من عادتي وطبعي وتفكيري ان تؤثر حزبيتي السياسية في صداقاتي الشخصية.

وقف الحياة الدستورية وتعيين الفرد نقاش رئيسا

فجأة اعلنت الحرب. وكنا لا نزال في باريس. فارتبكنا وتساءلنا: ماذا نفعل؟ ولم نتردد طويلا وقررنا العودة الى الوطن.

وصلنا الى لبنان من دون ان يحدث لنا في طريق العودة ما يزعج.
وما كدنا نصل الى العاصمة اللبنانية حتى اصدر المفوض السامي قرارا بحل المجلس، وتعليق الحياة الدستورية وتعيين الفرد نقاش رئيسا للدولة.

وخيم الركود على الحياة السياسية في لبنان. فالدستور معلق. والمجلس معطل. والسياسيون في اجازة كتلاميذ المدارس. والحرب في اوروبا مشتعلة في كل مكان.

وعلى رغم ركود الحركة السياسية فان حرب المنافسة والخصومة بين الخوريين والاديين لم تخمد نارها ولم تتوقف لحظة واحدة!

ديغول يرفض الهزيمة

اجتاحت جيوش هتلر فرنسا، واحتلت جزءا كبيرا منها ورفعت

راية الصليب المعقوف في سماء باريس. وبعد ذلك وقعت الهدنة بين الطرفين.

وانتقلت الحكومة الفرنسية برئاسة المارشال بيتان الى مدينة فيشي وجعلتها عاصمة لها.

لكن العناية أعدت لفرنسا منقذا عظيما بشخص قائد عبقري اسمه الجنرال شارل ديغول رفض الهزيمة ولجأ الى لوندره حيث اطلق نداءه الشهير في ١٨ من حزيران ١٩٤٠، داعيا الفرنسيين الى الالتفاف حوله، ومقاومة الغازي المحتل، وتخليص فرنسا من الانهزاميين المتعاونين مع العدو.

وظلت المفوضية العليا في لبنان وسورية تابعة حكومة فيشي.
وفي العام ١٩٤١ جردت بريطانيا حملة رافقتها قوات تابعة لديغول باسم قوات فرنسا الحرة، ودخلت لبنان وسورية بطريق فلسطين لتطرد الجيش الفرنسي التابع لحكومة فيشي والمرابط في البلدين.

واخذت الطائرات تضرب بيروت بالقنابل كل ليلة.
على اثر ذلك وقع حادث خطير بين رئيس الدولة الفرد نقاش والمفوض السامي الجنرال دنتز. فقد طلب الرئيس نقاش من الجنرال اعلان بيروت مدينة مفتوحة. فرفض المفوض السامي طلبه.

وطبع موقف الرئيس نقاش بطابع رجل شجاع، يحس تبعاته تجاه عاصمة بلاده. وهو يعرف ان هذا الموقف يعرضه، والحالة حالة حرب، لا سوأ العواقب. لكنه لم يتردد. واللبنانيون يذكرون له ذلك ولا ينسون.

ولم يدم القتال اكثر من اربعين يوما حتى استسلمت قوات فيشي في

سورية ولبنان، واعترفت بالهزيمة. وتسلمت قوات فرنسا الحرة سلطات الانتداب. وارسل الجنرال ديغول مفوضا ساميا جديدا حل محل الجنرال دنتز.

* * *

منذ ذلك الحين بدأ الانكليز يكتبون سطوراً جديدة في خريطة نفوذهم في لبنان. ولم يفت الفرنسيين ذلك. لكنهم بلعوا الموسى. فقد صاروا في وضع لا يحسدون عليه. واستمر الانكليز في كتابة السطور، وتوسيع رقعة النفوذ...

ومع الانكليز جاء الجنرال سبيرز ومعاونه المستر فرلونغ. وكان فرلونغ قبل الحرب يشغل منصب معاون القنصل الانكليزي في بيروت. وربطتني به صداقة منذ ذلك الزمان.

رياض الصلح

هنا لا بد لي، وقد اقتربنا من الايام الحاسمة التي اوصلتنا الى تحقيق الاستقلال، من ان اذكر شيئا عن رياض الصلح الذي كان هو والشيخ بشارة الخوري العاملين الاساسيين في بناء هذا العهد.

رياض الصلح كان من اكثر الناس ذكاء ومرؤة ووطنية. عارض في مقتبل الشباب حكم الاتراك وعمل مع اخوانه في سبيل استقلال العرب ووحدتهم. وحكم عليه بالاعدام في المجلس الحربي التركي في عاليه ثم خففوا الحكم بالسجن بسبب صغر سنه.

واحتل الفرنسيون لبنان وسورية فعارض احتلالهم معارضة شديدة. ولما تمكنوا من السيطرة على البلاد هرب رياض مع جماعات الاستقلاليين والمعارضين وتشتتوا في الشرق والغرب. وكتب عليه ان يتنقل في مصر وايطالية وسويسرة. وفي جنيف صار عضوا في الوفد السوري الفلسطيني مع المير شكيب ارسلان واحسان الجابري.

رجع الى لبنان وأصدر مع صديقه خير الدين الاحدب جريدة «العهد الجديد» باللغتين الفرنسية والعربية، فلم تنجح كجريدة اخبارية بسبب رصانتها، لكنها صارت «برج المراقبة» لجميع التيارات التحررية في العالم العربي.

أبعد الى القامشلي في عهد المفوض السامي بونسو. ولما سافر وفد الحكومة الوطنية السورية الى باريس لاجراء مفاوضات المعاهدة رافقه رياض، وكانت مساعيه مع احزاب اليسار الفرنسي ذات قدر.

في جميع الاحداث الخطيرة التي عصفت بلبنان وقف رياض يدعو الى الاتحاد المسيحي الاسلامي، مقربا وجهات النظر بين الجناحين، ملحا على وجوب التفاهم لتستطيع البلاد منع الطغيان الاستعماري. واليه يعود الفضل الكبير في تآخي الوطنيين في البلدين.

في سنة ١٩٣٩ عندما اجتاحت الجيوش الالمانية فرنسا كان رياض في بيروت. وكنت التقيه من حين الى حين لقاء تدعو اليه الحياة الاجتماعية والسياسية في عاصمة بلد صغير كلبنان. وتحول لقائي الى اعجاب وتقدير ثم الى محبة وصداقة. وهو رحمه الله كثير الانس والمرح، حاضر النكة، عميق التفكير، دؤوب على انباء السياسة وتقلباتها في الشرق والغرب، وذو ومضات فكر عجيبة. يرى ان لكل مأزق مخرجا ولكل معضلة حلا.

غضب الانكليز عليه

حدث بيني وبين رياض حادث كان له في رأيي اثر بعيد في السياسة اللبنانية، والسياسة السورية، بل في مستقبل البلدين الشقيقين.

ولا أدري كيف كانت الامور جرت لو لم يضعني القدر في طريق رياض، بل في الطريق بين رياض والانكليز.

ذات يوم زارني المستر فرلونغ في بيتي، فجلسنا نشرب القهوة ونتبادل الاحاديث عن الحرب، والدمار الذي تسببه، وعن الوف القتلى الذين يسقطون كل يوم، وعن هزيمة فرنسا، وكيف تنتهي حرب بهذه الضراوة.

جاءت الخادمة وقالت لي بصوت عال: رياض بك الصلح طالبك على التلفون.

أستأذنت المستر فرلونغ وقمت وتكلمت مع رياض. وعندما عدت الى الصالون وجدت فرلونغ يبتسم.

وقبل أن اجلس في مكاني سألني: انت على علاقة برياض الصلح؟

اجبت: انه صديقي. ومعرفتي به قديمة. وهو وطني استقلالي كبير. وله في نفسي كل تقدير واعجاب.

قال فرلونغ من غير المقدمات التي اشتهر بها الانكليز، وبشكل مباشر اقلقني: «اذا كان هذا الرجل صديقك، فاني ارى من واجبي ان اقول لك انه في غضون اسبوعين او ثلاثة قد يصبح نزيلا في احد المعتقلات.»

سألته والدهشة تسبق سؤالي: خير ان شاء الله، ما هو السبب؟

اجاب: «لن يعتقل رياض الصلح وحده، بل سيعتقل معه شكري القوتلي وسعد الله الجابرى. فهؤلاء هم اعداء الانكليز وقد تعاونوا مع الالمان وناصروا رشيد عالي الكيلاني عندما ثار علينا في بغداد، وشجعوا على قيام التظاهرات العنيفة ضدنا في مدن لبنان وسورية».

رياض وفرلونغ في بيتي

لم اناقش فرلونغ في الموضوع. لكنني انزعجت كثيرا. فرياض الصلح صديقي. وهو وطني كبير. واعتقاله يشكل ضربة للعاملين مثله في سبيل الاستقلال.

انتظرت على احر من الجمر ان ينصرف فرلونغ من عندى. فلما غادر بيتي اسرعت الى منزل رياض في رأس النبع. فاذا المنزل كالعادة يعج بالزائرين ورياض يضاحك هذا ويبش بوجه ذاك وهو بادي المرح والانشراح.

ولما رآني وامارات اللهفة والانشغال ظاهرة على وجهي قال،

والضحكة لا تفارق ثغره: جاء من ينبئنا بالخبر اليقين.

قلت، وانا لا أزال واقفا: «اريدك على انفراد.»
وخلوت به واخبرته خبر فرلونغ. فوجم رياض مفكراً قليلا ثم قال: لو أنهم يناقشوننا شؤوننا ربما كانوا يتفهمون حقيقتها. انا اعلم ان الاعتقال قد يشل شيئا «من نشاطنا وحركتنا، لكنه تدبير، لو فكروا جديا»، لا يعود على قضيتهم بالنفع، بل هو في النهاية يعود عليهم بالضرر.

ـ قلت: ما رأيك لو تم لقاء بينك وبينه. وليكن ذلك في بيتي.
ـ قال رياض: لا مانع لدي.

وتركت رياض وذهبت رأسا الى مكتب فرلونغ. وكأنه ادرك لفرط ذكائه ما انا آت من اجله.

قلت من دون مقدمات: انا آت من بيت رياض الصلح. وقد اوحى الي اجتماعي به ان المصلحة تقضي بأن يتم بينكما لقاء. انتم الانكليز معروفون بالمرونة والحكمة. لماذا لا تستمعون الى وجهات نظر هؤلاء الزعماء الوطنيين قبل ان تتخذوا مثل تلك التدابير بشأنهم؟ استمعوا لهم ثم افعلوا بعد ذلك ما بدا لكم.

ـ قال: ما اظن في الاجتماع فائدة.

ـ قلت: جرب. وما الضرر من المحاولة. أنا لا افهم ان يتوقف الرجل الذكي المسؤول مثلك امام الابواب المغلقة، ولا يدخلها اذا بدت له فرصة فتحها في وجهه!

ـ قال: الحق، انه ليست لي رغبة في ذلك.

ـ قلت: الرغبات في مثل هذه الظروف لا تملي المواقف. المصالح هي التي تمليها وتعينها. وعلى كل حال، نحن لنا علاقة مباشرة في الموضوع، أعني الذين تعنيهم مصلحة لبنان. فنحن نرغب في ذلك ونرى المصلحة في ان يتم ذلك اللقاء، لا بينك وبين رياض الصلح فقط، بل بينك، او بينكم، وبين كل ذي منزلة ونفوذ، وكل رجل وطني في البلاد.

ـ قال، بعد ما بدا عليه التأثر: اذا كان الامر كذلك وكما تقول، فلا بأس.

واتفقنا على ان يكون الاجتماع في منزلي في اليوم التالي.
واتصلت برياض واطلعته على ما جرى.
وفي الموعد المحدد وصل رياض اولا، ثم فرلونغ. وطال اجتماعنا ثلاث ساعات كاملة. فرلونغ يتهم الصلح والقوتلي والجابري بالعمل في الشرق العربي مع الالمان ضد الحلفاء. وكان ملخص جواب رياض بما معناه: «نحن مستعدون أن نتعاون مع أي كان من اجل ازالة الانتداب الفرنسي عن بلادنا وتحقيق الاستقلال. فاذا كنتم تساعدوننا على ذلك فنحن معكم. واذا كان الالمان مستعدين أن يساعدونا فنحن معهم. اذا كان الشيطان يساعدنا فنحن معه.»

ومر الوقت الطويل ونحن لا نحس به، واستطاع رياض، بلباقته وذكائه وتسديد اجوبته أن يزعزع موقف فرلونغ ويبدل من تفكيره.

وعندما هم فرلونغ بالانصراف، مشيت معه الى الباب لأودعه وسألته عما تركت المقابلة في نفسه:
اجابني: بالنسبة الى الصلح، اعتقد اننا سنرجىء البحث في اعتقاله. لكننا لن نغير رأينا في موضوع شكري القوتلي وسعد الله الجابري.

قلت: لعلك اذا اجتمعت بهما واستمعت اليهما كما فعلت مع رياض تغير رأيك فيهما ايضا.

قال بنبرة: لا. هذان ذهبا الى بغداد، وأقاما عند رشيد عالي الكيلاني، وكانا ضيفيه ومستشاريه في كل ما أقدم عليه من اعمال ضد بريطانيا.

قلت: ولكن وضعهما هو وضع رياض نفسه... ثم اريد ان اظل صريحا معك: ترى، على من تعتمدون في سورية وانتم اليوم في حرب لا يعلم الا الله متى تنتهي؟ من هم اصدقاؤكم الاقوياء في سورية؟

واضفت: اظن انكم اذا تعاونتم مع شكري القوتلي وسعد الله الجابري استطعتم ان تقبضوا على زمام الامن في دمشق وحلب. ولا اعتقد ان في سورية احدا سواهما من الزعماء يستطيع ان يضمن لكم ذلك. اما اذا شئتم الاتكال على الشيخ تاج الدين الحسني، فهو صديق الفرنسيين وليس له أي نفوذ في بلده.

وعدت الى رياض ورويت له حديثي مع فرلونغ.
قال رياض: حسنا. والآن اريدك ان تكمل مساعيك الطيبة وتجد طريقة تساعدنا على جمع القوتلي والجابري بفرلونغ. واضاف رياض: ان المسألة ليست بسهلة، والمعلومات التي تجمعت لدي تؤكد ان الانكليز ينوون شرا بالصديقين. وقد لا يقتصر الامر على اعتقالهما.

وختم رياض كلامه لي بقوله: «انك ان فعلت اديت لي ولهما وللقضية العربية خدمة جلى».

ذهبت من فوري الى فرلونغ واعدت الكرة عليه، فوجدته متصلبا لا يتزحزح. وناقشته طويلا والححت. وتوصلت اخيرا الى اقناعه بفائدة

اجتماعه بالقطبين السوريين. وعندها تركته واسرعت الى رياض انقل اليه موافقة فرلونغ. وقلت لصديقي: ولكن كيف يأتي القوتلي والجابري الى بيروت ونحن في شهر رمضان؟ قال: سأتدبر الامر. فاطمئن بالا.

في بيتي ايضا

وفي اليوم التالي ذهب رياض الى دمشق وجاء بصديقيه الزعيمين ووصل الثلاثة الى بيروت عند العصر وجاؤوا الى منزلي رأسا. فاتصلت من فوري بفرلونغ فحضر واجتمع بهم. اما انا ففضلت أن أتركهم وحدهم يتناقشون. وصرت ادخل عليهم من حين الى حين عندما ترتفع الاصوات ويحتدم النقاش.

وتدخلت في الجدل والنقاش

ركز فرلونغ كلامه على الاتهامات التي سردها من قبل. وهي قوله مخاطبا الزعماء: انتم مشيتم مع الالمان ظنا منكم انهم سيربحون الحرب وسينتصرون على الحلفاء. وهذا نوع من التخاذل لا نستطيع ان نقف منه مكتوفي الايدى. وظنكم هذا هو الذي قربكم من الالمان وابعدكم عنا.

وقبل ان يجيب الزعماء، توليت بنفسي الجواب، وقلت لفرلونغ: «وماذا اذا ظنوا ان الالمان سينتصرون؟ عندما استسلمت فرنسا صار الجميع يعتقدون ان المانيا ستنتصر وتكسب الحرب. وصار ذلك حديث الناس. وانا كذلك اعتقدت في فترة من الفترات ان الالمان سينتصرون. وانت ايضا. وتشرشل نفسه اعتقد ان المانيا ستنتصر عندما خاطب الشعب البريطاني بقوله: «اني لا استطيع ان اعدكم الا بالدموع والآلام.

واذا احتلت المانيا بلادنا فسنحارب وراء البحار. نحارب في اي مكان. لكننا لن نموت الا واقفين». «فهل تعتقد ذلك تخاذلا من تشرشل؟ واذا كنتم انتم رايتم الهزيمة ماثله امام اعينكم والمانيا منتصرة، فهل تعتبون علينا نحن البعيدين عن ساحة الحرب والاحداث، اذا ظننا في وقت من الاوقات، او خشينا، ان تنتصر المانيا؟ ان انتصار هتلر، لو حدث لا سمح الله، لكان قضى في نظرنا على الحريات التي نؤمن بها وعلى الديموقراطية التي هي رائدنا وعلى الاستقلال الذي ننشده».

اسفر الاجتماع عن تفاهم تام

تكلمت بحماسة المؤمن وقناعة الصديق. فبدأ الارتيــاح على الزعماء. كما فعلت كلماتي في نفس فرلونغ، فشعرت ان ارتياحه يخالطه شيء من الاستحياء.

والتقط رياض الكرة. فقال على الفور مخاطبا فرلونغ: «دعونا نترك الماضي ونتكلم عن المستقبل. اذا كنتم تساعدوننا على ازالة الانتداب الفرنسي وتحقيق الاستقلال فنحن معكم منذ الآن.»

وثنى القوتلي والجابري على كلام رياض.
واسفر الاجتماع عن تفاهم تام.
والغى الانكليز فكرة الاعتقال. واتفق الجميع على التعاون ومتابعة السعي لتحقيق الاستقلال في سورية كما في لبنان.

وعلى رغم الصداقة الوثيقة التي كانت تربط رياض بالكتلة الوطنية في سورية، والثقة المتبادلة بينه وبين اركانها، فان اجتماع الزعيمين القوتلي والجابرى بفرلونغ بفضل توسط رياض ومبادرته الى تحذير صديقيه من الخطر الذي كان يتهددهما، كل ذلك وطد صلة رياض

بالوطنيين السوريين وزاد عليها عاطفة عرفان جميل حفظوها له، وفي طليعتهم شكري القوتلي وسعد الله الجابرى: أدت هذه الصلة الوثيقة خدمة جلى لرياض ولقضية لبنان في ما بعد، عندما نشبت الازمة بين لبنان والدولة المنتدبة في خريف ١٩٤٣.

وعندما انفض الاجتماع كان وقت الافطار قد حان. فدعوت القوتلي والجابري والصلح الى الافطار عندى، وكان بين انواع الطعام صحن من الكمء (الكما).

وبعد ايام تلقيت من رئيس شركة الكونسروه في سورية، شكري القوتلي، خمسة صناديق من معلبات الكمء هدية.

وتوثقت صلتي بالرئيس القوتلي، وصرت كلما نزلت دمشق ازوره فيستقبلني بحفاوة واكرام.

الصراع الفرنسي البريطاني

١٩٤٢. الحرب مستمرة. مستمرة في كل مكان. وقد امتدت الى روسية من جهة، والى شمالي افريقية من جهة اخرى.

أما لبنان. فيتابع اخبارها، لكنه لا يزال بعيدا عنها. ولولا المعارك الصغيرة التي خاضتها القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة عندما دخلت بلادنا وطردت منها قوات فيشي، لكان اللبنانيون سمعوا بالحرب سمعا، ولم تطلق في بلادهم رصاصة واحدة.

ولا بد من الاعتراف بأن سنوات الحرب هذه ـ بخلاف الحرب الكونية الاولى ـ سجلت عهد ازدهار اقتصادي في لبنان.

لكن حربا من نوع آخر كانت تدور في لبنان. حربا خفية احيانا، علنية حينا. سلاحها الكلام، والدسائس والوشايات، وغايتها تحطيم نفوذ وتركيز نفوذ، وجنودها موظفون كبار، ومأمورون صغار، وعملاء، وجواسيس.

كانت فرنسا في لبنان بحكم الانتداب. وجاءت بريطانيا الى لبنان بقوة السلاح. وصار عندنا بدل الجيش الواحد جيشان. وبدل الانتداب انتدابان.

الفرنسيون يمثلهم الجنرال كاترو المالك سعيدا على رأس المفوضية العليا بلقب «المندوب العام»، لكنه يمثل قوة قليلة متوثبة من دولة منكسرة.

والانكليز يمثلهم الجنرال سبيرس سفير صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى، ومعه المال والرجال والقوة الحربية الجبارة.

والمفروض فيهما ان يتعاونا لأنهما يمثلان بلدين حليفين ضد عدو مشترك هو هتلر وحلفاؤه.

لكن كاترو راح يبذل كل جهده ليحتفظ لفرنسا بمركزها الممتاز في سورية ولبنان.

وسبيرس اخذ يطمح الى قلع النفوذ الفرنسي من الارض اللبنانية السورية، ليركز النفوذ البريطاني مكانه.

هذه هي الحرب الخفية التي بدأت تدور تحت سمعنا وبصرنا.

حفلة تكريم على شرف كاترو

وللدلالة على تجاذب الانكليز والفرنسيين النفوذ في لبنان، أروي حادثا بسيطا في ذاته، لكنه ذو مغزى كبير.

كنت في ذلك الوقت رئيسا لنادي الروتاري الذي يضم حوالي خمسة واربعين شخصا يمثلون مختلف القطاعات والهيئات الاقتصادية والتجارية والمالية وغيرها. وهم خليط من فرنسيين ولبنانيين.

وذات يوم قرر النادي ان يقيم حفلة تكريمية على شرف الجنرال كاترو، وكنت في هذا الوقت، وعبر صداقتي للكولونيل فرلونغ، قد تعرفت الى الجنرال سبيرس.

حددنا موعد الحفلة وطلبت الى كل عضو أن يدعو خمسة او ستة اشخاص من اصدقائه ليكون عدد الحضور كبيرا. وبالفعل اقيمت الحفلة وحضرها حشد من الشخصيات، وجاء كاترو بكل ابهته، بادي الارتياح، ولم يخف انشراحه وسروره لذلك الحشد من الشخصيات.

من الطبيعي ان القي كلمة ترحيب تناسب المقام. فبعد ان رحبت بالضيف الكبير تمنيت لفرنسا ان تنهض من النكسة العسكرية التي اصيبت بها وان تعود فتحتل المركز اللائق بها كدولة اوروبية كبرى، وتحقق الوعد الذي قطعه الجنرال ديغول على نفسه لسوريا ولبنان، بمنحهما الاستقلال الذي يتوقان اليه.

ورد كاترو بخطاب شكرني فيه وتحدث عن مجد فرنسا وتاريخها والروابط التي تشد لبنان اليها. واكد ايمانه بالنصر وذكر قول الجنرال ديغول: «لقد خسرنا معركة ولكننا لم نخسر الحرب». وأضاف من طرف خفي انه يأمل أن ينال لبنان ما يصبو اليه.

وفي اليوم التالي صدرت الصحف وفي صفحاتها الاولى تفاصيل الحفلة ونص الخطابين.

عتاب وحسن تخلص

وكنت في البيت، صباحا، اقرأ الصحف، واذا بالكولونيل فرلونغ يتصل بي تلفونيا ويقول بلهجة لا تخلو من الالحاح انه يريد ان يراني فورا. قلت: اهلا وسهلا. تفضل.

وما هي الا دقائق حتى وصل الى بيتي، وهو متجهم الوجه.

فبادرته بقولي: خير ان شاء الله. الاحظ انك لست منشرحا كما هو عهدي بك.

اجاب: انك اقمت بوصفك رئيسا لنادي الروتاري الدولي، حفلة تكريمية للجنرال كاترو بوصفه مندوبا عاما لفرنسا، وتجاهلت ان

بريطانيا العظمى لها في بلدكم سفير مطلق الصلاحية هو الجنرال سبيرس صديق لبنان المخلص.

قلت، وقد فوجئت بحديثه: يا صديقي، لو انني دعوت الجنرال سبيرس الى الحفلة لاضطررت الى اعطائه المركز الثاني، وانت تعلم ان الجنرال كاترو له المركز الاول حسب العرف الديبلوماسي. فرأيت من اللياقة وتقديرا للجنرال سبيرس وللبلد الذي يمثله ان لا ادعو الاثنين معا، وقد هيأت دعوة ثانية على شرف الجنرال سبيرس ستصل اليه قريبا.

سألني، وقد زال الوجوم عن وجهه: آمل ان تكون الحفلة قريبة جدا.

قلت: الخميس الآتي.

وقال: متى تذهب الى الجنرال لدعوته؟

ـ سأتلفن لتعيين موعد.

ـ بل انا اتلفن له.

ومد يده فورا الى الآلة، وكانت على مقربة منه وتحدث الى سبيرس. حدثه عن سبب عدم دعوتي اياه، حفاظا مني على مقامه المحترم ومراعاة للياقة البروتوكولية.

ولم اسمع جواب سبيرس ولكني قدرت انه سر باستدراكي، اذ قال لي الكولونيل فرلونغ: ان الجنرال ينتظرك غدا صباحا.

.. وحفلة على شرف سبيرس

وذهبت الى سبيرس، فاستقبلني متلاطفا شاكرا على انتباهي لأن

لا اجمعه بالجنرال كاترو في دعوة واحدة. وسألني حالا: متى تريد ان يكون وقت الحفلة؟

ـ الخميس اذا شئت.

ـ الخميس ... نعم، فليكن.

وبعد قليل كلحظة العين قال: لكني آمل ان تكون حافلة مشرقة لا تقل عن حفلة كاترو...

قلت: ستكون مثلها في الاقل ان لم يكن اكثر.... فسر بما سمع وشيعني الى الباب بحرارة.

وخرجت اتساءل: هل بلغ الضعف الانساني في البشر، حتى في الذين نراهم كبارا، مثل هذا الحد؟ أهذا هو الجنرال سبيرس العظيم الذي يمثل بريطانيا العظمى، يحرص على ان لا يكون تكريمه اقل من تكريم كاترو؟

وخطر ببالي سبب تخفيفي فقلت: لعل الرجل فكر بمكانة دولته، قبل التفكير بشخصه، وتراءت له خطورة المهمة التي يقوم بها في مرحلة من التاريخ حاسمة، فاراد ان يكون تكريم ممثل الدولة البريطانية في بلد مثل لبنان على اكمل ما يكون التكريم...

وعلى كل اقمت الحفلة على شرف القائد الانكليزي، ففاقت بتألقها وبهجتها حفلة زميله كاترو، وسر بها كل السرور!

وحادثة اخرى وقعت لي مع الجنرال كاترو.

انطلاق في الحقل الاجتماعي

انشأ الجنرال كاترو في المفوضية العليا غرفة اجتماعية وعين

رئيسا لها الأب لوجينسيل، الذي منحه الرئيس فؤاد شهاب في ما بعد، ابان رئاسته، الجنسية اللبنانية، وهو لا يزال الى اليوم مستشارا لدى صندوق الضمان الاجتماعي. والاب لوجينسيل كاهن يسوعي.

وفور تعيينه في الغرفة الاجتماعية راح يتصل بالشركات والمؤسسات ويسأل العمال والموظفين عما اذا لديهم شكاوى من ادارتهم ليعرضوها عليه. وطلب من الاجراء تأليف نقابات تتكلم باسم العمال والموظفين وتطالب بزيادة الاجور.

كانت تلك ـ كما اعتقد ـ المرة الاولى التي تنحني فيها السلطة في لبنان على شؤون العمال وتعنى بعلاقة العامل برب العمل. واكبر ظني انها كانت نقطة انطلاق خطيرة في الحقل الاجتماعي، وان انشاء الغرفة الاجتماعية في المفوضية العليا يشكل تاريخا لا يمكن تجاهله.

حركة في شركة المياه

وفي طريق اتصالاته بالمؤسسات مر لوجينسيل بشركة المياه التي اديرها. ولم اعلم ما دار بينه وبين ممثلي موظفيها. على انه لم تمض ايام قليلة حتى بدأ عمال الشركة يتحدثون عن حقوقهم في المؤسسة وعن عزمهم على الاضراب عن العمل، اذا لم ينالوا ما يطلبونه. فراعني الامر، وهالتني هذه اللغة الجديدة التي لم نكن نسمع بها في لبنان، او في اي بلد من بلدان الشرق العربي قبل ذلك. وكانت تصل الى مسمعي اخبار اجتماعات يعقدها بعض الموظفين وبعض العمال هنا وهناك. فتجاهلها ولا اعيرها اية اهمية.

لكن اجتماعات العمال تطورت وصار الهمس كلاما. فدعوتهم الى الاجتماع في احد مكاتب الشركة وقلت لهم: ان شركة المياه متصلة بحياة

الناس اليومية وحاجاتهم الملحة، وانني مسؤول عن تلبية هذه الحاجات وتأمينها باستمرار، وان جميع العاملين في الشركة من موظفين وعمال يشاركونني هذه المسؤولية ولا يحق لاحد منا، لا انا ولا هم، ان نتهرب منها. فأن نحن تجاهلنا هذا التعاون في ما بيننا او هذه المسؤولية المشتركة لم نكن على مستوى الثقة التي وضعتها فينا مصلحة المستهلكين وحاجات الناس.

وانطلاقا من هذا المبدأ اعتبر الاضراب عن العمل جريمة لا اسمح باقترافها، لانه يعرض سكان بيروت للعطش. واضفت انني اشعر معهم دائما ولا أتأخر عن مساعدتهم وتلبية مطالبهم الحقة. لكنني لن اسمح باضراب يحول دون وصول الماء الى المستهلكين. وقلت ان أي تهاون في العمل، او توقف عنه، سيجازى مقترفه بالطرد على الفور، لأننا في حالة حرب ولأن المسؤولية الملقاة علينا تتعدى حاجات سكان بيروت الى حاجات جيوش الحلفاء المرابطة في ضواحي العاصمة.

الشركات الفرنسية معفاة من الضرائب

وبعد أقل من اربع وعشرين ساعة اتصل بي الاب لوجينسيل تلفونيا وقال: «سمعت انك هددت العمال باتخاذ اجراءات زجرية ضدهم اذا هم اضربوا. لذلك احب ان اقول لك ان الاضراب حق مقدس ولا يجوز ان تستعمل لغة التهديد.»

اجبت الاب اليسوعي بكل احترام: انا اعرف ان الاضراب حق مقدس ولكن لا تنس اننا اليوم في حالة حرب.

قال: جميع الشركات تجاوبت معي وساهمت في زيادة مرتبات الموظفين الا انت.

قلت: ربما. فالشركات التي تعنيها هي شركات فرنسية معفاة من الضرائب... اما شركة المياه فهي شركة لبنانية. وهي في حالة مالية لا تسمح لها بأن تلبي كل مطالب العمال.

وانتهت المكالمة. وكان واضحا من لهجة الاب لوجينسيل انه كان غاضبا متوتر الاعصاب.

كنت ولا ازال ادافع عن حقوق العمال والاجراء اينما كانوا، واؤيد مطالبهم الحقة. واعلنت ذلك اكثر من مرة في المجالس النيابية التي دخلتها. وطبقت الكثير من مبادىء الضمان الاجتماعي في شركة المياه. ولكن الاجراء والعمال ينساقون احيانا في تيارات لا يد لهم فيها ولا مصلحة، ولا يلتفتون الى ظروف الاحوال، وواقع الامور وتوقيت الاعمال التي يدفعون اليها.

لم اكن مرتاحا لحديث الاب لوجينسيل. بل اقلقني كلامه. وكان قلقي في محله. اذ انني بينما انا في منزلي ذات يوم رن جرس التلفون، وكان على طرف الخط الآخر احد مفتشي الشركة، وهو عضو في مجلس نقابة الموظفين، فقال: يا سيدي المدير، ان المصلحة تقضي بان اجتمع بك فورا لأمر مهم، وأخشى أن يشعر رفاقي باتصالي بحضرتك، فأرجوك، اذا كان باستطاعتك ان تتفضل وتلاقيني الى مستودع المياه في الأشرفيه.

قلت: سأحضر في الحال.

فلما التقينا قال المفتش وهو يتطلع يمنة ويسارا: اجتمعنا في مجلس النقابة. وتكلم رئيس النقابة قائلا: «ان مدير الشركة يوسف سالم رجل قاس لا يحسب حسابا لأحد. وقد رفض تدخل حضرة الاب لوجينسيل رئيس الغرفة الاجتماعية في المفوضية العليا. لذلك ارى ان نسعى لابعاده عن ادارة شركة الماء بكل الوسائل. واظن ان افضل ما

نستطيع عمله هو ان نبتدئ بتقديم شكوى عليه الى المحكمة العسكرية الفرنسية التابعة للجيش نقول فيها ان يوسف سالم هو ضد الانتداب وهو من دعاة الاستقلال. وانه، عدا عن ذلك، استعمل لحساب الشركة ولمصلحتها قساطل حديدية خاصة بالجيش موضوعة أمانة في مستودع الشركة. وقد علمت اننا ما دمنا في حالة حرب، فقد تكفي هذه الشكوى لأرساله الى المحاكمة. وهكذا نتخلص منه...

وتابع رئيس النقابة قائلا: وقد هيأ لي أحد اصدقائي موعدا مع المحقق العسكري غدا مساء الساعة العاشرة ليلا.»

وفي الموعد المعين ذهبنا انا وفلان وفلان وقابلنا المحقق العسكري في بيته، وعرضنا له الامر وأعربنا عن رغبتنا في تقديم الشكوى، فأجابنا بأنه لا يجوز ان يحقق في هذه القضية الا اذا كنا مستعدين لأقامة دعوى خطية، وأن الكلام العابر لا يكفي. فأستأذنا وانصرفنا.

قال المفتش الذي كان يروي لي هذه القصة: «ونظرا لخطورة المسألة وللضرر الذي قد يلحق بك يا سيدي المدير، رأيت أن أطلعك على الواقع وأن اخبرك اني لم أشارك رفاقي في ما فعلوا الا لكي يتسنى لي اطلاعك على ما جرى. فأرجو أن تعذرني وتقدر موقفي. وأنا أعرف اكثر من غيري المنافع التي حصلنا عليها بوجودك على رأس الشركة، وكيف أنك تعامل جميع الاجراء والعمال بالعطف والاحسان».

أجبت المفتش، والتأثر والغضب باديان على وجهي: «اسمع يا فلان، اني سأطردكم هذا الصباح انتم الأربعة الذين ذهبتم الى المحقق العسكري، وانهي خدماتكم في الشركة. اما انت فسأعيدك الى العمل بعد اربعة اسابيع تقديرا لأقرارك هذا، وسأضرب صفحا عن اشتراكك في المؤامرة».

وكنت مطمئنا. ولم أعط لهذا الحادث أية اهمية. ذلك لأني اعتبرت أن عملي في سبيل استقلال بلدي لا يشكل ادنى مسؤولية تنالني قضائيا. وعدا عن ذلك فانني كنت فعلاً قد امرت بنقل قساطل الماء التي تخص الجيش من مكانها واستعمالها في شارع آخر. لكنني لم اقدم على ذلك الا بعد ان كتبت الى قيادة الجيش الفرنسي واخذت موافقتها على هذا التدبير. غير ان الموظفين لم يكن لهم علم بموافقة الجيش.

وعدت من فوري الى مكتبي في الشركة. واستدعيت الوشاة الاربعة وابلغتهم انني فصلتهم من الشركة وانهيت عملهم ابتداء من تلك اللحظة.

رسالة من كاترو ...

وبعد ثلاثة ايام تلقيت رسالة من المفوض السامي الجنرال كاترو يقول فيها ما يلي:

حضرة المدير
«بلغني انك طردت اربعة اشخاص من موظفي شركة مياه بيروت، لانهم كانوا يدافعون عن حقوق زملائهم المهنية.

لذلك اطلب منك ان تعيدهم فورا الى الشركة وتدفع ما يستحق لهم عن الايام التي قضوها خارج العمل. واني انتظر منك جوابا سريعا تعلمني فيه انك نفذت هذه الاوامر.»

اضطربت عندما قرأت الرسالة. وبعد ان فكرت في الامر طويلا صممت على ان لا اتراجع عن قراري ولو ادى ذلك الى ابعادي عن المديرية. فتراجعي يعني شيئا واحدا، هو انني فقدت سيطرتي على الموظفين ولم يبق في مقدوري الاستمرار في ادارة الشركة.

فقصدت الى الرئيس اميل اده باعتباره محامي الشركة واطلعته على ما حدث. فنصح لي ان انفذ اوامر الجنرال كاترو واعيد الموظفين الاربعة.

فقلت: يستحيل ان اتراجع عن موقفي.
قال: قد يفصلونك من الشركة.
قلت: لا مانع عندي. المهم ان لا اتراجع عن القرار الذي اتخذته، لأن فيه مصلحة شركة المياه، ومصلحة بيروت ومستهلكي الميـاه. وأضفت: سأجيب الجنرال على رسالته واقول له ان ما ورد في الرسالة غير صحيح. وان ما فعلته كان تأمينا للمصلحة العامة ومصلحة بيروت التي انا مسؤول عن ادارتها.

وبعد اسبوع قضيته في التشاور مع بعض الاصدقاء ورجال القانون الذين اعرفهم، كتبت الرسالة التالية:

وجواب مني

«سعادة الجنرال كاترو
ان الذي نقل اليك اني طردت اربعة اشخاص من شركة مياه بيروت لأنهم دافعوا عن حقوق زملائهم المهنية لم ينقل اليك الحقيقة كاملة. الواقع اني قد طردتهم لانهم يقومون بمشاغبات في الشركة. والانشاءات التي تملكها شركة مياه بيروت تكاد لا تكفي لتموين العاصمة وتلبية حاجات الجيوش الحليفة المرابطة خارج المدينة. ونحن اليوم في حالة حرب. ولا يمكننا استيراد قطع غيار، ولا الآت بديلة. ويلزمها عناية دقيقة ومستمرة.

وتأمين المياه كما تعلم يا صاحب السعادة مسألة حساسة ودقيقة جدا، ولا يمكنني تحمل هذه المسؤولية الجسيمة الا اذا توافرت لدي الطمأنينة والحرية التامة في العمل. واي عطل يحدث في الآلات يعني ان سكان بيروت وجيوش الحلفاء سيواجهون العطش حتما.

لذالك آمل من سعادتكم ان تعيدوا النظر في الاوامر الموجهة الي.

اما اذا رأيتم ان تؤكدوا ما ورد في كتابكم، فأرجو ان تصدروا بذلك مرسوما له صفة القانون، باعتبارنا شركة لبنانية لا تسري علينا الاوامر المباشرة من المفوضية العليا

وفي هذه الحالة أجد نفسي مضطرا الى أن اكتب الى القائد العام لجيوش الحلفاء الفرنسية والبريطانية المرابطة في ضواحي بيروت لأبلغه فحوى كتابكم وما قد ينتج عنه من تاثير في سير العمل في الشركة، وانه اذا تعذر لسبب من الاسباب توزيع الماء على المستهلكين او على ثكنات الجيش، اعتبر نفسي غير مسؤول عن ذلك لأني لم اعد حرا في القيام بالتبعات الملقاة على عاتقي.»

الجنرال يتراجع

لم تمض خمسة ايام على ارسال هذا الكتاب حتى اتصل بي رئيس الغرفة المدنية في المفوضية العليا ورجا مني الحضور الى مكتبه لان لديه رسالة مهمة من الجنرال كاترو الي.

ولبيت، فقال لي: ان الجنرال تسلم كتابك واطلع على مضمونه

واقتنع بما ورد فيه، وهو يطلب منك ــ دون الدخول في التفاصيل ــ ان تعتبر رسالته اليك ملغاة وكأنها لم تكن. على ان له طلبا واحدا وهو ان تدفع كامل التعويضات للذين طردتهم من الوظيفة.

لقد رويت هذه القصة لاشدد على امرين، الاول ان المفوضين السامين الذين ارسلتهم فرنسا الى لبنان لم يكونوا جميعهم مستبدين لا يتراجعون عن قرار خاطئ اتخذوه، والآخر ان الانسان اذا قاوم بسلاح الحق والشعور بالمسؤولية استطاع ان يثبت وجوده حتى امام الحاكم مهما بلغ جبروته.

فى طريق الاستقلال

في اواخر عام ١٩٤٢ نشط الوطنيون في لبنان وبدأوا يطالبون بعودة الحياة الدستورية، وأجراء انتخابات نيابية عامة.

رأى اللبنانيون، المتطلعون الى الاستقلال، ان الفرصة قد سنحت. فالحرب مشتعلة في كل مكان. ورؤساء الدول المتحالفة وكبار سياسييها ينادون بحق الشعوب في تقرير مصيرها، ويعدونها بالحرية والاستقلال. وقد وقعوا في ما بينهم على ما دعي في ما بعد بميثاق الاطلسي تكريسا لهذه المبادىء.

وادرك الوطنيون ان ساعة تحقيق حلمهم قد دقت، وأن اوان انهاء حالة الانتداب، والاستفادة من الخلاف الناشب بين فرنسا وبريطانيا، خصوصا بعد ان تألق نجم الانكليز وضؤل نجم الفرنسيين.

بدا واضحا، بعد ان هزم الجنرال مونتغومري خصمه روميل في معركة العلمين، وطرده من مشارف الاسكندرية؛ ان حلم هتلر في السيطرة على الشرق الاوسط قد لاشته رمال الصحراء وقضت عليه، وان الطاغية النازي ارتد نهائيا عن هذه البقعة من الارض.

وفي مصر فرض الانكليز مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصري على الملك فاروق، بقوة الدبابات التي حطمت باب قصر عابدين، وصار النحاس باشا رئيسا للحكومة المصرية، الى كونه زعيما وطنيا تخطى نفوذه حدود مصر الى جميع الاقطار العربية، ومنها لبنان.

وتراجع النفوذ الفرنسي في لبنان متأثرا بهذه الاحداث كلها، وعظم نفوذ الانكليز.

حكومة الدكتور ايوب تابت

وتعددت اتصالات الوطنيين السوريين واللبنانيين بالشقيقة

الكبرى مصر، وزعيمها النحاس. وكانوا يعرفون ان لرئيس الوفد المصري كلمة مسموعة لدى القيادة الانكليزية المتركزة في القاهرة، فلا بد من ان تؤيد مساعيه لجمع شمل العرب الواثقين بمبادئ الحلفاء الديمقراطية.

ولم يخيب النحاس امل اخوانه في «بر الشام». فوضع ثقله في الميزان لمصلحة البلدين الواقعين تحت انتداب فرنسا، وكان كاترو وسبيرس سافرا اكثر من مرة الى القاهرة وبحثا معه في مصير البلدين. واسفرت المباحثات بينهم عن الاتفاق للعمل على اعادة الحياة الدستورية واجراء انتخابات نيابية في لبنان، على اساس الغاء مبدأ التعيين وانتخاب جميع النواب من الشعب انتخابا مباشرا.

وعين الدكتور ايوب تابت رئيسا للدولة يعاونه وزيران، احدهما الاستاذ جواد بولس نقيب محامي الشمال، والآخر الرئيس المير خالد شهاب.

وبدأت الحكومة الجديدة الاعداد للانتخابات، ولم تلبث ان اصطدمت برغبة الجنرال سبيرس القائل بعدم الاعتماد على الاحصاءات المعمول بها، لأن فيها عشرات الالوف من اسماء المغتربين الذين لا يعيشون في لبنان، وهذه الاحصاءات تجعل عدد النواب المسيحيين زائدا زيادة نعتها الجنرال سبيرس بانها «مفتعلة»، ولكن حكومة الدكتور ايوب تابت أصرت على اجراء الانتخاب بموجب الاحصاءات. فرفض سبيرس حجتها رفضا جازما (وكان الدكتور ايوب تابت صديقه ومرشحه لرئاسة الدولة) وفجأة تحرك الشارع، واضطرب الرأي العام وبدأ الغليان، وقامت تظاهرات عاصفة هددت الأمن في لبنان كله، مما جعل النحاس باشا يتدخل في الأمر، واقنع الجنرال كاترو بوجوب الضغط على الحكومة كي تحقق رغبة الجنرال سبيرس.

ونقل الجنرال كاترو هذا الرأي وايده، فاصرت الحكومة على موقفها واعلنت استقالتها.

وجيء بالاستاذ باترو طراد رئيسا للدولة يعاونه عبد الله بيهم وتوفيق لطف الله عواد، بعد ان تعهد السيد عواد باقناع نسيبه البطريرك عريضه بضرورة الموافقة على وجهة نظر الجنرال سبيرس.

وهكذا جعل عدد النواب المسيحيين ثلاثين نائبا وعدد المسلمين خمسة وعشرين. اي بنسبة ستة الى خمسة.

سلبيو لبنان يخوضون الانتخابات

هذه المرة ارتدت الانتخابات النيابية طابعا جديدا مهما للغاية، وخاض معاركها السياسيون السلبيون الذين كانوا في الماضي بعيدين عنها، أما بمحض ارادتهم كالزعيم الطرابلسي عبد الحميد كرامي وزعماء بيروت عمر بيهم وعمر الداعوق، وأما بقوة قاهرة كالزعيم رياض الصلح.

وبدا واضحا، ان هذه الانتخابات ستفتح صفحة جديدة في تاريخ لبنان ونظامه السياسي، نظرا لتصارع النفوذين الفرنسي والانكليزي على ارضه، ولاحتمال تحقيق الاستقلال الناجز.

كان الفرنسيون يشعرون — بعد ان هزمت بلادهم — ان لبنان وسورية يشكلان آخر معقل من معاقل نفوذهم في الشرق الاوسط، فألقوا في المعركة الانتخابية بكل ثقلهم.

كما ان الانكليز يعرفون ان الجو ملائم لهم ليضربوا ضربة محكمة في هذه المنطقة من العالم. انهم يسيطرون على مصر وفلسطين والعراق وأمارات الخليج، فلماذا لا يخرجون فرنسا من سورية ولبنان، ويكون بعد ذلك لكل حادث حديث؟

كانت فرنسا ممثلة بالجنرال كاترو، وبريطانيا ممثلة بالجنرال سبيرس. كل من القائدين يعتمد على فريق من اللبنانيين لتعزيز نفوذ دولته.

كان كاترو يعتمد على امّيل اده وانصاره وحزبه «الكتلة الوطنية». وسبيرس يعتمد على بشاره الخوري وانصاره وحزبه «الكتلة الدستورية».
مدان المعركة الرئيسي منطقة جبل لبنان معقل الخوريين والاديين معا.

وهكذا اتقدت من جديد جمرة الحزبية التقليديـة والصراع الخوري ـ الادي. ولكنها تتقد هذه المرة لاسباب تتجاوز الرجلين وترقى الى مستوى الصراع الدولي ولاهداف لا يعلم الا الله ما هي.

ما هو هدف الانكليز

واخذ اللبنانيون يطرحون على انفسهم أسئلة كثيرة تثير في نفوسهم القلق والحيرة: لماذا يشن سبيرس على الانتداب الفرنسي هذه الحرب الضارية؟

هل تريد بريطانيا ان تطرد فرنسا من لبنان وسورية لينعم البلدان بالاستقلال، ام لتحل هي محل فرنسا؟
واذا لم تستطع ان تحل محل فرنسا فهل تعمل على اذابة لبنان في مشاريعها العربية الوحدوية، كالوحدة السورية او الهلال الخصيب او غيرهما؟

الاستاذ جواد بولس وزير الخارجية في حكومة الدكتور أيوب تابت اعلن اكثر من مرة لاصدقائه «ان الجنرال سبيرس حاول اقناعه في «دعوة هادئة» بأن لبنان مثقل بحدوده الحالية، وأن من الخير له ان «ينزل عن كتفيه» ـ كذا ـ بعض أراض له في الشمال والجنوب فيصير سكانه اكثر انسجاما...»

وعلى كل، فهذه الاسئلة التي لا تزال الاجوبة عن بعضها غامضة، صارت امضى سلاح في ايدي اصدقاء فرنسا اي اميل اده واصحابه.

ولأن فريقا كبيرا من اللبنانيين كان يطرحها في الاوساط اللبنانية، استطاع اميل اده ان يقوم بدوره، وان يقف على قدميه ولو لفترة قصيرة في معركة غير متعادلة بينه وبين بشاره الخوري الذي ايده جميع اعداء فرنسا، وما اكثرهم.

رياض الصلح يرشح نفسه عن الجنوب

عندها حدثت المفاجأة اذ رشح رياض نفسه للنيابة.
ادرك الزعيم العربي اللبناني الاستقلالي ان معركة اليوم هي غير معارك الامس، فصمم على خوضها. والجنوب منطقته. وصيدا مسقط رأسه ومهد آبائه واجداده. ولكن كيف يستطيع رياض الصلح بين ليلة وضحاها ان يفوز في انتخابات سيحاربه فيها الفرنسيون حربا لا هوادة فيها، وربما حاربه الانكليز ايضا.

عمل رياض الصلح طول حياته لوحدة العرب واستقلالهم. وفي سبيل عقيدته ومثله العليا واهدافه قاسى الاضطهـاد، والتشريـد، والاعتقال. وحكم العثمانيون عليه بالاعدام وهو بعد فتى يافع. ولم ينقذه من حبل المشنقة سوى صغر سنه.

ولكن رياض الصلح، يمتاز عن سائر الوطنيين العاملين لاستقلال العرب ووحدتهم بتفهمه للقضية اللبنانية، ولما للبنان من شخصية مميزة في العالم العربي الاسلامي الفسيح. ولم يتردد رياض مرة في المجاهرة بهذا الرأي والقول انه لا يضير الوحدة العربية ان تقوم على ست او سبع ركائز، وأن يظل لبنان محتفظا باستقلاله، غير ذائب ذوبانا تاما في وحدة عربية تقضي على كيانه وشخصيته المميزة.

كانت صلتي برياض قد ازدادت متانة بعد حادث الكولونيل فرلونغ، وصرنا نجتمع مرارا في الاسبوع الواحد.

واتصل بي رياض وفاتحني بأمر ترشيح نفسه عن الجنوب، فأشرت عليه أن ينضم الى لائحة احمد الاسعد التي كنت احد اعضائها، واستمهلته ريثما اتصل بالزعيم الوائلي واحدثه بالموضوع.

ولم يخف رياض علي ان النيابة ليست هدفه، بل الحكم. وان الحكم اذا وصل اليه، ليس هدف حياته بل وسيلته الى الغاية الاسمى التي نذر نفسه لها، وهي حرية بلاده واستقلالها.

دعوا لبنان وشانه

وكنت احاوره واقول له، بين هازل وجاد: انك يا رياض زعيم عربي كبير. واللبنانيون، وانا منهم، لا يقبلون ان يذوبوا في الاوقيانيوس العربي. فكيف توفق بين مبادئك وعقيدة اللبنانيين؟ فكان رحمه الله يقول لي: سترى اني اعمل لاستقلال لبنان وسيادته دون التطلع الى شيء آخر سوى زوال حكم الاجنبي عن لبنان. لقد قلت لاخواني السوريين اكثر من مرة: «دعوا لبنان وشأنه، فلبنان السيد المستقل يخدم القضية العربية الف مرة اكثر من لبنان الذائب في بلد عربي آخر.»

كنت احب رياض فانقلب حبي له احتراما واعجابا به.

ولم اتردد لحظة. بل ذهبت الى احمد الاسعد وعرضت عليه موضوع انضمام رياض الى لائحتنا. ولكني كنت اخشى ان تحاربنا السلطة الفرنسية. فالفرنسيون لا يزالون يحكمون لبنان على رغم النكسة التي اصابت بلادهم. لذلك علينا ان نتدارك هذا الخطر قبل كل شيء.»

اميل اده يسعى لانجاح رياض

وكانت بين رياض واميل اده صداقة. فاستعانه على الفرنسيين. واتصل اميل اده بأقطاب السلطة المنتدبة من المفوض السامي فما دون، ولقي منهم في بادئ الامر معارضة شديدة ضد رياض. وكان اميل اده قوي الحجة، فسأل الفرنسيين: ماذا تأخذون على رياض الصلح؟ قالوا: انه عدو فرنسا. فقال لهم: وهل هو صديق الانكليز او صنيعتهم؟ قالوا: كلا.

وانتهى الامر بأميل اده الى أن أعن جانب الفرنسيين وضمن عدم تدخلهم ضد رياض الصلح. ولم يبق مانع من انضمام رياض الى لائحة احمد الاسعد.

حكمة رياض واحتياطاته

وعرف رياض بما تم فارتاح ارتياحا شديدا، ولكن من عادته الحرص على ان يمهد لكل عمل يقدم عليه بجميع التدابير التي تحققه. فزارني بعد أيام قائلا: اريد منك خدمة أخرى.

— لعينيك... ماذا تريد؟

ـ ارجو منك ان تقنع احمد الاسعد بوجوب ضم عادل عسيران الى قائمته. وبمجيء عادل الى جانبنا تضعف كل معارضة تحاول منافستنا، وبهذا نضمن النجاح الاكيد.

ام اكن اجهل الصعوبات التي تعترض تحقيق هذا الطلب. فبين احمد الاسعد وعادل عسيران خصومة سياسية واجتماعية ليس بالامكان ازالتها بهذه البساطة. عرضت الامر على رياض فقال: جرب، وانا متأكد من نجاحك في هذا المسعى لما لك من المكانة والتقدير عند احمد الاسعد، ولما اعرفه عنك من المرونة الديبلوماسية وقوة الاقناع.

عرضت الامر على الاسعد فارتبك فيه... وتساءل وكأنه يسمعني ارتباكه: ما شأن ابن عسيران معنا؟ لم تريد ان نأتي به الينا ونسهل له النجاح؟

قلت: يا احمد بك، انت تعلم ان الفرنسيين قد قل سلطانهم، وخف نفوذهم، وان الانكليز صاروا الكل في الكل. وانت سيد العارفين بأن الناس مع الواقف.. واني اخشى ان يلعب اصحابنا لعبة انكليزية تهورنا. فلماذا لا نجلب صديقهم الى جانبنا ونأمن محاربتهم قائمتنا؟

ارتاح احمد بك لهذا التحليل، وقال بصوت عال رافعا اصبعه في الهواء:

بس عادل وحدو... ما حدا معو.
وأكدت بصوت اعلى وانا لا اصدق:
وحدو... وحدو... من كل بد.

الاتفاق مع عسيران

رجعت الى رياض ابشره فبدا عليه الانشراح وفاجأني قائلا:
عال.. عال... بارك الله فيك! ولكن يجب ان نقنع «ابن عسيران» (على غرار ما قاله الاسعد).
واستغربت طلبه... ماذا؟ هل عادل غير راض؟
ـ عادل لا يعرف شيئا عن مسعانا. ويجب ان نداوره كما داورنا الاسعد، وهنا الشطارة!
ـ ولكن علاقتي بعادل قليلة فلا دالة لي عليه.
ـ انك تتكلم بأسمك واسمي واسم احمد الاسعد. والموضوع لا يحتاج الى دالة فنحن نخدم مصلحته ومصلحتنا في وقت واحد.

ذهبت الى عادل عارضا عليه ان نتفق على قائمة واحدة حتى نتجنب تدخل الاجنبي، عدا عن الحزازات والمشاكل والتعب والشحناء...

فقطع حديثي بقوله: لا مانع عندي ولكن شرط المناصفة في اللائحة... نص بنص.

ـ معلوم: مناصفة... نص بنص.

ثم سألته: دخلك، رياض الصلح مش معك؟ ورشيد بيضون مش معك؟ وكاظم الخليل مش معك؟ ومارون كنعان مش معك؟ وانا مش معك؟

وصار عادل يهز رأسه موافقا بعد كل اسم... وقال فليكن... وتصافحنا.

رجعت الى رياض قائلا: شو بعد بدك، عادل قبل الائتلاف، والقصة هي كيت وكيت.

فقال: بارك الله فيك.

ولمعت عيناه بتأثير الارتياح. وبأسلوبه البارع أسرع بنشر الخبر فقطع طرق المنافسات والخصومات والمفاجآت.
وفازت اللائحة وانتخب رياض للمرة الاولى نائبا في المجلس النيابي اللبناني بعد ان اقصي عنه في الانتخاب السابق.

وبدأ عهد جديد في حياة رياض الصلح وفي حياة لبنان.

معركة طاحنة في جبل لبنان

اما المعركة الطاحنة فجرت في جبل لبنان حيث تصادم الخوريون والاديون صداما عنيفا. المعركة ترمي الى ابعد من النيابة، الى رئاسة الجمهورية.

بشارة الخوري وانصاره في كل منطقة خاضوا المعركة الانتخابية تحت شعار التحرر من النفوذ الفرنسي. واميل اده وانصاره خاضوها تحت شعار الحذر والتخوف من النفوذ البريطاني العربي.

ونشط سبيرس يشد ازر الخوريين وكاترو يساعد الاديين.
وجاءت نتائج المعركة في الظاهر مناصفة بين الفريقين.
وابتدأ المجلس النيابي الجديد يعد العدة لانتخاب رئيس للجمهورية.

مناورة من سبيرس تزحلق الفرنسيين

لكن وجود سبيرس ونشاطه الذي لم يعد خافيا على احد، وتضاؤل النفوذ الفرنسي بسرعة يوما بعد يوم، كل ذلك جعل كفة الشيخ بشارة الخوري المرشح لرئاسة الجمهورية راجحة على خصمه اميل اده كل الرجحان.

وأصر الفرنسيون على رفض وجود بشارة الخوري على رأس الدولة اللبنانية. وكذلك اصر اميل اده وحزبه واكثر الاكليروس المسيحي. فأرتأى سبيرس، وكانت مداورة بارعة منه لم يطلع عليها احدا، ان يكون مرشحه لرئاسة الجمهورية كميل شمعون. وسأل الشيخ بشارة ان ينسحب له، فوافق الشيخ على مضض...

وذهب من قال للفرنسيين ان كميل شمعون الموالي المتحمس للسياسة البريطانية، هو في الحقيقة مرشح سبيرس منذ البداية، وان ترشيح الشيخ بشاره لم يكن الا تمويها عليهم وتضليلا لهم، فجن جنونهم، وأكدوا انهم لن يقبلوا بمرشح سبيرس.

الاجتماع قبيل الانتخاب في منزلي

في تلك الساعات الحاسمة، دعي الشيخ بشاره الى المفوضية، واجتمع مؤيدوه من النواب في منزلي ونحن بانتظاره. وبعد ساعة لحق بنا الشيخ بشاره واخبرنا انه اجتمع بأميل اده في بيت موظف فرنسي كبير، وان منافسه طلب اليه الاتفاق على مرشح غير كميل شمعون يرضى عنه الفرنسيون والانكليز معا. فأجاب الشيخ بانه وعد بتأييد ترشيح كميل شمعون ولن يتراجع...

في صميم معركة الاستقلال

انتخاب الشيخ بشارة رئيسا للجمهورية

انطلت المداورة على الفرنسيين، فأرغوا وازبدوا وأسقط في يدهم، فقالوا باختيار اهون «الشرين». واعلنوا انهم يفضلون الشيخ بشاره على كميل شمعون في أي حال. والغريب في الامر ان مداورة سبيرس انطلت على كميل شمعون نفسه فنام ليلة واحدة، وهو يحسب ان الرئاسة قد اصبحت ملك يديه، ولم يدرك ان سبيرس على رغم كونه انكليزي المولد والنشأة والتربية قد تعلم، ولا شك، كثيرا من المناورات، والالاعيب، من اصدقائه الاقربين في لبنان.

وهكذا قبل الفرنسيون اخيرا بالشيخ بشاره وفضلوه على شمعون.

واجتمع مجلس النواب في ٢١ من ايلول ١٩٤٣، وانتخب الشيخ بشاره الخوري رئيسا للجمهورية باجماع اصوات النواب الحاضرين. وتغيب عن جلسة الانتخاب اميل اده والنواب: جورج عقل. احمد الحسيني. ايوب تابت. عبد الغني الخطيب. جميل تلحوق.

تولى الشيخ بشارة الخوري سدة الرئاسة وهو يعرف ان عبئها ثقيل، ومسؤوليته امام وطنه وامام التاريخ أثقل. وهو يدرك تمام الادراك ان فريقا كبيرا من اللبنانيين لا يثق به بل يعده صنيعة الانكليز والعرب، جاؤوا به، لا نكاية بالفرنسيين وحسب بل تنفيذا لمؤامرة تهدف الى اذابة لبنان في الكيان العربي. وصار الفرنسيون واميل اده وانصاره يروجون هذه الدعاية على نطاق واسع، فيؤخذ بها عدد كبير من المسيحيين في لبنان.

وعندما شرع الرئيس الجديد في استشارة النواب والسياسيين ورجال الحل والربط والنواب في امر تعيين اول حكومة دستورية في عهد جديد، سمي العهد الاستقلالي الاول، برز اسم رياض الصلح بروزا ساطعا، اذ كانت شخصيته من القوة واللمعان بحيث فرضته فرضا على الجميع.

وللحقيقة والتاريخ أثبت هنا أن سبيرس، ممثل الانكليز، أبدى في بادئ الأمر كثيراً من التحفظ بشأن ترشيح رياض لتشكيل الحكومة، وكان رأيه، بالاتفاق مع عبد الحميد كرامي، أن يكون صائب سلام رئيسا. اما الفرنسيون فكانوا ضد وصول رياض الى الحكم.

إذن، «الحليفان» اللدودان الانكليزي والفرنسي اتفقا على الوقوف من رياض موقف المتحفظ والمعارض. لماذا؟

في رأيي ان الانكليز كانوا يخشون أن لا يماشيهم رياض في خططهم السياسية بالنسبة الى لبنان والمنطقة العربية. وان الفرنسيين يخافون على الانتداب من حكومة يرئسها رياض.

وقد اثبتت الاحداث ان خوف الانكليز والفرنسيين كان في محله.

اول وزارة استقلالية

واخيرا كلف الرئيس النائب رياض الصلح تأليف الحكومة. فألفها سداسية منه ومن حبيب ابي شهلا وكميل شمعون وسليم تقلا ومجيد ارسلان وعادل عسيران، وشرع على الفور بتعبئة جميع القوى الوطنية لمعركة حياته، معركة الاستقلال.

عرف رياض ان ظروف الحرب بالاضافة الى ظروف لبنان الداخلية، مؤاتية للعمل الذي عاهد نفسه عليه طول حياته. فهو يحكم بالتعاون مع رئيس عميق الجذور في الارض اللبنانية، واسع الثقافة، عامر الصدر بوطنية وايمان لا شك فيهما، حكيم، عاقل.

وعرف رياض وشعر بأن الشيخ بشارة الخوري سيكون ظهيره وسنده في كفاحه المرير الذي هو مقدم عليه. فمضى منذ الساعة الاولى التي تسلم فيها الحكم يبشر بالاستقلال ويخطط لتحقيقه.

وبدأ يتصرف تصرف الحاكم المستقل في بلد سيد نفسه كل السيادة.

وبدأت السلطة المنتدبة تحاول تارة بالحسنى، وتارة بالتهديد، ان تثني رياض وحكومته، ومن ورائهما الشيخ الرئيس، عن تصرفاتهم الاستقلالية، وهم لا ينثنون بل يسيرون قدما نحو الهدف المنشود: الاستقلال التام.

وخطت الحكومة الخطوة العملية الاولى في طريق الاستقلال. فأكدت في البيان الوزاري الذي القاه رياض امام مجلس النواب في ٧ من

تشرين الاول ١٩٤٣، أن لبنان مصمم على نيل استقلاله التام وسيادته الكاملة مهما كلف الامر. وانه يأبى ان يكون للاستعمار مقرا، ولاستعمار شقيقاته العربيات ممرا.

سياسة استقلالية كاملة

كما اكد ان لبنان ذو وجه عربي. الى آخر ما ورد في ذلك البيان التاريخي من تأكيد وتصميم على التحرر، قابلهما الشعب اللبناني بكثرته الساحقة بحماسة منقطعة النظير، وقابلتهما السلطة المنتدبة بالاحتجاج والمعارضة الشديدين.

قال رياض: «لبنان ذو وجه عربي». ولم يقل «لبنان بلد عربي»، بل اكتفى بالتعبير الخفيف. ذلك لكي لا يغذي حملة الفرنسيين التي راحت تؤكد للبنانيين القلقين على مستقبل بلدهم ان بشارة الخوري ورياض الصلح ومن ورائهما الانكليز قد «باعوا لبنان للعرب».

ونقطة اخرى احب ان اقف عندها حرصا مني على الامانة التاريخية، وهي مسألة الميثاق الوطني المتصلة اتصالا وثيقا بعروبة لبنان او عدم عروبته، وعلاقته بسائر الاقطار العربية.

كيف وجد هذا الميثاق؟ ومن أوجده؟ وقبل كل شيء ما هو الميثاق الوطني بالضبط؟

ما هو الميثاق الوطني

الميثاق الوطني هو دستور غير مكتوب. إنه عهد شرف بين الفريقين

الذين يتألف منهما شعب لبنان: الفريق المسيحي والفريق المسلم. وهو ميثاق يعود تاريخه الى الاحداث التي أرويها الآن من تاريخ لبنان والتي وقعت في العام ١٩٤٣.

والذي أوحى بالميثاق الوطني، هو الشعب اللبناني بأسره.

ولم يصنعه رجل واحد او رجال معدودون. بل صنعه اللبنانيون جميعا ايمانا منهم بانه المحور الذي يلتقون حوله والسبيل الوحيد الى الهدف الاسمى: الاستقلال.

ولكن الميثاق الوطني جسده ورمز اليه رجلان هما: بشارة الخوري المسيحي الماروني، ورياض الصلح المسلم السني.

بموجب هذا الميثاق أو هذا الدستور غير المكتوب، التزم كل من الفريقين اللذين يتألف منهما الشعب اللبناني بأمور، وتنازل عن امور.

فاما المسيحيون فقد التزموا بفكرة عروبة لبنان، وتخلوا عن فكرة حماية او انتداب دولة اجنبية عليه.

واما المسلمون فقد تعهدوا بالقول بلبنان وطنا نهائيا في حدوده الحالية الطبيعية، لا جزءا من «الامة العربية» وتخلوا خاصة عن فكرة الوحدة السورية.

وجوهر الميثاق الوطني، في رأيي المتواضع، وهدفه السامي، وابعاده، ومراميه، هي قبل كل شيء ان يكون ولاء اللبنانيين، محمديين ومسيحيين، لهذه البقعة من الارض التي اسمها لبنان، لا لسواها. ان يكون اخلاصهم لها وايمانهم بها، لا بغيرها، وتطلعهم اليها لا الى سواها من بلدان عربية او غربية، لا عبر الصحراء، ولا خلف البحر.

واخذ رياض الصلح يردد على مسامع الجميع في اثناء المناقشات الطويلة التي كانت تدور حول التفاهم على ميثاق يلتقي عنده الجميع قوله: «وعدنا بان نتفق على ان يكون رائدنا جميعا: «لا وحدة سورية ولا انتداب».

ومرة قال له احدهم:

«ولكن فرنسا بعيدة تفصلها عنا مسافة عدة الآف من الكيلومترات. اما سورية فهي على حدودنا».

فاجاب رياض:
«يجب ان نكرس اتفاقنا هذا باخلاص احدنا للاخر. ولكي ازيدك اطمئنانا فنحن مستعدون للتعهد بان يكون رئيس الدولة دائما من الطائفة المارونية، واحترام نسبة التمثيل النيابي الحالي بين المسيحيين والمسلمين. اليس هذان الضمانان كافيين لاشاعة الطمأنينة في نفوسكم»؟.

وهكذا كان، واتفق الجميع على هذه الاسس.

انقلاب الى اتفاق على غنائم واسلاب

الميثاق الوطني جاء بعد مخاض طويل. ولم يكن من صنع رجل واحد. فآباؤه كثيرون. اما مدعو ابوته فلا يحصيهم عدد.

واكثر ما يؤلمني، ويحز في نفسي ان هذا الميثاق النقي الجوهر،

السامي الاهداف، قد انقلب في أقل من ربع قرن الى اتفاق على اقتسام الوظائف، والغنائم.

كان الميثاق عهد شرف بين بناة الاستقلال على الولاء للبنان والايمان به وطنا دون سواه، فشوهه بعض الحاكمين وجعلوه أداة للاستغلال، كما جعله آخرون أساسا لتوزيع المنافع على الطوائف.

تعديل الدستور ثورة حقيقية

خطت حكومة رياض الصلح خطوتها الثانية فوضعت مشروعا بتعديل الدستور، وحذف جميع النصوص منه التي ورد فيها ذكر الانتداب..وأرسلت المشروع الى مجلس النواب طالبة إقراره.

ان تعديل الدستور هذا التعديل ثورة حقيقية وان تكن ثورة بيضاء.

وطبعا لم يقف ممثل الانتداب مكتوف اليدين. بل تحرك بسرعة وتحركت معه جميع اجهزته. عقد المؤتمرات الصحفية. وارسل اكثر من مذكرة رسمية الى الحكومة اللبنانية يحتج فيها على انفرادها بتعديل الدستور مدعيا انها بذلك تخالف صك الانتداب!

وهنا تجلى اخلاص الشيخ بشاره وصموده. فقد اخذ ممثل الانتداب يطرق بابه كل ساعة فيحيله الشيخ الرئيس على رياض الصلح ويقول: انني رئيس دستوري احكم بواسطة حكومة مسؤولة امام البرلمان. فاذهبوا الى رئيسها. وكان رياض بدوره صامدا كالصخر لا يتراجع قيد شعرة عن موقفه.

في بادئ الامر، حاول ممثل الانتداب اخذ الامور بالحسنى. وقال للحكومة اللبنانية ان فرنسا وعدت لبنان بالاستقلال واستبدال الانتداب بمعاهدة صداقة وتعاون بينها وبين لبنان الذي تربطه بها علاقات صداقة عريقة. وانها مستعدة للوفاء بهذا الوعد اذا سحب مشروع تعديل الدستور من المجلس.

ولما اصطدم «هللو» ممثل الانتداب برفض قاطع من جانب الرئيس وحكومته، انتقل الى الوعيد والتهديد. وطار الى الجزائر مقر الجنرال ديغول وحكومته لاستشارته وتلقي تعليماته.

جلسة نيابية تاريخية

وفي ٨ من تشرين الثاني ١٩٤٣، اجتمع مجلس النواب وعدل الدستور في جلسة تاريخية وقف فيها النواب والنظارة منشدين «كلنا للوطن».

وطهر الدستور من كل اثر للانتداب.

ومن ٨ تشرين الثاني الى ١١ منه، ساد لبنان جو مشحون بالتوتر والقلق والترقب.

وكان من عادة المفوضية العليا ان تحتفل كل عام في ١١ من تشرين الثاني بذكرى هدنة الحرب العالمية الاولى.

وكانت الدعوات الى هذا الاحتفال، قد وزعت على رئيس الجمهورية

واعضاء الحكومة والنواب ورجال الدين وغيرهم.

لكن المفوضية العليا أبلغت الحكومة اللبنانية قبيل الموعد المضروب ان الاحتفال بذكرى الهدنة قد الغي. فأوجست الحكومة خوفا من هذا الالغاء وساد القلق جميع الاوساط.

في ذلك اليوم (١٠ من ت ١) دعا الجنرال سبيرس الملك اليوغوسلافي بطرس الثاني الهارب من النازيين الى العشاء في السفارة البريطانية، ودعا اليه وزير خارجية لبنان وممثلي السلطة الفرنسية.

وقبل دخول قاعة الطعام همس سليم تقلا في اذن الجنرال سبيرس بان الحكومة اللبنانية قلقة من شر ينتويه الفرنسيون. وبعد العشاء اختلى صاحب الدعوة بضيفه مسيو هللو وسأله عن حقيقة ما يقال من انه عازم على تدبير قاس ضد الحكومة، فنفى المندوب الفرنسي كل ما يشاع في هذا الصدد، وأقسم بشرفه ان ليس في عزمه أي شيء مما يقال.... غير ان تطمينات هللو لم تعش الا بضع ساعات.

راشيا وبشامون

في فجر الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٤٣، اقتحم الجنود السنغاليون منازل رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة وبعض الوزراء واعتقلوا الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح والوزراء سليم تقلا وكميل شمعون وعادل عسيران والنائب عبد الحميد كرامي ونقلوهم الى قلعة راشيا.

اما حبيب ابو شهلا نائب رئيس الوزراء، والامير مجيد ارسلان وزير الدفاع الوطني، فلم يعتقلا بل ظلا طليقين. ولم يدر احد لماذا.

واستيقظ الناس صباحا ليسمعوا محطة الاذاعة تعلن نبأ تعليق الدستور، وتعطيل الحياة النيابية، وتعيين اميل اده رئيسا للجمهورية.

وكانت هزة مادت بها البلاد.

ومما يؤسف له ان اميل اده قبل الرئاسة. إذ أكد له اركان المفوضية أن بشارة الخوري ورياض الصلح واصحابهما يريدون ان يستبدلوا بالانتداب الفرنسي انتدابا بريطانيا أو عربيا. ولقيت هذه التهمة هوى في نفس اميل اده الذي كان يكره سياسة بريطانيا، ولا يضمر للدول العربية إلا تخوفا وقلقا على لبنان.

التظاهرات تعم البلاد

انتشر نبأ اعتقال الرئيس وأركان حكومته في كل أنحاء لبنان، وعمتها التظاهرات وأقفلت المدن ونزل الناس الى الشوارع هاتفين بحياة المعتقلين وبسقوط السلطة التي اعتدت على الدستور وسقوط كل من يتعاون معها.

وتحولت العاصمة الى ساحة حرب يحتلها العسكر الافريقي. ونصبت المدافع على سطوح البنايات وعند مفترق الشوارع الرئيسية مهددة جماهير الناس الذين بدأوا يتظاهرون في كل مكان ولا سيما قرب قصر الرئاسة في محلة القنطاري وفي شوارع رأس النبع حيث دار رياض الصلح.

وحاولت السلطة ان تدق اسفينا بين الطوائف، فسعت الى فتح المخازن في محلة الجميزة وجميع اصحابها من الارمن والمسيحيين. فتصدى لها بيار الجميل وشباب الكتائب وأفسدوا على السلطة خطتها. واشتبك بيار الجميل مع الجنود السود وجرح بطعنة حربة، واقتيد هو والياس ربابي الى السجن. فأدى هذا الحادث خدمة كبرى الى قضية الوحدة الوطنية، من حيث لا يريد عمال السلطة وعملاؤها. واصبحت منظمة النجادة تعمل يدا بيد مع الكتائب اللبنانية.

الى المجلس رغم السلطة

كان علينا نحن النواب، وعلى الوزيرين الطليقين حبيب ابو شهلا ومجيد ارسلان، ان نتخذ مقررات سريعة لمواجهة الحالة. ووصل عدد كبير منا الى دار الشيخ الرئيس، واختلط بجماهير الشعب الوافدة من كل مكان، وقد جاءت تستطلع الاخبار وتعرب عن قلقها على مصير المعتقلين، وعن سخطها على العمل التعسفي الذي اقترفته سلطات الانتداب.

وبعد التشاور في الامر، استقر الرأي على أن يعقد مجلس النواب جلسة في الحال تحت انف السلطة العسكرية وبصرها، وعلى رغم تدابيرها العسكرية الشديدة. فأصدر صبري حماده رئيس المجلس تعليماته بهذا المعنى.

وانصرف خليل تقي الدين مدير المجلس العام، وبعض موظفيه الموجودين في القصر، الى الاتصال بأكبر عدد من النواب ودعوتهم الى النزول الى البرلمان بسرعة. ثم سبقهم هو والموظفون الى المجلس، قبل ان تدري السلطة بأمر الاجتماع. وكان أول الذين استطاعوا الوصول الى البرلمان الرئيس صبري حماده والنواب صائب سلام، هنري فرعون، محمد الفضل، مارون كنعان، رشيد بيضون. وكان عدد كبير من النواب في طريقهم الى المجلس، لكنهم لم يستطعوا ذلك، اذ لم تمض دقائق حتى طوق العسكر الافريقي دار البرلمان، وقطع كل اتصال بينها وبين الخارج.

وحدث حادث طريف في هذه الاثناء. فقد وصل سعدي المنلا نائب طرابلس، وحاول ان يدخل المجلس من الباب الكبير فمنعه الجنود. فارتد الى الوراء، وكانت ساحة النجمة تعج بالجماهير الصاخبة، فتلقته ورفعته على الاكتاف، وانبرى الرياضي الوطني حسين سجعان وحمله بين يديه، وقذف به من احدى النوافذ الى الداخل، فتلقاه زملاؤه النواب. وصار عدد النواب المجتمعين في البرلمان سبعة بما فيهم الرئيس حماده.

العلم الجديد

وفي داخل المجلس بدأ النواب والموظفون يعملون بسرعة، فرسم النائبان هنري فرعون وسعدي المنلا الوان العلم اللبناني الجديد: احمر — ابيض — احمر — والارزة في وسط الابيض. فوافق عليه جميع النواب، وأقسموا على ان تشكل هذه الالوان علم لبنان الغد، لبنان السيد المستقل.

ثم شرع الحاضرون في وضع مذكرة الى ممثلي الدول العربية،

والدول الكبرى، والدول الصديقة. فوضعت المذكرة. وضربت على الآلة الكاتبة. وخلاصتها احتجاج صارخ على الاعمال التعسفية التي اقدمت عليها السلطة المنتدبة.

وبعد ان عددت المذكرة الاعمال المنكرة التي اقترفها ممثل الانتداب، خلصت الى القول أن نواب الشعب يعتبرون أن الدستور لا يزال قائما، وأن حكومة لبنان الشرعية الوحيدة هي حكومة رياض الصلح، وأن رئيس الجمهورية هو الشيخ بشارة الخوري لا سواه.

وفجأة اقتحم دار النيابة بضعة عشر جنديا، بقيادة ضابط فرنسي، شاهرين البنادق وفي رؤوسها الحراب، واخرجوا النواب والموظفين بالقوة، ودفعوهم دفعا بأعقاب البنادق الى خارج الندوة، فتلقاهم الشعب بالهتاف، وسار وراءهم في تظاهرة رائعة ارتفعت فيها اصوات الوف الحناجر هاتفة: «بدنا بشارة. بدنا رياض».

ثلاث جلسات

وصلت التظاهرة الى دار الشيخ بشارة، حيث كنا لا نزال نحن النواب والوزيران الطليقان نتشاور بعد ان عجزنا عن الوصول الى البرلمان. فتقرر ان يجتمع المجلس مهما كلف الامر بأكثرية اعضائه، واتفقنا على ان نجتمع في دار آل سلام في المصيطبة.

وهكذا كان. فعقد المجلس جلستين في دار آل سلام. الاولى يوم ١١ تشرين الثاني. والثانية يوم ١٢ منه بحضور ٣٨ نائبا ـ أي اكثرية المجلس المطلقة.

اسفرت هذه الجلسات عن اتخاذ مقررات ترمي الى هدفين: الاول

عدم الاعتراف بالاعمال التي قام بها ممثل الانتداب صباح ١١ من تشرين الاول، واستنكارها، واعتبارها عدوانا على لبنان ودستوره واركان حكومته، والآخر اعتبار الحياة الدستورية قائمة في لبنان، مستمرة بمؤسساتها الشرعية وممثليها الذين اختارهم الشعب وفي طليعتهم الاقطاب المعتقلون. ومما جاء فيها:

«لما كانت المادة ٦٢ من الدستور تنص على انه في حالة عدم تمكن رئيس الجمهورية من ممارسة عمله لسبب من الاسباب، فان مجلس الوزراء يقوم مقامه. لذلك فان النواب المجتمعين الذين يؤلفون اكثرية المجلس المطلقة، يعتبرون ان حبيب ابو شهلا نائب رئيس الوزراء ووزير العدل ومجيد ارسلان، وزير الدفاع الوطني، يؤلفان مجلس وزراء يقوم مقام رئيس الجمهورية، ويمارس اعماله عملا بأحكام الدستور، ويمنحونهما الثقة».

هذه هي خلاصة المقررات التي اشتملت عليها المذكرة، وقد درسها النواب الحاضرون وناقشوها طويلا وقرروا ابلاغها الى ممثلي الدول جميعا.

وكان قد ورد في مشروع المذكرة عبارة تدين اميل اده وتتهمه بالخيانة. فوقفت أنا واعترضت عليها وقلت: «لا اقبل بأن أوقع على المذكرة اذا بقيت فيها هذه العبارة. بل اطلب حذفها في الحال. اذ لا يجوز لأحد ان يدين رجلا سياسيا كبيرا بهذه البساطة وهذه السرعة، قبل درس الدوافع التي حملته على العمل الذي اقدم عليه».
وبعد نقاش قصير انضمت الاكثرية الى رأيي وحذفت العبارة.

رحم الله ميشال زكور

لقد حقق نواب لبنان عام ١٩٤٣، الحلم الذي راود مخيلة النائب الوطني الشاب ميشال زكور في ٩ من نوار ١٩٣٢، يوم علق المفوض السامي الدستور، وعطل الحياة النيابية، وطرد النواب من المجلس، فقد

عمل النواب برأي زميلهم ميشال زكور الذي لم يسمعه يومذاك أحد، فتحدوا ممثل الانتداب وقواته، وقراراته، وحسبوها انها لم تكن.

ان البذرة الصالحة التي القاها النائب ميشال زكور صباح ٩ من أيار ١٩٣٢، وقعت في الارض اللبنانية الطيبة فحضنتها الارض وغذتها وبعثتها، بعد احدى عشرة سنة، شجرة ذات اغصان وجذور. ارزة خضراء محررة من الانتداب وكل اثر من آثار العبودية والاستعمار!

بقي على مجلس الوزراء الجديد القائم بأعمال رئيس الجمهورية المعتقل ان يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه، وهي استمرار الحكم الشرعي في البلاد.

ورأى النواب المجتمعون ان يظل رئيس المجلس صبري حماده بجانب الحكومة الشرعية، لتأمين الصلة بين السلطتين التنفيذيـة والتشريعية. فوافق على الفور، بعد ان طلب من خليل تقي الدين مدير عام المجلس النيابي، ان يعاون مجلس الوزراء كمستشار للحكومة الشرعية، بالاضافة الى وظيفته الاصلية.

الى بشامون

وأخذت تدابير السلطة العسكرية تزداد شدة كلما مرت الساعات. وقبل ان ينفرط عقد النواب أسر حبيب ابو شهلا في أذني انه من الحكمة ان تغادر الحكومة العاصمة الى احدى قرى الجبل حيث تعتصم. وسألني: هل ترافقني يا يوسف؟

قلت: كنت افعل بكل سرور، لولا انني مسؤول عن تأمين حاجة العاصمة من المياه بوصفي مديرا عاما للشركة.

وتواعدنا على ان نظل على اتصال دائم.

وفي مساء اليوم عينه، ١٢ من تشرين الثاني، ذهب حبيب ابو شهلا

ومجيد ارسلان وصبري حماده وخليل تقي الدين الى قرية بشامون حيث اعتصموا و «طرحوا الصوت» على القرى المجاورة، كما هي العادة في الجبل اللبناني، فلبى نداءهم عدة مئات من الشبان تألف منهم «الحرس الوطني» بقيادة نعيم مغبغب ومنير تقي الدين.

واصبحت بشامون مقرا للحكومة الشرعية ورمزا للمقاومة.

وكنت اذهب الى بشامون باستمرار، كما يذهب عدد كبير من النواب والسياسيين والشباب، فنطلع اخواننا فيها على آخر التطورات ونتشاور في جميع الامور السياسية ونتبادل الآراء.

لبنان كله يغلي غليانا

شغلت الازمة اللبنانية ـ الفرنسية الدول الحليفـة جميعـا. وبالطبع كان اكثر الدول نشاطا وانشغالا بها فرنسا وبريطانيا.

وما كانت الدول لتعير الاحداث اللبنانية الاهمية التي تستحقها، لو لم يغمر لبنان جو ثورة حقيقية. فالعاصمة بيروت صارت تغلي غليانا، وفي كل ساعة تقع مصادمات بين الاهلين المتظاهرين وقوة الجيش الفرنسي التي تحاول تفريق التظاهرات، فيسقط الجرحى والقتلى. ونزلت النساء الى الشارع يتظاهرن بحماسة منقطعة النظير، ويعرضـن صدورهن لحراب الافريقيين بجراة وشجاعة. وهكذا كانت الحالة في جميع المدن والقرى اللبنانية.

وتجلت وحدة اللبنانيين بأجلى مظاهرها. وعجـزت السلطـة الفرنسية عجزا تاما عن تطبيق سياسة «فرق تسد». وقامت منظمات الشباب بدور وطني هام في ابقاء جذور الثورة متقدة. وكذلك طلاب

المدارس. ورجال الدين. والاحزاب الوطنية، ونقابات العمال، والتجار، وجميع طبقات الشعب.

ويوم السبت مساء في ١٢ من تشرين الثاني وصل بيروت مستر كايزي وزير الدولة البريطانية المقيم في القاهرة، لاستقصاء المعلومات والوقوف على حقيقة الحالة، واتصل بالعديد من رجال السياسة.

وكنت في منزلي عندما اتصل بي الكولونيل فرلونغ وابلغني ان الوزير كايزي يود الاجتماع بي في السفارة البريطانية، وان سيارة عسكرية بريطانية ستحضر في المساء لتنقلني اليه بسبب قرار منع التجول. وفي الموعد المضروب اجتمعت بالوزير كايزي، فسألني عن الوضع السياسي عامة، وعن الاسباب التي حملت ممثل الانتداب على اعتقال اركان الحكومة اللبنانية وتعليق الدستور، كما سألني عن رأيي في حل الأزمة. فأجبته ان مجلس النواب، وانا احد اعضائه، كان على حق في تعديل الدستور وتطهيره من المواد التي تنص على وجود الانتداب. وان السلطة الفرنسية باقدامها على توقيف اركان الحكومة وتعطيل الحياة النيابية، قد اقترفت عدوانا على لبنان الممثل بحكومة شرعية انبثقت عن انتخابات حرة. وأضفت: ان السلطة الفرنسية استخدمت جيشها الذي اضفناه في بلادنا للتنكيل بنا وبحرياتنا، ولا تزال تستخدمه ليفرض علينا الذل والعار، ونحن اصدقاء الحلفاء ومؤيدوهم في قتالهم المرير ضد المانيا.

وكان الجنرال سبيرس حاضرا هذا الاجتماع.

وعاد كايزي الى القاهرة وفي جعبته أحاديث أجراها مع عدد من السياسيين لا يخرج فحواها عن حديثي معه.

وصول كاترو موفدا من ديغول

وبعد ثلاثة ايام وصل الجنرال كاترو موفدا من الجنرال ديغول، مزودا منه ومن حكومة التحرر، بصلاحيات مطلقة لحل الازمة.

وادرك الجميع منذ وصوله الى بيروت انه لم يكن موافقا على عمل هللو وزبانيته في المفوضية العليا، فقد رفض النزول في قصر الصنوبر واستأجر دارا له في حي سرسق.

واني اورد في ما يلي ما جاء في مذكرات كاترو عن هذه الاحداث:

«وصلت الى بيروت في السادس عشر من تشرين الثاني صباحا واستقبلني في المطار المسيو هللو محاطا بمعاونيه المدنيين والعسكريين، ومعظمهم كانوا من معاوني، لكنهم لا ينظرون الى عودتي بعين الرضى، بقطع النظر عن عواطفهم الشخصية نحوي، لأنهم بأغلبهم كانوا يؤيدون سياسة هللو، ومثلهم كانت الجالية الفرنسية على وجه الاجمال. ولكن هواجسهم لم تزعجني لأن وضعهم سهل التفسير: فهؤلاء الرجال جميعا يحنون الى الانتداب والى السلطة. ويصعب عليهم ان تنزع منهم الامتيازات التي ينعمون بها لتنتقل الى اللبنانيين. ناهيك بالاسلوب المتغطرس الذي اعتمدته حكومة رياض الصلح في تغييرها نظام الحكم، مما ولد في انفسهم المًا شديدا، وشعروا شعور مسيو هللو بأن هذا العمل تحد لفرنسا، يجب ان يرد عليه بكل حزم وشدة. وقد اطلعوا مباشرة، او بالواسطة، على مداورات سبيرس الخبيثة، وعلموا انه وراء الازمة، فلم يغفروا له هذا. صار كرههم لبريطانيا

يسيطر عليهم، وصارت العصبية والعاطفة تعميان بصرهم وتحجبان عنه الوقائع ومتطلبات الساعة.

الا ان فئة قليلة من الفرنسيين، نظرت وحدها الى الواقع بموضوعية ورباطة جأش، ولم يجرفها التيار. فقد قدرت هذه الاقلية الاخطار المحدقة بالمصالح الفرنسية، من جراء تصرف المندوب السامي.

صافحت هؤلاء المستقبلين جميعا، واعرضت عن النزول في قصر الصنوبر، لعلمي ان ليس من لبناني يرضى بالمجيء اليه، فاتجهت الى المنزل الذي كنت قد طلبت ان يعدوه لي في وسط المدينة.

واجتزت مدينة حزينة مخازنها موصدة الابواب، ولا تتحرك فيها سوى تنقلات قوى الامن، تجوب الشوارع ذهابا وايابا، وعلى الجدران صور الجنرال ديغول ممزقة مشوهة، بينما بقيت صور ونستون تشرشل سالمة آمنة.

ولست بحاجة الى تفسير هذا التناقض الظاهر، فهو يفسر واقع الحال وحقيقة الصراع.

وحالا بدأت مشاوراتي. وما لبثت ان كونت صورة واضحة عن حقيقة الوضع: فعلمت ان اعمال المسيو هللو، وخاصة اعتقال رئيس الدولة واعضاء الحكومة قد أحسها اللبنانيون، بمختلف طوائفهم، انها امتهان لكرامتهم الوطنية. فاللبنانيون الذين تقسمهم النزعات الطائفية، شعروا بتضامنهم مع رئيس جمهوريتهم ومؤسساتهم الدستورية على اثر تلك الاهانة.

وبليلة واحدة حققت فرنسا، ولكن على حسابها، هذا الشعور الوطني بالوحدة بين جميع اللبنانيين، وهي وحدة طالما سعت اليها فرنسا خلال عشرين سنة لتجعل منها ركيزة لوجودها في الشرق.

ان لبنان اصبح امة ترفض الخضوع للقوة، وتتمسك شديد التمسك باستقلالها. وفرنسا بتعديها على هذا الاستقلال فقدت مركزها المرموق الذي كانت تحتله في كثير من القلوب، وصارت مغضوبا عليها. بينما ارتفعت اسهم بريطانيا لانها دعمته. وهكذا ظهر هللو في وجه «مستعمر» وسبيرس في وجه «محرر»!

عطف الرأي العام على معتقلي راشيا، وانطلق يطالب باعادتهم الى الحكم. وكذلك أيد الوزيرين اللبنانيين غير المعتقلين، اللذين اعتكفا في منطقة الشوف الدرزية معلنين انهما وحدهما يمثلان الحكومة الشرعية. وقد بعثا يدعوان المجلس الذي حله هللو الى الانعقاد. وكان سبيرس قد اعترف بالوزيرين وبشرعية حكومتهما وحدها.

ان هذا الرأي العام نفسه ابتعد عن اميل اده الذي عين رئيسا للدولة، بقرار من المندوب العام، فلم يستطع تأليف حكومة، بل انه عجز عن جمع بعض الموظفين لتأليف مجلس مديرين يحل محل الحكومة. ذلك لأن اللبنانيين صاروا يتهاربون منه. ولما زرت اميل اده في السراية وجدته وحيدا في مكان مقفر تماما، ومن العادة انه يعج بجمهور الناس طالبي الحاجات....»

(الجنرال كاترو: «في معركة البحر المتوسط»).

من مذكرات تشرشل عن الأزمة اللبنانية.

قول تشرشل في مذكراته:

«ان انتخابات تموز وآب عام ١٩٤٣، اعطت للبلدين السوري واللبناني اكثرية ساحقة من العناصر الوطنية المتطرفة، تلك الاكثرية التي طالبت بتعديل الدستور الذي فرضه الانتداب.

وجرى على اثر ذلك، الدم في شوارع بيروت، الأمر الذي أدى الى قلق حكومة بريطانيا.

وكان عمل الفرنسيين العنيف يخالف تمام المخالفة ميثاق الاطلسي، ويجعل البلاد العربية بأسرها تتساءل: كيف يمكن لفرنسا ان تفسر رغبتها في اجلاء الاجنبي عن اراضيها، وهي تبشر بالاستعمار في غير بلادها؟

وفي رأيي انه يجب على اميركا وانكلترة ان تتدخلا بحزم وباتفاق تام لحل هذه الازمة.

وان شدة وقساوة حوادث الشرق هذه، خلقت لنا الفرصة السانحة امام الرأي العام العالمي، لنبحث جديا أمر ديغول ولنوقفه عند حده.

وبرأيي، يجب اطلاق سراح رئيس الجمهورية وجميع

المعتقلين واعادتهم الى مراكزهم.

فاذا رفض ديغول هذا الحل، نبادر الى الغاء اعترافنا باللجنة الوطنية الفرنسية، ونوقف تسليح القوى العسكرية الفرنسية الموجودة في افريقية.

وقد اصدرت اوامري الى الجنرال ويلسن، ان يكون على استعداد لفرض النظام والهدوء في لبنان.

وقد تركت هذه الحوادث اثرا بعيدا في علاقاتنا مع اللجنة الفرنسية ومع ديغول.»

وأول ما فعله كاترو انه اتصل بحكومة المقاومة في بشامون. فأرسل اليها خلال ثلاثة ايام رسولين. الاول السيد بيار بار مندوب المفوض السامي لدى الحكومة اللبنانية، وكان معروفا بصداقته للشيخ بشارة، والثاني الجنرال اوليفه روجيه حاكم دمشق العسكري.

كلا الرسولين اجتمع بحبيب ابو شهلا ومجيد ارسلان وصبري حماده وخليل تقي الدين في منزل يقع على مدخل بشامون في قرية عين عنوب. وكلا الرسولين تلقى من حكومة المقاومة جوابا واحدا هو: نحن لا نقبل بأية مفاوضة، إلا بعد عودة المعتقلين احرارا الى مراكزهم في سراية الحكومة وعودة الدستور والمجلس. وعند ذلك تمكن المفاوضة معهم ومعنا.

ومما تجدر الاشارة اليه ان الجنرال اوليفه روجيه بلغ به التأثر، الى درجة انه جهش بالبكاء كالاطفال. وعند ذلك خانته الفاظه فنطق بما كان يجول في خاطر الفرنسيين اذ قال: نحن نريد حلا للأزمة. ولكننا لا

نريده حلا لبنانيا ـ انكليزيا. بل حلا لبنانيا ـ فرنسيا. فكان جواب حبيب ابو شهلا عند ذاك: وهل كان المندوب السامي الذي اعتقل حكومتنا وعلق دستورنا انكليزيا ام فرنسيا؟

بعد ذلك امر كاترو باخراج الشيخ بشارة من معتقله، والاتيان به اليه ليفاوضه شخصيا. واجتمع السجان بالسجين. وعرض ممثل الجنرال ديغول على الشيخ الرئيس ان يطلق سراحه على الفور، شرط ان يتخلى عن رياض الصلح ولا يبقيه على رأس الحكومة. وتعهد كاترو للشيخ بشارة اذا وافق على هذا الحل، باعادة الدستور وعودة الحياة السياسية في لبنان الى ما كانت عليه قبل الاعتقال.

لكن الشيخ بشارة رفض عرض كاترو، وأجابه انه متضامن مع رياض وحكومته، ولن يتخلى عنه في أي حال من الأحوال.

اعيد الشيخ الرئيس الى قلعة راشيا، وجيء برياض الصلح الى كاترو، بناء على طلب الجنرال. ووعده كاترو بأن يطلق سراحه وسراح رفاقه اذا استقال من رئاسة الحكومة، فرفض رياض وأعيد الى القلعة.

وكان الضغط البريطاني يشتد على حكومة ديغول يوما بعد يوم. ولبنان في ثورة واضراب. والشعب صامد صمود الصخر. وكذلك المعتقلون والحكومة الشرعية. ولم يجد الفرنسيون ثغرة في صفوف اللبنانيين ينفذون منها.

عندئذ اصدر الجنرال كاترو امره باطلاق سراح المعتقلين، والغاء جميع التدابير والقرارات التي اتخذها هللو.

واصبح يوم ٢٢ تشرين الثاني عيد لبنان الوطني.

اميل اده

بعد عودة الدستور طرحت فكرة محاسبة اميل اده، وفصله عن المجلس، واعتبار تعاونه مع هللو خيانة وطنية، وتجريده من الحقوق السياسية.

وكان وراء هذه الفكرة الجنرال سبيرس والشيخ بشارة الخوري. ولكن رياض الصلح لم يتجاوب معهما لاكثر من سبب. وفي طليعة هذه الاسباب، ان اميل اده يمثل في لبنان تيارا سياسيا قويا. وان رياض كانت تربطه به صداقة. ثم انه على اثر اطلاق سراحه وعودته من راشيا استقبل، في من استقبل من مهنئين، المطران مبارك، وبيار الجميل، اللذين طلبا الى رياض أن لا يسمح باتخاذ أي تدبير بحق اده يمس كرامته، ويفهم منه الشك في وطنيته اللبنانية. فوعدهما رياض بذلك.

غير ان رياض وقع تحت ضغط شديد من الشيخ بشارة والجنرال سبيرس وعدد من اصدقائهما واصدقائه. فصمد للضغط. وبعد اخذ ورد طويلين قبل رياض ان يفصل اميل اده من النيابة، شرط ان لا يقال انه طرد من المجلس او انه اقترف جرم الخيانة، بل يقال ان سبب فصله عائد الى كونه قبل وظيفة ذات مرتب من دولة اجنبية، وهذا امر لا يتفق مع صفة النيابة. واشترط رياض ايضا ان يقترع المجلس على القرار بالاجماع لكي يبرر موقفه امام اميل اده اذا فوتح بالامر.

وابتدأ الرسل يسعون الى النواب واحدا واحدا لتطبيقهم. ولم تمض ايام من سنة ١٩٤٤، حتى صار الموضوع على كل شفة ولسان. وبدا ان الفكرة سالكة طريقها من دون عقبات تذكر.

ووصل دور التطبيق الي فجاءني اكثر من رسول يسعى لاقناعي او

تطبيقي. فرفضت. وقلت لرسل الخير، انني لن اقبل باقصاء اميل اده عن مجلس النواب، وذلك انسجاما مع اقتناعي وتفكيري. وكررت ما سبق ان قلته في دار صائب سلام، من انه لا تجوز ادانة رجل سياسي والحكم عليه تحت تأثير الانفعال، وبعامل الحقد والضغينة، من دون تمحيص الاسباب التي دفعته الى فعل ما فعل. ولا ندري الآن هل يستطيع التاريخ بعد خمسين سنة ان يدين اميل اده على موقفه سنة ١٩٤٣ ام ان التاريخ يرى غير ذلك.

ولما يئس اصدقائي من اقناعي استعانوا بالجنرال سبيرس علي. فدعاني الى قصره في عاليه. وبعد ان اثنى على موقفي في حوادث تشرين، وذكر الاجتماع الذي عقد في مكتبه بيني وبين الوزير كايزى، والدور الذي قامت به بريطانيا في تحقيق استقلال لبنان، سألني هل صحيح ما ترامى الى سمعه من اني غير موافق على فصل اميل اده عن المجلس؟ فأجبته: نعم. اني غير مقتنع بادانة اميل اده. واكدت له ان هنالك مبدأ اتخذته لنفسي، وسرت عليه ولا استطيع ان احيد عنه، وهو ان لا اتسرع في الحكم على احد او ادانته. فكيف اذا كان الامر يتعلق برئيس جمهورية سابق؟

وخرجت من عند سبيرس، وأنا اكثر اصرارا على موقفي.

وفي اليوم التالي، وكان الجمعة في ٣١ من آذار ١٩٤٤، ذهبنا الى جلسة مجلس النواب. فاذا أروقة المجلس حلقات، والاحاديث والهمسات كلها تدور حول موضوع واحد: إقالة اميل اده.

وكانت الحكومة تظن انها ضمنت للقرار شبه اجماع، بعد ان عرفت انها لا تستطيع ان تعتمد على صوتي. وشبه الاجماع هذا لم يتوافر عن طريق الاقناع والتطبيق وحسب، بل ايضا عن طريق الضغط السياسي الشديد.

اذكر على سبيل المثال ان احمد الاسعد لم يكن مقتنعا قط، ولا موافقا على فصل اميل اده عن المجلس، لكنه لقي من الضغط والتهديد ما وضعه في مركز حرج جدا. ومما اذكره ان حديثا طريفا جرى بيني وبين الاسعد، ونحن في طريقنا الى قاعة الاجتماع. والحديث يدل على الحرج الذي كان يعانيه. فقد سألني احمد بك، عن مارون كنعان اين هو؟ ومارون من رفاقنا في لائحة الجنوب. اجبته: لن يحضر مارون الجلسة، لأن والدته توفيت هذا الصباح وهو بالطبع مضطر الى البقاء في جزين. فاجابني احمد بك والالم يكاد يخنقه: «نيالو مارون بك. نيالو ماتت امه اليوم!...»

«لا . . . انا لم أرفع يدي»

وعقدت الجلسة، فبادر الرئيس صبري حماده الى تلاوة مشروع قرار يقضي بفصل اميل اده من المجلس، ثم طرحه على التصويت برفع اليد. وعلى الاثر اعلن خليل تقي الدين ان الاقتراح قبل بالاجماع.

فوقفت وصحت برئيس المجلس: انك يا حضرة الرئيس لم تحص الايدي التي ارتفعت فكيف يعلن الاجماع. انا لم ارفع يدي لأنني أعارض المشروع. واطلب الى الرئاسة ان تأمر بتسجيل معارضة يوسف سالم في محضر الجلسة.

كنت أتكلم والنواب ينظرون الي بدهشة، وكأنهم لا يصدقون ما يسمعون. ولما انتهيت، وقف الزميل جبرائيل المر وقال بدوره: وأنا أيضا أعارض الاقتراح.

وارتفعت اصوات أدت الى طرح القرار على التصويت ثانية، فخالفه: يوسف سالم وجبرائيل المر ووديع الاشقر ومحمد العبود وجورج عقل واحمد الحسيني واسعد البستاني وجورج زوين. وانسحب امين السعد قبل الاقتراع...

فأعلنت الرئاسة ان الاقتراح قبل بالاكثرية.

مشاورات الوحدة العربية

حصلنا على الاستقلال السياسي. ولكن جيوش الحلفاء كانت لا تزال معسكرة في بلادنا. فاعتبرنا ان الاستقلال لم يصر تاما ناجزا، ما دام هناك جيش اجنبي مقيما على ارضنا.

صار هذا الموضوع الخطير شغل الدولة الشاغل. الشيخ بشارة في تشاور دائم مع اركان حكومته واصدقائهم من السياسيين. وتقرر ان تكون الخطوة التالية تحركا ديبلوماسيا يتيح للبنان الانفتاح على الدول الشقيقة اولا، ثم الدول الصديقة، ولا سيما الكبرى التي لها كلمة مسموعة في المحافل الدولية. وقد صرنا في مركز يمكننا من مخاطبة الجميع بلغة الند للند.

وكانت للقاهرة اهمية بالغة، نظرا لكونها كبرى الدول العربية، ولوجود القيادات السياسية والعسكرية لدول الحلفاء فيها. لقد صارت معارك الحرب الحاسمة تحتدم على الجبهة الشرقية، وصارت هذه الجبهة مفتاح النصر او الهزيمة. لذلك حرصت القيادات الحليفة، على جعل القاهرة مقرأ لها لتكون على مقربة من الجبهة.

ومع فكرة التمثيل الخارجي، طرحت فكرة اخرى، هي تبادل الرأي والاستعانة، بتأييد الدول العربية، والحصول منها على دعم معنوي ومادي عند الحاجة.

في العام ١٩٤١، كان المستر ايدن وزير خارجية بريطانيا قد اطلق تصريحا قال فيه: «ان الحكومة البريطانية ترى ان العالم العربي خطا خطوات واسعة في سبيل التقدم، وانه يتطلع الآن الى تحقيق نوع من الوحدة يجعل منه عالما متماسكا مترابطا. وان بريطانيا ترحب بهذه الخطوة وتبدي استعدادها لمساعدة القائمين بها».

كانت هذه الفكرة هي نواة جامعة الدول العربية. وقد تبنتها مصر، كما رحبت بها الدول العربية. اما لبنان فشغل عنها بأحداثه الداخلية.

وظلت الفكرة مطروحة للمناقشة، الى ان اتخذت حكومة القاهرة المبادرة الى عقد مؤتمر دعت اليه الدول العربية المستقلة، وهي سبع: مصر، سورية، العراق، السعودية، الاردن، اليمن، لبنان، لتبدي كل دولة رأيها في موضوع «الجامعة» واطلق على هذا المؤتمر اسم «مشاورات الوحدة العربية». وعقد في الاسكندرية.

وتألف الوفد اللبناني من الرئيس رياض الصلح، ووزير الخارجية سليم تقلا، ومدير غرفة رئاسة الجمهورية موسى مبارك.

بروتوكول الاسكندرية

في ٢٦ من تشرين الاول ١٩٤٤، بدأت «المشاورات الخاصة بالوحدة العربية» في قصر انطونيادس في الاسكندرية. وعقد اول اجتماع بين الوفد المصرى برئاسة مصطفى النحاس، والوفد السوري برئاسة سعد الله الجابري. وبعد تداول العبارات الشعرية المألوفة في اجتماعاتنا الشرقية، قال مصطفى النحاس:

«سمعت آراء كثيرة سواء في مشاوراتي السابقة او في ما وصل الي من التقارير والرسائل، ومجملها حول وجوب اندماج الاقطار الاربعة (لبنان وسورية والاردن وفلسطين) اندماجا تاما. ولست أخفي اني احسست ان هناك صعوبات تعترض تحقيق هذه الغاية... فان لكل قطر منها كيانه ونظامه ومكانه ودرجة تقدمه. وحكومة بعضها جمهورية،

وعلى رأس حكومة البعض الآخر أمير. فكيف يكون شكل الحكومة الموحدة في حال الاندماج؟ وكيف نتغلب على الصعوبة الناشئة من امتيازات الموارنة في لبنان، ومن مركز اليهود في فلسطين؟ ثم نريد ان نعرف كيف يكون مركز سورية بالنسبة الى العراق... وبالنسبة الى المملكة العربية السعودية؟ الخ..»

ورد سعد الله الجابري ردا حماسيا مسهبا تناول فيه «وحدة بلاد الشام الجغرافية» وقال انه قبل انسلاخها عن السلطنة العثمانية «لم يكن للبنان وجود مستقل بشكله الحالي، بل كان هناك جبل لبنان الذي ينحصر ما بين فرن الشباك خارج بيروت من ناحية الغرب، والمعلقة (زحلة) من ناحية الشرق، وما بين شمالي البترون وشمالي صيدا... وفي نهاية الحرب العظمى الماضية احتل الانكليز الساحل السوري وسلموا ادارته المدنية للفرنسيين، نتيجة الاتفاقات السرية والعلنية بينهم الخ...»

واكد الجابري «ان السوريين يريدون الوحدة كما يريدها كل عربي مخلص... وهم لا يجهلون ان مصاعب كثيرة ومشاكل عديدة تعترض سبيلها. من ذلك مشكلة الصهيونية في فلسطين، والنزعة المسيحية في لبنان، تلك النزعة التي لم يثبت بعد انها تستند الى عملية حسابية صحيحة.»

وقال الجابري ايضا انه يظن «ان العرب اصبحوا ميالين لقبولهم بالامر الواقع» في ما يتعلق بحل الكتاب الابيض الانكليزي عن تقسيم فلسطين.

وختم مؤكدا استعداد سورية للسير وراء مصر «وبذل كل تضحية في سبيل القضية العربية...»

وطلب مصطفى النحاس ان تظل المشاورات سرية «لا يقف عليها غير المندوبين اليها ولا يذاع شيء عنها». فتم الاتفاق على ذلك.

وفي الجلسة الثالثة في ٣٠ اكتوبر (تشرين الأول) نهج سعد الله الجابري ـ بسحر ساحر اسمه رياض الصلح ـ نهجا جديدا فيه اعتراف بالجمهورية اللبنانية الجديدة «على شرط ان يطالب لبنان مثلنا بسيادته الكاملة، ويقتفي خطواتنا في ذلك، محتفظا بوجهه العربي الخ...».

موقف لبنان مماثل لموقف مصر

وادلى رياض الصلح بيانا قال فيه:

«ان لبنان يقترب من القضية العربية، ويقبل على المشاركة فيها، بعد ان تفهمت شقيقاته العربيات موقفه وتحفظه من الوحدة تفهما جعلها تعترف بكيانه وحدوده الحالية دولة مستقلة ذات سيادة تامة.... والذي يهم البلدان العربية في أمر لبنان بالدرجة الاولى، أن لا يكون اداة للاجنبي يستعملها لما يضر مصلحة البلدان الشقيقة. وهذا ما تعهدت به اول حكومة دستورية للبنان بعد استقلاله، في بيانها الوزاري، واقره المجلس النيابي بالاجماع. فلبنان اذن، لا يقل اقتناعا ورغبة عن بقية الاقطار العربية بفوائد التعاون المشترك... اما موقفه من القضية العربية فسيكون مماثلا لموقف مصر منها، وهو يرغب ان يكون تعاونه وجميع الاقطار الشقيقة على اساس السيادة والاستقلال الخ...»

(عن النص الرسمي المدون في المحاضر السرية لمشاورات الوحدة).

ولما كانت الغاية من هذا الاجتماع عرض الاقتراحات المقدمة من

كل دولة من الدول المجتمعة، لا التصويت عليها، وافق على محضر الجلسة رياض الصلح وسليم تقلا، وخالف موسى مبارك الذي رفض ان يوقع على المحضر رغم اصرار رياض الصلح وسليم تقلا عليه. وعند ذلك اتصل تلفونيا بالرئيس الشيخ بشارة فاقنعه الرئيس بالتوقيع على المحضر الذي لا يقيد لبنان بشيء، وعاد الوفد من اجتماع الاسكندرية الى بيروت.

زيارة المملكة العربية السعودية

رأى الرئيس الشيخ بشارة، والاستقلال لا يزال طري العود، ان يرسل وفودا الى البلاد العربية الشقيقة للاعراب عن حرص لبنان على توثيق الصلات بها، واعتماده عليها.

وبدأنا بالمملكة العربية السعودية، وكان على رأسها في ذلك الوقت الملك عبد العزيز آل سعود. فتألف الوفد اللبناني لزيارتها من رياض الصلح وسليم تقلا وموسى مبارك وانا. وغادرنا لبنان الى دمشق، ومنها بالسيارات الى بغداد، حيث مكثنا ثلاثة ايام، جعلونا موضع اكرام اركان الحكومة العراقية. وبعدها انتقلنا بواسطة السكة الحديدية الى البصرة.

وفي البصرة، كانت تنتظرنا سيارات خاصة ارسلها الملك عبد العزيز لتنقلنا الى الروضة حيث كان يصطاف. ومع السيارات وفد يواكبنا. فقضينا في الطريق من البصره الى الروضة ثلاثة ايام مرورا بالكويت. وكانت الكويت بلدة صغيرة لها سور خارجي يغلق في الليل ويحرسه الجنود.

وكان نظام الرحلة وفق تعليمات الوفد المواكب لنا، ان نتوقف كل

اربع ساعات، فتنصب لنا الخيام ويحضر الطعام ونأخذ قسطا من الراحة. وفي آخر مرحلة حضر لاستقبالنا الأخ حسين العويني الذي كان يعمل في المملكة السعودية، وواكبنا حتى الروضة. وهناك تشرفنا بمقابلة الملك عبد العزيز، وتعرفنا للمرة الاولى الى عادات الطعام في الجزيرة العربية والى تقاليده الجميلة.

استقبلنا الملك وحاشيته اكثر من مرة، واستضافنا وأكرمنا. وفي آخر لقاء لنا معه اوصانا، وكان الوفد بكامل اعضائه حاضرا، بأن لبنان «لا يمكن ان يكون وان يبقى ويصبح قويا، إلا بالتآلف والمحبة بين مختلف ابنائه والتعاون فيما بينهم. وقال ان الاستقلال الحقيقي هو ان يشعر اللبنانيون، دون تفريق، ان لبنان وطنهم وانه مطلوب منهم المحافظة عليه وصيانته. ثم التفت الى رياض وقال له: اسمع يا رياض. أوصيك بالمسيحيين في لبنان، يجب ان تحافظوا عليهم محافظتكم على ابناء دينكم واكثر. فلولاهم لما كان لبنان».

وأعرب لنا الملك عبد العزيز عن تأييده المطلق للبنان واستقلاله وقال كلمته الشهيرة: «من مس لبنان فقد مس نجد!»

وعاد الوفد بطريق بغداد ثم حلب، حيث جرى لنا استقبال حافل من اعيان البلدة، وفي مقدمتهم الوجيه كمال الجابري نسيب رياض الصلح الذي استضافنا يوما بكامله. وثاني يوم، عدنا الى بيروت بالسكة الحديدية حتى رياق، ومنها بالسيارات الى بيروت.

مضت اسابيع قليلة على عودتنا من الرياض. وكان قد قرب موعد تجديد انتخاب رئاسة مجلس النواب. وعندها فكرت في ترشيح نفسي للرئاسة، وابتدأت بحملة انتخابية واسعة بين النواب، وكان لي بينهم مؤيدون كثيرون. واتصلت باصدقائي الوزراء سليم تقلا وحبيب ابي

شهلا وحميد فرنجيه والمير مجيد ارسلان، فوعدوني بالتأييد. وكان الشيخ بشارة يعتقد ان القضية قد تكون مزاحا لا اهمية لها وهو يؤيد ترشيح صبرى حماده.

ولكنه لما رأى ان القضية جدية، وان عدد المؤيدين ترشيحي يزداد يوما بعد يوم، قام بحملة واسعة لمصلحة صبري بك، حتى انه اخذ قرارا في مجلس الوزراء بوجوب تأييده. وعلى الاثر زارني اصدقائي الوزراء واعتذروا عن الأخلاف بوعدهم. واتاني رياض بك وحميد بك يلحان علي بأن أرجع عن الترشيح، ولم يبق بيننا وبين الانتخابات سوى اسبوع واحد. فلم اقبل. وقلت لهما: بعد الحملة التي قامت بها الحكومة ضدي، لم يعد لي امل بالنجاح، وانا اعلم ذلك حق العلم. ولكن اريد كسر الطوق الطائفي لاني لا اؤمن به.

ويوم الانتخاب اكتظت ساحة النجمة بمؤيدي صبري بك، وهم يعدون بالألوف ويصيحون مهددين: «يا سالم سلم تسلم!». وخشيت الحكومة ان يمسني سوء من جماعة صبري بك، فعرضت علي ان ترسل الي قوة لحراستي ومواكبتي الى المجلس. فرفضت. وزادني ذلك اصرارا على المضي في الترشيح حتى النهاية.

وجرى الانتخاب فكانت النتيجة ان نلت ٢٣ صوتا، ونال الزميل صبري حماده ٢٩ صوتا.

ولما اعلنت نتيجة الانتخاب طلبت الكلام وشكرت مؤيدي، كما اثنيت على صبري بك، وقلت إني انما رشحت نفسي على أساس مبدأ لا طائفي، لكني أرى في منافسي كل الصفات التي تؤهله لرئاسة المجلس.

❋

قد يكون التمثيل الديبلوماسي اول مظهر من مظاهر الاستقلال.

لذلك شعرت الحكومة بضرورة ايفاد سفراء لبنانيين الى بعض العواصم الكبرى. من عربية واجنبية.

وبعد انتخاب رئيس المجلس بفترة قصيرة، اتصل بي وزير الخارجية سليم تقلا وعرض علي منصب وزير لبنان المفوض في القاهرة (بدأ لبنان بتعيين ممثليه الديبلوماسيين برتبة وزراء مفوضين ثم اصبحوا بعد ذلك سفراء). وقبل ان اجيبه بالرفض او القبول، اضاف ان كميل شمعون سيعين في لندن. وشمعون وانا، نائبان في المجلس. وفي الدستور نص صريح يسمح بتعيين النائب في وظيفة سياسية، شرط ان يمنحه المجلس اجازة مدتها ستة اشهر قابلة للتجديد.

قبلت بمنصب الوزير المفوض في القاهرة. وكنت في ذلك الوقت لا ازال مديرا لشركة المياه. وقد مضى علي في الشركة احدى وعشرون سنة لم آخذ فيها يوم راحة. فطلبت من رئيس مجلس ادارة الشركة اجازة ستة اشهر لاستطيع تأدية واجبي تجاه وطني بتمثيله في الخارج.

تركت شركة المياه مطمئنا

ولما قبلت تعييني وزيرا مفوضا كنت مطمئنا كل الاطمئنان الى اني اترك الشركة في وضع منتظم، وادارة ممتازة، وفيها الموظفون الأكفاء المدركون تبعة عملهم، واخص بالذكر منهم صديقي المهندس سليم لحود الذي تدرج في الرقي بفضل ذكائه ونشاطه حتى صار نائبا ووزيرا. وقد بقي في الشركة ساهرا على حسن العمل فيها وتأمين المياه للعاصمة وسكانها، فلم يتركها الا يوم تركتها.

بدأت ابحث مع وزير الخارجية امر اختيار معاوني في المفوضية.

فاقترح علي سليم تقلا تعيين تقي الدين الصلح مستشارا سياسيا. فترددت قليلا. ولكن لم ار بدا من الموافقة. وكان سبب ترددي ان الصورة التي كانت في ذهني عن تقي الدين لم تكن في مصلحته. كنت اعرف انه شاب ذكي ومثقف. لكنني كنت احسب انه يصرف ذكاءه في هوايته المفضلة، وهي اختراع المقالب واصطناع الالاعيب.

ولكن سرعان ما تبدل رايي فيه. اذ لم يمض على تعاوننا وقت قصير، حتى اكتشفت كل ما فيه من ذكاء حاد، ووطنية صادقة، واصالة رأي، وضعها كلها في خدمة لبنان وقضاياه. وكانت الايام التي قضيتها معه مليئة بالعمل، غزيرة بالانتاج. وبفضل التعاون الوثيق بيني وبينه، تمكنا من تحقيق منجزات هامة في وقت كان لبنان، وهو في مطلع استقلاله، بحاجة الى صداقات في الخارج تعزز مركزه، وخاصة في بلد كمصر كان مركز الثقل في العالم العربي، ومقر القيادات المتحالفة في تلك الحقبة من الحرب العالمية الثانية.

وبالاتفاق مع وزير الخارجية اخترت حليم ابو عز الدين قنصلا عاما في القاهرة، ونجيب الدحداح سكرتيرا اول، ويوسف قمر ملحقا، ومعاون مفوض الشرطة شفيق رزق مرافقا، وجميعهم من خيرة الشباب، وقد تعاونوا على اكمل وجه.

وشق كل واحد من هؤلاء الشباب طريقه في الحياة بفضل كفاءته ومزاياه.

ان حليم ابو عز الدين يشغل اليوم منصب مندوب لبنان الدائم لدى منظمة اليونسكو برتبة سفير. ونجيب الدحداح هو سفير لبنان لدى الفاتيكان. اما شفيق رزق فهو مرافق رؤساء الجمهورية اللبنانية جميعا، لم يتخل واحد منهم عنه منذ عهد كميل شمعون حتى عهد الرئيس الحالي سليمان فرنجيه.

ولو ان القدر فسح في حياة يوسف قمر لاقتفى خطى رفاقه. لكن المنية عاجلته وهو في اول الطريق.

لقد وفقني الله بمعاونين أكفاء كرام. ولو ان جميع السفارات اللبنانية اتيح لها موظفون من طراز هؤلاء الذين ذكرت، لكانت انجازات سفاراتنا في الخارج اهم وافضل.

زرتهم قبل أن يزوروني

لما حطت بنا الطائرة في مطار القاهرة، وجدنا عند استقبالنا حشدا من ابناء الجالية اللبنانية في مصر. ولم ار بينهم احدا من اعيان اللبنانيين المتمصرين، او المقيمين في مصر ممن يشغلون مراكز سياسية او يتمتعون بشهرة تجاوزت حدود مصر، امثال ثابت، والجميل، وتقلا، وارقش، وتاجر، وصيدناوي وكثيرين غيرهم، الامر الذي اثار في نفسي شيئا من الانزعاج وعدم الارتياح.

وفي اليوم التالي، وخلافا لكل عرف، قمت بنفسي بزيارة المواطنين مبتدئا بانطون الجميل رئيس تحرير «الاهرام» فالسادة صيدناوي وتاجر وثابت وتقلا الخ... واحدثت هذه المبادرة اثرا طيبا في جميع الاوساط. فلم تمض ايام حتى اكتظ فندق كونتيننتال، حيث كان مقر السفارة الموقت، بالزائرين. وعاد افراد الجالية اللبنانية يتحدثون عن لبنان ويفاخرون بأصلهم اللبناني.

ولما اطمأنت نفسي الى حسن العلاقة بين السفارة والجالية اللبنانية، بدأت اسعى لاستئجار دار للسفارة، وانا لا ازال اقيم في الفندق. تفقدت قصورا كثيرة، لكنها لم تكن معدة للايجار بل للبيع، اما الدور المعروضة فلم يكن بينها ما يصلح مقرا لنا.

مروءة لبنانية لنجيب صالحه

وزارني ذات يوم السيد نجيب صالحه. وهو من وجوه اللبنانيين الذين يعملون في المملكة العربية السعودية. فحدثته حديث الدار، وكيف انه لم يعد من الجائز ان يظل الفندق مقرا للسفارة، فقال لي نجيب بك بالحرف: ـ ما يخالف. شوف أي قصر يعجبك وانا اشتريه واضعه تحت تصرف السفارة.

وهكذا كان. فاخترنا فيلا تملكها الكونتس صعب. اشتراها السيد صالحه ووضعها تحت تصرفنا. وهي لا تزال الى اليوم مقر السفارة.

وصارت سفارة لبنان، في شكلها اللائق الجديد، ملتقى وجوه الجالية، والديبلوماسيين، وكبار رجال السياسة والصحافة المصريين. واقمنا فيها المآدب والحفلات، وصار لبنان حديث الناس في المجتمع المصري الراقي.

زيارة النحاس باشا

تقضي التقاليد الديبلوماسية على السفير الجديد، بأن يقوم بعد تقديم اوراق اعتماده بزيارة جميع رؤساء الوزارة السابقين الذين تولوا الحكم في البلد الذي هو معتمد فيه.

وقد عملت بهذا التقليد واتممته. لكني واجهت مشكلة فيها كثير من الازعاج والاحراج، عندما عزمت على زيارة مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصري.

وكان لا بد لي ان اجد حلا عاقلا لهذه المشكلة.

ذلك لان الملك فاروق كان قد اقال الزعيم الشعبي النحاس باشا من الحكم، هو ووزراءه، واستبدل به وبهم رئيسا ووزراء معادين للنحاس عداء شديدا.

واستفحل الخلاف بين القصر الملكي وبيت الامة، حتى اضطر الكثيرون الى الابتعاد عن النحاس وبيت الامة خوفا من اغضاب الملك.

وقد عرفت ذلك كله، لكنني كنت امام واجب خلقي ووطني هو اهم من جميع الملابسات السياسية والامزجة الملكية: فالنحاس باشا هو الزعيم العربي الاول الذي رفع صوته لتأييد استقلال لبنان، وهو اول زعيم احتج على جريمة هللو وعصابته في تعطيلهم الدستور اللبناني واعتقالهم اركان الجمهورية المستقلة. وبلغ من حماسة مصطفى النحاس باشا في نصرته لبنان في ازمته الخطرة، ان هدد الفرنسيين بمصادرة املاكهم كلها ووقف مصالحهم في مصر.

فزعيم صديق هذا شأنه لم يكن باستطاعتي ان اتجاهله واعرض عن زيارته، وانا اول ممثل للبنان في بلاده.

وقلبت الامر على مختلف وجوهه، وعرفت ان الصحف تنشر كل يوم اسماء الذين يزورون قصر الملك وان جريدة «المصري» ـ لسان الوفد ـ تنشر وحدها اسماء الذين يزورون النحاس باشا، وهم في كثرتهم من حزبه.

وكانت جريدة «المصري» لا تصدر يوم الجمعة، فاخترت يوم الخميس لزيارة النحاس، وبذلك ضمنت ان زيارتي تتم «على السكت».

وزرت صديقي انطون الجميل باشا عميد «الاهرام»، وهمست في اذنه ان لا ينشر في جريدته الكبرى خبر الزيارة فوافق.

وهكذا كان. وزرت مصطفى النحاس باشا في بيت الامة، وابلغته شكر لبنان على موقفه الكريم منه في أزمته التاريخية، فتقبل الزعيم الكبير زيارتي وكلامي بامتنان وتأثر بالغين. ولم تصدر المصري في اليوم التالي فتم لي ما اريد.

في الطريق الى انشاء الجامعة

في تلك الآونة كانت فكرة انشاء جامعة الدول العربية قد اختمرت في رؤوس السياسيين العرب. فتقرر أن ترسل كل دولة وفدا الى القاهرة لوضع نام للجامعة وأعلان قيامها.

وتألف الوفد اللبناني من السيد عبد الحميد كرامي رئيس الوزارة اللبنانية ومني بوصفي سفير لبنان في القاهرة. فجاء الرئيس عبد الحميد كرامي الى مصر واتصل بأركان الحكومة المصرية ورؤساء الوفود العربية وما لبث ان عاد الى بيروت.

وبعد عودته، خلفه على رأس الوفد اللبناني هنري فرعون وزير الخارجية، فحضر الى القاهرة، وعملنا معا، انا وهو، على انجاز دراسة ميثاق الجامعة ومناقشته مع وفود سائر الدول العربية.

وطال النقاش وحمي حول مسألة هامة هي، كيف تتخذ الجامعة مقرراتها، أبالاكثرية ام بالاجماع؟ واذا اتخذت بالاكثرية، فما هو موقف الدولة المعارضة؟ هل يطبق عليها القرار فيلزمها ام لا؟

ووصل البحث الى قضية السياسة العربية الخارجية فطلب رئيس الوفد المصري النقراشي باشا ان تكون السياسة الخارجية واحدة بين جميع الدول العربية. فاعترض الوفد اللبناني وطلب ان يكون لكل بلد عربي حرية تكييف سياسته الخارجية، بما يتناسب مع وضعه الخاص.

مشادة تنتهي بفوز الرأي اللبناني

وحصلت مشادة وجدل عنيفان حول هاتين النقطتين، وعندما احتدم الجدال طلب النقراشي التصويت على اقتراحيه، فتصدى له الوفد اللبناني بقوة وعارض فكرة التصويت وأيده الوفد العراقي برئيسه المرحوم ارشد العمري احد رؤساء الوزارة السابقين في العراق. وبلغ به الامر الى ان جمع العمري اوراقه وقال: أنا خارج من الاجتماع.

وهم ارشد العمري بالانصراف فلحق به بعض اعضاء الوفود واعادوه الى مكانه.

وفازت نظرية لبنان، وصرف النظر عن وحدة السياسة الخارجية، كما تقرر ان لا تكون مقررات الجامعة ملزمة الا لمن يقبلها.

وصيغ هذا القرار على الشكل التالي الذي وافقت عليه جميع الوفود:

«تم الاتفاق على ان تؤلف جامعة للدول العربية من الدول العربية المستقلة التي تقبل الانضمام الى هذه الجامعة، وأن يكون لهذه الجامعة مجلس تمثل فيه كل الدول المشتركة على قدم المساواة، وتكون مهمة هذا المجلس، مراعاة تنفيذ ما تبرمه هذه الدول فيما بينها من اتفاقات، وتنظيم عقد اجتماعات دورية لتوثيق الصلات بين هذه الدول

وتنسيق خططها السياسية. وتكون قرارات هذا المجلس ملزمة لمن يقبلها».

واعتبرت الفقرة الأخيرة نصرا للبنان وسياسته.

وما يجب تسجيله هنا ان المملكة العربية السعودية كانت هي ايضا من رأي لبنان، غير ان ممثلها في الجلسات (جلالة الملك فيصل الراحل)كان موقنا ان لبنان والعراق لا يرضيان، ولن يرضيا باقتراح النقراشي باشا، وان الاقتراح لن ينجح، فآثر الممثل السعودي الصمت كي لا يغضب الحكومة المصرية التي كان وراءها الملك فاروق، الحالم بأن يصير ملك العرب...

وفي ٢٢ من آذار ١٩٤٥ ولدت جامعة الدول العربية. واعلن ميثاقها.

وحمل الميثاق توقيع عبد الحميد كرامي ويوسف سالم عن لبنان.

لبنان يفتتح عهد الاستقلال العربي

اثر اعلان ميثاق الجامعة العربية، اقدمت الجالية اللبنانية في القاهرة على دعوتي الى حفلة تكريم تقام على شرف أول وزير مفوض يمثل لبنان في مصر. وتكلم عدد من الخطباء وكان علي ان ارد التحية:

شكرت الخطباء والمكرمين، وأشدت بفضل لبنانيي مصر، وبأنهم كانوا قبلي سفراء لبنان، وخصصت المغتربين جميعا بأنهم كانوا ولا يزالون حملة لواء الحرية للبنان ويلوحون بقائمة حقوقه. «وانه لمن دواعي الفخر للبنان ان يكون هو الذي افتتح عهد الاستقلال في البلدان العربية جمعاء منذ ١٨٦٠».

ثم اشرت الى انتظام لبنان في ميثاق جامعة الدول العربية فقلت «انه ذو مغاز عديدة، فهو ـ فضلا عن انه يكرس عهد التعاون الرسمي بينه وبين الاقطار العربية ـ أول عمل سياسي استقلالي نقدم عليه بملء حريتنا، لا تضغطنا فيه يد غريبة، ولا توحي به الا المصلحة الوطنية البحت.»

وخصصت مصر، واحتضانها اللبنانيين، ووقوف ملكها وحكومتها وشعبها الى جانب لبنان في ثورته، يؤيدون جهاده، خصصتهم بكلمة لطيفة فيها كل الوفاء وعرفان الجميل ثم قلت:

«ان لبنان ايها السادة صغير بحدوده، ولكنه كبير جدا بأشعاعه. ومن هنا كانت مسؤولياته الضخام تجاه نفسه والعالم، ومن هنا أيضا كانت آماله في القدرة على القيام بتلك المسؤوليات. والجالية اللبنانية في طول الدنيا وعرضها بعض ذلك الاشعاع...»

غيوم تنذر بالاخطار

كانت الحقبة الواقعة بين خريف العام ١٩٤٣ وآخر العام ١٩٤٦ دقيقة للغاية بالنسبة الى لبنان. ففرنسا لا تزال قواتها تقيم على أرضه ولم تقبل بالهزيمة السياسية ينزلها بها شعب أعزل الا من حقه، يقوده رجال سلاحهم الايمان بوطنهم، والشجاعة والاستعداد للتضحية والفداء.

هؤلاء الرجال الذين كسبوا الجولة الاولى من المعركة وجدوا انفسهم فجأة امام أزمة جديدة قد تكون اشد خطرا من ازمة تشرين. كيف السبيل الى استكمال الاستقلال والتخلص من الجيوش الاجنبية التي يسيء وجودها الى كرامة ارض الوطن؟

ذلك لأن المعلومات كلها أخذت تدل على أن فرنسا تعمل جاهدة للتشبث بالبقاء في لبنان، مهما كلفها الأمر، وبأي شكل من الاشكال.

لقد اكرهت على الخروج من الباب، فلماذا لا تعمل على العودة من النافذة؟

ادرك رجال الاستقلال هذا كل الادراك. لكنهم صمموا على الصعود في وجه كل طامع، قريبا كان او بعيدا.

وفي رأيي، وقد مر على هذه الاحداث ثلاثون عاما، ان «معركة الجلاء» كانت اقسى، واخطر، واصعب من «معركة الاستقلال» نفسها.

لوندره تؤيد المركز الممتاز لفرنسا

في صيف ١٩٤٤ ذهب الجنرال سبيرس الى بلاده بالاجازة. وفور عودته الى لبنان طلب مقابلة الرئيس الشيخ بشارة، فاستقبله بحضور رياض الصلح رئيس الوزراء وسليم تقلا وزير الخارجية. وأبلغهم سبيرس بوصفه وزيرا مفوضا لبلاده ان حكومته تطلب من لبنان رسميا عقد معاهدة مع فرنسا لانهاء الانتداب.

وذلك عملا بالوعود التي قطعتها بريطانيا للجنرال ديغول وللفرنسيين الاحرار، وتقضي هذه الوعود، بأن يكون لفرنسا مركز ممتاز في دولتي «المشرق».

معاهدة ومركز ممتاز! هذا ما كان يخشاه رجال الاستقلال ويرفضونه. ان بريطانيا لا تزال بحاجة الى ديغول وجيشه وهي في غمرة الحرب، لذلك وعدته بشيء لا تملكه هي نفسها. ذلك هو طبع القوي حين يتصرف بالضعيف وحريته وحياته.

لكن الضعيف، وقد خرج من معركة الامس منتصرا، لم يطع، ورفض ان يمد عنقه لنير جديد، بعد ان زحزح عنه النير القديم.

استقبل الرئيسان الخوري والصلح والوزير تقلا كلام سبيرس بوجوم وامتعاض وناقشوا رسالته طويلا. وأعربوا عن رفضهم لها. فقال سبيرس: «هذا ما كلفتني حكومتي ان انقله اليكم. وانتم احرار في أن تقبلوا او ترفضوا». وأضاف بابتسامة ناعمة: «لكنني شخصيا وبوصفي صديقا للبنان، اقول لكم انكم اذا رفضتم فاننا لن نرسل الى مياهكم الاسطول البريطاني لارغامكم على القبول!» وانصرف.

وبعد اربع وعشرين ساعة طلب سفير فرنسا الجنرال بينه مقابلة رئيس الجمهورية بصحبة الكونت اوستروروغ سكرتيره العام.

لا معاهدات ولا مراكز ممتازة لأحد

كان الاخراج متقنا. كأنه «سيناريو» فيلم تفتقت عنه قريحة مخرج عبقري.

الدولة العظمى، بريطانيا، التي ساعدت لبنان على نيل استقلاله هي التي تضغط عليه الآن لعقد معاهدة مع فرنسا واعطائها مركزا ممتازا! فهل يستطيع لبنان ان يرفض، او يتلكأ في الجواب؟

لكن الأقوياء حسبوا حسابا لكل شيء إلا لشيء واحد، وهو أن بشارة الخوري ورياض الصلح وسليم تقلا وجميع رجال الاستقلال، قد صمموا على تحرير لبنان تصميما لا رجعة فيه، واعتنقوا، منذ الدقيقة الاولى، مبدأ شعاره «لا معاهدات ولا مراكز ممتازة لأحد» بل لبنان تام السيادة كامل الاستقلال.

فلما دخل سفير فرنسا على رئيس الجمهورية وبرفقته الكونت اوستروروغ، وبجانب الرئيس اللبناني رياض الصلح وسليم تقلا، قال السفير إن حكومته ترغب في عقد معاهدة مع لبنان تقوم مقام الانتداب على غرار معاهدة بريطانيا مع العراق «وذلك لتصفية علاقاتنا الماضية وفقاً للوعود التي قطعتها لنا حليفتنا بريطانيا.»

وأضاف السفير أن فرنسا تدعو لبنان لفتح باب المفاوضات للوصول الى هذه النتيجة.

كان الجواب حاضراً في ذهن الشيخ بشارة، معداً تحت لسانه، فقال: «ان لبنان دولة مستقلة، وهو لا يرغب في عقد معاهدة مع أية دولة من الدول قبل انتهاء الحرب واجتماع مؤتمر الصلح. وبعدئذ يفتح باب البحث في المعاهدات مع جميع الدول الراغبة في عقدها مع لبنان، على أساس المساواة التامة ومن دون أي مركز ممتاز».

هذا الكلام الكبير وقع وقوع الصاعقة على رأس الجنرال بينه ورفيقه اوستروروغ. وحاول كلاهما عبثا زحزحة الرئيس الشيخ بشارة عن موقفه. لكنه لم يتراجع قيد انملة.

فانسحب الزائران. وبدأت مشاكل لبنان مع الجيش الفرنسي المحتل طوال سنتين واكثر.

وعلمنا في ما بعد ان الفرنسيين بلغهم الرأي الشخصي الذي أبداه سبيرس بعد أن نقل الى أركان الحكومة اللبنانية رسالة حكومته الرسمية.

واعتبر الفرنسيون كلام سبيرس تشجيعا للمسؤولين اللبنانيين على رفض المعاهدة، فلم يمض وقت قصير حتى استدعي سبيرس نهائيا من لبنان وحل محله مستر شون.

انذار بريطاني بواسطتي

اعلنت الحكومة اللبنانية رفضها التوقيع على أية معاهدة مع فرنسا، فما كان من الحكومة الفرنسية إلا أن لجأت الى تهديد لبنان، فخلق ذلك كله جواً من التوتر الشديد في المنطقة. وامتدت أصداء الأزمة الى العالم العربي كله.

وذات صباح، وأنا في سفارتي في القاهرة، اذا بي أفاجأ بدعوة من السر ادورد غريغ الوزير البريطاني المقيم في القاهرة والمفوض بأمور الشرق الاوسط.

لبيت الدعوة فأخبرني أنه مطلع على كل ما يجري في لبنان. وأضاف «واحب أن لا تنسى أننا لا نزال في حالة حرب، ولا نريد أن تحدث تحديات بينكم وبين فرنسا. لذلك أطلب اليك أن تبلغ حكومتك أن تلتزم الهدوء وأن لا تقدم على مشاغبات قد تضر بوضع جيوش الحلفاء في لبنان والشرق الاوسط».

فأجبته: «إني سأبلغ رسالتك الى حكومتي. لكنني أحب أن أوضح لسيادتك أن الاعمال التي تشير اليها تصدر عن السلطات الفرنسية لا عنا». وانصرفت.

وفي اليوم التالي دعاني وزير خارجية مصر النقراشي باشا لمقابلته في وزارة الخارجية. وردد علي ما سمعته من الوزير البريطاني.

وفي اليوم الثالث تلقيت دعوة من الملك فاروق لمقابلته.

فاروق ضد المطلب الانكليزي

عندما دخلت مكتبه، وكنت اقابله مرة في الاسبوع تقريبا، بادرني بقوله قبل أن أبدأ بالقاء التحية عليه: «قلك ايه النقراشي؟»

فرويت له حرفيا ما سمعته من وزير خارجيته.

فقال الملك بحدة: «انا وحدي أقرر السياسة الخارجية في هذا البلد، لا النقراشي ولا سواه. لذلك أطلب منك أن تبلغ حكومة لبنان أن لا تعقد معاهدة مع فرنسا وأن لا تخضع لأي تهديد أو وعيد. واذا حصل اي اعتداء على لبنان، فان الجيش المصري مستعد لمؤازرتكم مهما تكن النتائج...»

انتهى كلام الملك فاروق. وأظن أنه أراد أن يزايد العراق الذي وعد لبنان بالمساعدة في حال نزاعه مع فرنسا، ووقف فاروق هذا الموقف بوصفه ملك أكبر دولة عربية، بالاضافة الى لقبه: «ملك مصر والسودان.»

أما أنا فشكرت الملك باسم لبنان على هذه العاطفة الكريمة واستأذنته بالانصراف. وتوجهت فوراً الى السفارة ودعوت تقي الدين الصلح وأخبرته بما جرى مع الملك وقلت له: لا أرى لزوما لأن أبلغ حكومة لبنان ما قاله لي الملك فاروق حرفيا، بل أريد أن أضع رسالة حول مقابلتي للملك مع الاشارة الى الحديث الذي سمعته من الوزير البريطاني والنقراشي باشا لا أكثر ولا اقل.

قلك ايه جلالة الملك

وفي سلسلة المفاجآت التي كرت سبحتها تلك الايام، فوجئت بعد

ساعة من عودتي من زيارة الملك فاروق، وكنت لا أزال أضع الرسالة مع تقي الدين، بمخابرة هاتفية من القصر الملكي، وكان المتحدث اسماعيل باشا تيمور كبير الأمناء في القصر، فسألني هل أستطيع أن استقبله فورا في السفارة، فأجبته بالموافقة.

وقبل أن يصل اسماعيل باشا استعجلت اعداد الرسالة وطبعها على الآلة الكاتبة لأني خشيت ان تكون لزيارة اسماعيل باشا علاقة بحديثي مع الملك.

وعندما حضر كبير الامناء سألني على الفور:
ـ سعادتك كنت متشرف بمقابلة جلالة الملك؟
قلت: نعم.
قال: قلك ايه جلالة الملك؟

قلت: ان جلالته قال لي انه يحب لبنان ويعطف عليه كل العطف وهو يتابع باهتمام الاحداث التي تجري فيه خصوصا المشادة القائمة الآن بينه وبين فرنسا. ولكن بما أن الحالة الدولية لا تزال متأزمة، فقد رغب الي أن أوصي حكومتي بالتريث وعدم خلق أزمات في جو الحرب الذي يغمر المنطقة، وأن جلالته مستعد لدعم موقف لبنان السياسي في كل المجالات.

هو كده . . .

فسألني تيمور باشا بدهشة : جلالته ما قلكش حاجة غيرها؟

اجبت : من عادة جلالة الملك ان يشرفني باحاديث خاصة ليس لي ان اردها لا لحكومتي ولا لاحد. اما حديثِ جلالته الرسمي فقد سجلته. واعددت رسالة الى حكومتي عن المقابلة التي شرفني بها اضعها تحت تصرفك اذا اردت.

ثم طلبت من تقي الدين بك ان يسلم اسماعيل باشا نسخة عن الرسالة. فاخذها وقراها باهتمام، ثم قال لي والانشراح باد على وجهه : «هو كده! » وكانه كان يخشى ان اذكر في رسالتي الى الحكومة اللبنانية ما قاله لي الملك عن النقراشي باشا، وعن استعداده للدفاع عن لبنان عسكريا اذا لزم الامر. فشكرني كبير الامناء وانصرف.

عزام باشا والشيخ نجيب الدحداح

لا استطيع ان اروي كل قصة من قصص سفارتي في مصر. لكن قصة الشيخ نجيب الدحداح مع جامعة الدول العربية وامينها العام عبدالرحمن عزام باشا تستحق ان تروى، لانها ذات مغزى كبير، ولانها تدل دلالة ساطعة على العقلية التي كانت مسيطرة في لبنان على طرفي «الميثاق الوطني».

ذات يوم تلقيت دعوة من عزام باشا لايفاد ممثل عن السفارة الى اجتماع تعقده اللجنة الثقافية برئاسته في جامعة الدول العربية. فكلفت السيدين تقي الدين الصلح ونجيب الدحداح حضور الاجتماع.

ولما دخلا على امين الجامعة العام قدم تقي الدين زميله الى عزام باشا بقوله : الشيخ نجيب الدحداح.

ولم يكن يخطر ببال عزام باشا ان لقب «الشيخ» يجوز ان يحمله رجل غير مسلم.

وعقد الاجتماع برئاسة الامين العام وافتتحه عزام باشا بكلمة عن رسالة الجامعة وما تنتظره الشعوب العربية منها. وقال ان الثقافة

العربية تنبع من الاسلام وان جامعة الدول العربية يجب ان تتخذ القرآن الكريم دستورا لها. وشدد على الصلة الوثيقة بين رسالة الجامعة العربية والاسلام.

وكان عزام باشا معروفا بفصاحته وتدفقه في الكلام. فتكلم في الموضوع طويلا.

كنت في مكتبي في السفارة حوالي الظهر مكبا على اوراقي حين طرق بابي. ودخل علي الشيخ نجيب مقطب الجبين. وبادرني بقوله : يا اكسلانس. انا عائد لتوي من الجامعة وقد سمعت اشياء أرى من الواجب أن ألفت انتباهك لها.

قلت : ماذا يا شيخ نجيب؟ هدئ روعك واخبرني ماذا حدث. خير انشاء الله.

قال : يريدون ان يجعلوا الجامعة العربية جامعة اسلامية دستورها القرآن. ارجوك يا اكسلانس ان تفعل شيئا في الحال.

قلت وانا ابتسم : وماذا اذا كان القرآن دستور الجامعة؟ ان القرآن الكريم يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. وهو يلتقي والانجيل كما نلتقي نحن المسيحيين في لبنان مع اخواننا المسلمين. ولبنان يجد في ذلك الخير كل الخير. فلماذا انت منفعل؟

واضفت : وعلى كل اذهب الى مكتبك الان واكتب لي تقريرا بما سمعت ورأيت. وبعد ذلك نرى.

ولما خرج الشيخ نجيب من مكتبي دعوت تقي الدين فدخل علي وهو

يضحك وقال : — التقيت زميلنا الشيخ نجيب وهو خارج من عندك فلم يرني من شدة انفعاله. لا شك انه حدثك عن خطاب عزام.

قلت : — وهو كذلك. قل لي ماذا جرى. وماذا قال عزام باشا؟

خوف من العروبة

فقص علي تقي الدين، وهو لا ينقطع عن الضحك، ما كان. وقال ان عزام تكلم فعلا عن العلاقة الوثيقة بين الثقافة العربية والاسلام، وان الاسلام هو ينبوع الحضارة العربية، وعلى الدول العربية ان تستلهمه وتغرف من هذا الينبوع الغزير وتتخذ القرآن دستورا لها.

وكأني بالشيخ نجيب، وكان بعد في عنفوان صباه لم يهضم ما سمع من حديث عزام الذي تكلم وكأن الشيخ نجيب احد فقهاء المسلمين، وقد ظنه عزام كذلك بسبب لقب الشيخ الذي يحمله صديقنا نجيب.

قلت لتقي الدين : الله يوجه لك الخير ويحفظك يا رياض! كم كنت حكيما ومخلصا لرسالتك الاستقلالية حين اكتفيت بالقول ان لبنان «ذو وجه عربي» ولم تقل في ذلك الحين انه عربي.

وقد كان رياض ينادي بضرورة التصرف دائما بشكل يطمئن المسيحيين. وهو الذي ركز دائما «على الوحدة الوطنية، وعمل على تمكين الاخوة بين المسلمين والمسيحيين. وكان يحرص اشد الحرص، لمصلحة القضية العربية ذاتها، على ابراز الطابع المميز للبنان، امام العالم، وطالما سمعته يقول، لو لم يكن لبنان، لكان على العرب ان يوجدوه كما هو، وبهذا الطابع المميز، لكي يثبتوا للعالم ان قضيتهم قضية وطنية وقومية، وليست قضية طائفية ولا دينية.

اني ارى في رد الفعل العنيف الذي قابل به صديقنا الشيخ نجيب كلام عزام باشا تجسيدا للحذر والقلق والخوف الذي يساور فريقا كبيرا من مسيحيي لبنان من العروبة.

– وعلى كل، قلت لتقي الدين، اني مصمم على ان لا اعلق اية اهمية على ما يشعر به زميلنا الدحداح. وسأفعل ما يمليه علي واجبي ووطنيتي.

وبعد قليل عاد الشيخ نجيب الى مكتبي وفي يده التقرير الذي طلبته منه. فتناولته ووضعته على طاولتي. ولما انصرف الشيخ نجيب، وتقي الدين لا يزال في مكتبي اخذت التقرير ومزقته من دون ان اقرأه.

وانتظرت يومين الى ان تهدأ الامور. ودعوت الشيخ نجيب الى مكتبي وقلت له : «اريد ان اعدّك انت ورفاق جيلك الذين يتسنى لي ان اتعاون معهم لان تصيروا سفراء ممتازين في المستقبل. قد قرأت تقريرك وادركت رد الفعل في نفسك. ولو كنت مكان عزام باشا لقلت ما قاله دون ان اتنكر لديني، لان القرآن والانجيل يلتقيان كما يلتقي الاسلام والمسيحية في الموضوع الذي اثاره عزام».

وصحت نبوءتي في الشيخ نجيب وصار سفيرا كفيا.

واذكر اني طلبت منه يومذاك ان لا يطلع احدا على التقرير، او يتكلم عنه. فوعدني بذلك.

لكنه بعد سنوات باح لي بانه ارسل نسخة عن التقرير، خفية عني، الى الشيخ بيار الجميل مع رسول امين...

والشيخ بيار لم يعر الامر اي اهتمام وطوى التقرير بحكمته كما طويته انا.

سليم تقلا

في الخامس من كانون الثاني سنة ١٩٤٥، وفيما انا مسافر الى الاسكندرية، جاءني تلفون من بيروت ينعي الي المغفور له سليم تقلا وزير خارجية لبنان.

حزنت كثيرا. كنت وسليم تقلا اخوين: فلم انم تلك الليلة من كثرة الحزن والالم.

وانا اليوم عندما استعيد في ذاكرتي صورته احن اليه حنين الانسان الى ذكرى عزيزة غالية ترتاح اليها النفس ويرضى عنها العقل. فسليم تقلا كان رجلا نادرا في مزاياه، وعلمه، وذكائه ونقاء ضميره ونظافة كفه.

كان انيق المظهر، كبير النفس، انوفا، وفيا باصدقائه، مخلصا لوطنه اخلاصا رفعه الى مصاف رجال الرعيل الاول الذين عملوا وجاهدوا في سبيل تحريره. ولكن لبنان لم يفه حقه ولا خلد ذكراه بوسائل التخليد المادية التي الفتها الشعوب. فلا شارع يحمل اسمه، ولا تمثال له، لكن اسمه محفور في قلوب اللبنانيين.

واذا كانت سياسة لبنان الخارجية قد تركزت على اسس سليمة وصحيحة بتوجيه من الرئيسين الخوري ورياض الصلح، فالفضل الاول في ذلك يرجع لسليم تقلا.

وبعد مراسم الدفن والتعزية عين هنري فرعون وزيرا للخارجية.

*

في مطلع شباط ١٩٤٥ بدأت كفة انتصار الحلفاء على هتلر ترجح رجحانا لا شك فيه. وصار واضحا ان هزيمة المانيا وشيكة.

الى سان فرنسيسكو

وفي هذا الوقت بالذات بدأ الاستعداد لتهيئة مؤتمر يعقد في سان فرنسيسكو وتحضره جميع الدول الحليفة. وعلمت ان مصر قد دعيت اليه، فطلبت مقابلة النقراشي باشا وزير الخارجية المصرية واستوضحته عن المؤتمر وغايته، فقال لي ان الدعوة وجهت الى الدول التي هي في حالة حرب مع المانيا، وان مصر اعلنت عليها الحرب قبل يومين. فاتخذت بنفسي على الفور المبادرة للاستفادة من هذا الظرف الهام، وفكرت في اننا اذا فعلنا مثل ما فعلت مصر دعينا بدورنا الى مؤتمر سان فرنسيسكو، وكرس ذلك استقلال لبنان بوثيقة دولية.

ولم تكن بيروت قد علمت بالامر بعد.

وفورا اتصلت تلفونيا بوزير الخارجية هنري فرعون. وكان الاتصال الهاتفي يومذاك بين لبنان ومصر سهلا جدا. وسألته الموافقة على ان اسلم سفير سويسرا، المكلف رعاية المصالح الالمانية في مصر، كتابا باعلان لبنان الحرب على المانيا كي يتسنى لنا حضور المؤتمر الذي سيمهد لانشاء هيئة الامم المتحدة في سان فرنسيسكو.

ووافق الوزير من دون تردد بعد ان اخذ موافقة الشيخ بشارة ورياض الصلح.

فوضعت الكتاب وقابلت في اليوم التالي سفير سويسرا وسلمته وثيقة «اعلان الحرب»، ثم قابلت النقراشي باشا وسلمته نسخة عن الكتاب وطلبت اليه ان يساعدنا على ضمان دعوتنا الى المؤتمر.

بعد ايام اتصل سفير اميركا بالحكومة اللبنانية ودعاها لارسال وفد باسم لبنان الى سان فرنسيسكو.

وبعدها كلمني هنري فرعون بالتلفون واخبرني ان الوفد قد تألف من وزير الداخلية وديع نعيم وعبدالله اليافي وعرض علي ان اكون العضو الثالث فيه. واضاف ان صبحي محمصاني سيشترك في الوفد مستشارا قانونيا، وان الثلاثة يصلون بعد اسبوع الى القاهرة، لنسافر معا الى سان فرنسيسكو.

وانبأني وزير الخارجية بأن سورية أعلنت الحرب بدورها على المانيا وستشترك في المؤتمر، وكذلك العراق والسعودية التي شكلت وفدها برئاسة الامير (الملك) فيصل. وشكل الوفد السوري برئاسة فارس الخوري.

لدى وصولنا الى سان فرنسيسكو لقينا سفيرنا الدكتور شارل مالك في انتظارنا فرحب بنا وانضم الى الوفد.

وبعد يومين توفي الرئيس الاميركي روزفلت وخلفه في منصب الرئاسة نائبه ترومن.

الدكتور مالك يتكلم باسم لبنان

وبدأ المؤتمر اعماله، وراحت وفود الدول تتبارى في شجب الاعمال البربرية التي ارتكبها الالمان في الحرب. ثم طلب الى كل دولة ان تبدي رأيها في صيغة الميثاق المقترح لانشاء هيئة الامم المتحدة.

ورأينا ان رئيس وفدنا لغته الفرنسية ضعيفة، وهو يجهل

الانكليزية، وان سفيرنا شارل مالك من فرسان الخطابة بالانكليزية، ولكلامه تأثير اوقع، فاخترناه ليلقي كلمة لبنان. فالقاها واجاد، وصفقوا له تصفيقا حارا.

الا ان نشوتنا بنجاح خطيبنا صدمتها زيارة من مسيو بيدو رئيس الوفد الفرنسي لنا، جاء يعاتبنا على تفضيلنا الكلام بالانكليزية على لغته «التي يتقنها اللبنانيون والتي بقيت لغة لبنان الرسمية طوال ربع قرن»... فصارحناه الحقيقة. وشعرنا اننا لم نقنعه كثيرا، فقد كان شديد الانفعال بحساسية الصراع القائم في اروقة المؤتمر بين اللغتين، وميل كثير من الوفود الى اختيار استعمال اللغة الانكليزية على الفرنسية، وهي اللغة التي بقيت قرنين كاملين لغة الديبلوماسية في العالم.

وما كان عتاب مسيو بيدو ليقلل من تأثير بلاغة الدكتور مالك في جميع الوفود. بلاغة اجتمعت الى الحكمة والرصانة واللباقة في معالجة القضايا الدولية بروح الحق، اكسب صاحبها احترام وفود الدول كلها، وممّا حمل هذه الوفود على اختياره في احدى الدورات رئيسا للجمعية العامة لهيئة الامم. وكان هذا الاختيار المستحق موضوع اعتزاز لبنان والعرب والشرق.

كانت الدول الصغيرة، مثل لبنان، مجمعة على أن هيئة الامم المتحدة ستكون ملجأ وحصنا لها يحميها من كل عدوان. لكن عندما بدأ البحث في نظام هيئة الأمم ومجلس الأمن الدولي وأعطيت الدول الخمس الكبرى، أميركا، الاتحاد السوفياتي، فرنسا، بريطانيا، والصين، حق الفيتو، شعرت الدول الصغيرة ان طمأنينتها بدأت تواجه خيبة الأمل في أول الطريق، فحصلت مشادة بين هذه الدول بالنسبة الى حق الفيتو، وسويت القضية في النهاية بالتراضي.

انتحار هتلر وتدمير هيروشيما

وفي اوائل ايار ١٩٤٥ وكنا لا نزال في سان فرنسيسكو تبلغنا رسميا ان هتلر قد انتحر، وان ألمانيا استسلمت من دون قيد او شرط، على ان الحرب بقيت مستعرة بين الحلفاء واليابان.

واستعجالا للصلح ضربت الولايات المتحدة الاميركية مدينتي هيروشيما ونيكازاكي بالقنبلة الذرية، فاستسلمت اليابان بدورها. وهكذا انتهت الحرب العالمية الثانية.

سلوم مكرزل، والمغتربون، ومساعداتهم لنا

وقبل ان اختتم فصل «سان فرنسيسكو» هذا، يطيب لي ان استعيد الذكرى الطيبة التي تركها في نفوسنا وجود عدد من المغتربين بجانبنا وحفاوتهم بنا، واعتزازهم بوطنهم الاول لبنان، السيد المستقل، الجالس مع دول العالم كما يجلس الند مع الند، يشترك وفده اشتراكا فعليا في بناء الغد، ويسهم في وضع الشرائع التي يجب ان تحترمها وتسير عليها الشعوب.

كان الاستاذ سلوم مكرزل صاحب جريدة « الهدى» يرافقنا ويحضر معنا جلسات المؤتمر ويعتبر نفسه، كما نعتبره نحن، عضوا في وفد لبنان.

وكان سلوم في نظرنا يمثل كل مغترب لبناني خرج من هذه الارض الطيبة، ونشر اسم لبنان تحت كل كوكب.

والمغتربون اللبنانيون الذين خرجوا من وطنهم الصغير وانتشروا تحت كل سماء استحقوا شكر لبنان. لقد بنوا في كل بلد نزلوه لبنانا جديدا. وتبوأ الكثيرون منهم اسمى المناصب. وكانوا، وهذه هي ميزتهم الكبرى، اوفياء للاوطان الجديدة التي احتضنتهم وفاءهم للوطن الام.

على رأس وزارة الداخلية

في شهر تموز ١٩٤٥ غادرنا سان فرنسيسكو وعدنا الى بلادنا.
ولم البث ان رجعت الى القاهرة ملتحقا بمنصبي فيها بعد ان غبت عنه بضعة اشهر.

في ايلول ١٩٤٥ تلقيت تلفونا من الرئيس الشيخ بشارة الخوري يعلمني فيه ان الحكومة قد استقالت ويسألني هل اقبل حقيبة وزير الداخلية في الوزارة الجديدة التي يرئسها سامي الصلح. فاجبته بالقبول شاكرا ثقته بي.

كنت اعرف سامي الصلح معرفة جيدة واعرف المزايا الكثيرة التي تحلى بها. فهو ينتمي الى الارومة الصلحية الطيبة التي اعطت لبنان من اعطت من افذاذ الرجال. وهو عف اليد عف اللسان، طيب القلب الى حد ان الجاهل يحسب طيبته نوعا من السذاجة، وهي ليست كذلك. لقد كان سامي الصلح انسانا بعيدا عن الشر كل البعد. قريبا من الخير. ولو ان المحبة، والحدب على الفقير والملهوف، وطهارة النفس تجسدت في رجل، لاختارت سامي الصلح.

والذين رافقوا السياسة اللبنانية في تلك الايام، يذكرون ان الرجل اختير شخصيا ليرئس الحكومة الجديدة على اثر حملة عنيفة شنها في بعض الصحف والاندية على ان الطائفة الاسلامية مغبونة في الوظائف،

ولا سيما الرئيسية منها. وقد أثرت هذه الحملة والنغمة في بعض الأوساط، سلبا وايجابا، والشيء معقول جدا لأن الضرب على وتر الدين شديد الفعل في النفوس، ولا سيما في الشرق.

وكان الاستقلال طري العود، والاهواء الخارجية غير مضمونة

الجانب، فخشي الرئيس الخوري ان تعصف عاصفة هوجاء بغصونه الفتية وتكسر في جذوره، فوافق على دعوة سامي الصلح لتأليف وزارة جديدة تعمل لاجل انصاف المسلمين في الوظائف ولا سيما الرئيسية منها.

وبدأت استعد لمغادرة القاهرة. فطلبت موعدا لمقابلة الملك فاروق واستئذانه بالسفر. ومكثت اسبوعين انجزت فيهما بعض الاعمال المتعلقة بالسفارة. ثم لبيت دعوة وزير الخارجية المصرية الى الغداء، ودعوة اخرى من الجالية اللبنانية، وزرت الوزراء المصريين الذين تربطني بهم صلة ود وصداقة. ورجعت الى لبنان.

وعندما وصلت الى مطار بيروت رأيت في استقبالي بعض الوزراء الجدد وعددا من الاصدقاء.

بوحي من ضميري عملت

تسلمت وزارة الداخلية وبدأت امارس عملي فيها واحرص كل الحرص، على ان لا احيد فيها عن الخط المستقيم الذي رسمته لنفسي في حياتي.

كنت انظر الى الامور التي تعرض علي بعين البصيرة لا بعين البصر. واعالجها بوحي من ضميري ووطنيتي ومعرفتي. ولا اترك لهوى النفس، او لعاطفتي الشخصية نحو الناس ايا كانوا، اي مجال للتأثير فيّ او في المقررات التي اتخذها، سواء أكان الشخص صديقا لي او خصما.

في اليوم الثاني من تسلمي الوزارة جاءني السيد ناظم عكاري رئيس الديوان في رئاسة الوزراء وعرض علي مرسوما للتوقيع.

قرأت المرسوم، فاذا هو يقضي بترقية مفتش في الشرطة الى رتبة مفوض عام.

وكان توقيع الرئيس سامي الصلح على المرسوم.

فقلت لناظم: هذا المرسوم يقول في نصه انه قدم بناء على اقتراح وزير الداخلية، وهذا يعني انني انا الذي اقترحت ترقية الافندي انني لا علم لي بذلك.

رئيس الحكومة لا يمون علي

فقال لي ناظم: رئيس الحكومة بيمون...

قلت: لا. اذا كان بيمون عليك فلن يمون علي في تقديري للقضايا العامة. لذلك لن اوقع على المرسوم من غير ان ادرس ملف المفتش المطلوب ترقيته، واذا كان يستحق الترقية بالفعل فعندئذ ساقترح بوصفي وزيرا للداخلية ترقيته حسب الاصول.

فقال عكاري بلباقة وديبلوماسية: ولكن يا معالي الوزير، لا تستطيع ان تبدأ عهدك مع دولة الرئيس بتفشيله بقضية من هذا النوع.

اجبته: لن اتراجع. بلغ ذلك دولة الرئيس.

وسألني عكاري: وماذا تريدني ان اجيبه اذا سأل عن المرسوم؟

فتناولت المرسوم وقطعته قطعتين، وقلت له: ارجو ان تعيده الى دولة الرئيس وتضيف على ذلك: اذا كان يريد ان يعمل مني كاتبا للتوقيع على معاملاته، فانا مستعد لان اترك الحكم الان.

ومرت الايام وانتظرت ان يباحثني سامي بك في الامر، لكني لم اسمع منه شيئا بهذا الخصوص.

قانون المطبوعات

رأيت وانا احمل تبعات وزارة الداخلية ان اساعد الصحافة على وصولها الى المستوى الراقي الذي يطمح اليه رسلها المخلصون، ويليق ببلد راق، وذلك بتنظيم شؤونها المعنوية والمادية تنظيما «جديدا» يقيها العثرات : فان كثيرين من المتطفلين الجاهلين رسالة الصحافة السامية والظانين ان الجريدة اداة ابتزاز وتهويل قد اندسوا في صفوفها بصفة او باخرى حتى كادوا ينالون من سمعتها.

وصار الصحافيون الحقيقيون ذوو الثقافة والاخلاق العالية يتبرمون بالانتقادات المرة التي اخذت تنصب على المجموع الصحافي باسره.

ورأيت الخطر الاكبر في ان يظل باب اصدار الصحف مفتوحا ومباحا، بلا قيد ولا شرط، حتى صار عدد الجرائد اليومية (ولا اذكر الاسبوعية) اكثر من اربعين جريدة في ذلك الزمان، في بلد صغير كبيروت.

والعادة الموروثة عن العهد العثماني، ان كل من يصدر جريدة يعد قائمة باسماء من هم «اصحاب وجاهة وشأن» ويرسل اليهم جريدته او مجلته. والويل لمن يرد المطبوعة «معادة مع الشكر»!

لهذه الاسباب رأيت ان انقذ المجتمع وانقذ سمعة الصحافة من تطفل المهولين وخطر الاميين فوضعت مشروعا بقانون احلته على المجلس النيابي هادفا الى وقف فيضان اصدار الجرائد، وذلك بمنع اعطاء

رخصة جديدة الا في مقابل الغاء امتيازين لجريدتين تصدران، وبفرض خمسة الاف ليرة ضمانا ماليا على كل امتياز جديد (بدلا من ٥٠٠) ، وبمنع ارسال الجريدة الى مشترك الا بطلب خطي منه. واذا تأخر صدور الجريدة ثلاثة اشهر متوالية، او اذا قل عدد النسخ المطبوعة من الجريدة اليومية عن الف وخمسماية نسخة الغي الامتياز. وكافح المشروع الذي وضعته خطر التهويل (الشانطاج) كفاحا قاسيا، وضمن كرامة الناس من تهديد المهولين، الخ...

وكنت اتوقع ان كثيرين من الصحافيين يؤيدون مشروعي، ولكن حدث ان اعترضت عليه نقابة الصحافة، والشاكون من تدهور سمعة الصحافة والمؤمنون بفوائد ما نص عليه المشروع من ضوابط وقيود، كانوا في مقدمة المعترضين عليه، حتى لا يتهموا بانهم «لم ينصروا الحرية»، فقلت : لا حول ولا قوة الا بالله!

استقبال سفير فرنسا بالحفاوة

كان قد مضى شهر على وجودي في وزارة الداخلية عندما اتصل بي الجنرال بينه سفير فرنسا في لبنان، واعرب لي عن رغبته في زيارتي في السرايا لتهنئتي.

كان الفرنسيون في ذلك الوقت شبه معزولين على الصعيد الرسمي وعلى صعيد المجتمع. الا انني رأيت من واجبي ان استقبل السفير بكل حفاوة وان اعامله كما يعامل رؤساء البعثات الديبلوماسية في لبنان.

وعلى هذا طلبت من مفوض شرطة السرايا ان يطبق عند حضور سفير فرنسا المراسم عينها التي تجري عند زيارة الجنرال سبيرز.

وهكذا كان. وفي وصول السفير الفرنسي الى دار الحكومة استقبله صف من ٢١ شرطيا بالتحية الرسمية وودعوه بالمراسم عينها لدى انتهاء الزيارة

فهمت من لهجته انه عاتب

في اليوم التالي دعاني فخامة الرئيس الى القصر الجمهوري ودخلت مكتبه ووجدت عنده صديقي حبيب ابو شهلا.

تولى ابو شهلا الكلام، فقال لي وهو يرسم على وجهه ابتسامة عتب: شو هالاستقبال العظيم للسفير الفرنسي؟ كيف بتعمل هيك

فاجبته بحدة: انه سفير. والعرف الديبلوماسي يوجب علي ان استقبله كما استقبل سائر السفراء. والذي اعرفه ان الجنرال سبيرز، سفير بريطانيا، يستقبل بالمراسم نفسها. وعلى كل حال انا واسع الاطلاع بالاصول الديبلوماسية (وهنا وجهت كلامي الى الرئيس الخوري) فقلت: هل افهم يا فخامة الرئيس انه كان علي ان اعامل السفير الفرنسي خلافا للاصول الديبلوماسية؟

فاجابني الرئيس بابتسامة تشبه ابتسامة حبيب ابو شهلا: لا. كل ما عملته هو الاصول بعينه.

وفهمت من لهجته انه عاتب.

توقيف النائب رفعت قزعون

ذات يوم وردت على دوائر الامن العام في زحلة افادة تقول ان نائب

البقاع رفعت قزعون ينقل السلاح في سيارته التي تحمل اللوحة الرسمية الخاصة باعضاء المجلس، وانه يفعل ذلك بصورة مستمرة.

وبينما هو منطلق بسيارته من بلدته قب الياس اوقفها حاجز من الدرك وفتشها ممثلو السلطة، فعثروا فيها على كمية كبيرة من البنادق الحربية والذخيرة. فاقتادوا النائب وسيارته الى المحكمة العسكرية. واصدر النائب العام مذكرة بتوقيفه فزج في السجن.

ذلك لان الدستور الذي منح النائب حصانة تحول دون محاكمته او توقيفه، استثنى حالة تلبس النائب بالجرم المشهود.

غير ان صبري حمادة رئيس مجلس النواب لم يكد يبلغه الخبر حتى بادر الى اخطار الحكومة بوجوب طلب رفع الحصانة عن رفعت قزعون، ووافق المجلس على الطلب.

وقضى نائب البقاع في التوقيف واحدا وعشرين يوما.

تسلمنا ادارة الامن العام

كانت الامور تسير على اكمل وجه، وقد استلمنا من الفرنسيين ادارة الامن العام. وعندما باشرنا وضع اليد اللبنانية الرسمية عليها، تردد الفرنسيون بعض الوقت وكان موظفو الامن العام يعتبرون موظفين لدى الحكومة الفرنسية. وكثيرون من هؤلاء تلكأوا في الانتقال من سلطة الانتداب الفرنسي الى سلطة الدولة اللبنانية. وكان علينا ان نستبدل بهم سواهم.

واقترحت تعيين اربعين موظفا جديدا. ووضعت شروط المباراة

لاختيار الناجحين، وبعد الامتحان الذي اشرف عليه اكفياء واختصاصيون، جاء عدد الفائزين متفقا مع حاجة الامن العام ومطابقا تقريبا لقاعدة التوزيع الطائفي.

وحملت نتائج المباراة الى القصر وعرضتها على رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة. وقلت لهما انه من حسن الصدف ان الناجحين في المباراة نصفهم من الطوائف المسيحية والنصف الاخر من الطوائف الاسلامية.

المسلمان جان وميشال

قال لي الرئيس الصلح : ولكن لا تنس اني انا نائب المسلمين في بيروت، واريد ان يكون لي حق اختيار بعض ابناء طائفتي.

اجبت وانا اتطلع الى ردة الفعل في وجه الرئيس الخوري : الحمدلله ان نتيجة الامتحان امنت المساواة، فلا اظن ان هناك مجالا للتعديل.

فالتفت الشيخ بشارة وقال بهدوئه المعهود : لا بأس. تفضل يا سامي بك، مين بتريد تعين من ابناء المسلمين؟

فقال سامي بك : جان ايليان وميشال عيسى...

تطلعت الى الشيخ بشارة والدهشة على وجهي، فرأيته يكاد ينقلب على ظهره من الضحك. والتفت الى سامي بك وقلت له : ولكن، يا دولة الرئيس هذان ليسا من الطائفة التي تعنيها.

فقال : لا بأس، انا هكذا ارتأيت.

وجاريت رغبته ووضعنا جان وميشال في عداد المعينين.

رجال الشرطة في خدمة الوزراء والنواب

ابلغوني ذات يوم وانا في مكتبي في وزارة الداخلية ان شجارا نشب في ساحة النورية، واصيب احد المتشاجرين بجراح خطرة، وان رجال الامن لم يحضروا الى مكان الحادث، القريب من مركز الشرطة، الا بعد مضي ساعتين من وقوعه.

استغربت النبأ، فدعوت السيد عارف ابراهيم مدير الشرطة يومها، وسألته الحقيقة، فأجابني بأن ذلك صحيح. وهو لم يرسل الشرطة لأن ليس لديه شرطي واحد.

○ كيف تقول هذا، وانا اعلم ان في تصرفك ثلاثين شرطيا احتياطيا؟

ـ صحيح، ولكن كلهم مرتبطون بخدمة الرؤساء والوزراء وبعض النواب والمديرين.

○ كيف ذلك، وانا ليس عندي أحد؟

ـ تذكر معاليك، اننا عرضنا عليك يوم تشكيل الوزارة ان نضع شرطيا في تصرفك فرفضت.

○ نعم، لكني ظننت انكم عرضتم علي ذلك بصفتي وزيرا للداخلية.

ـ لا يا سيدي.... فجميع الرؤساء والوزراء وبعض النواب عندهم شرطة في بيوتهم.

وكان بديهيا أن آمر عارف ابراهيم بأن يسحب على الفور، شرطة

الاحتياط من بيوت رجال الدولة، وان يبقي واحدا فقط عند رئيس المجلس، وآخر عند رئيس الوزراء.

ورجع مدير الشرطة الى مكتبه، ونفذ تعليماتي.

وتعالت الصرخة. وفي المساء استدعاني فخامة رئيس الجمهورية وقال لي، إن تدبيري هذا، أحدث «ضجة» مزعجة لدى رئيس مجلس النواب وئيس الوزراء ـ وكان الأول الحق به سبعة، والثاني خمسة ـ وأن من الواجب تدارك الأمر، و... و... فتمسكت برأيي، وهو ان الشرطي موظف ليحافظ على الأمن، لا ليكون خادما في بيوت اصحاب المعالي.

ودار الجدل بيننا. واخيرا قبل الرئيس بسحب الشرطة من عند الوزراء والنواب، وابقاء اثنين فقط عند رئيس مجلس النواب واثنين عند رئيس مجلس الوزراء.

ومرت الأيام بعد تركي الوزارة. وعرفت ان المهزلة عادت الى سابق عهدها، وأن عدد الشرطة الذين في تصرف الرؤساء والوزراء والنواب الحاليين والسابقين، قد ازداد كثيرا عما كان عليه في أيامي.

وتسلمنا الاذاعة

ولم يمض وقت طويل حتى طلبنا استلام الاذاعة من الادارة الافرنسية تماطل في التسليم، وانا أصر عليهم. وبالنهاية فهمت أنهم يريدون الحصول على وعد بالمحافظة على دوام استعمال اللغة الفرنسية مع اللغة العربية في الاذاعة، فاجبتهم بالموافقة ايمانا مني بأن لبنان بلد منفتح على الحضارة ويحترم اللياقات والأصول الديبلوماسية، ولذلك فانه سيتابع اذاعة النشرة الفرنسية لا تقديرا منه لفرنسا وحسب، بل لأن لبنان ملتقى الحضارات والاجانب في الشرق الاوسط.

طلب حل بلدية برمانا

كان السياسيون في اول عهدهم يهتمون كثيرا بسياسة البلديات والمخاتير. وبدأت بعد الاستقلال حملة التشفي والانتقام.

وذات يوم طلب مني الشيخ بشارة ان اصدر قرارا بحل بلدية برمانا للتخلص من رئيس البلدية السيد شاهين الاشقر صديق اميل اده. فاجبته بكثير من العفوية والسذاجة«ساوفد مفتشا من وزارة الداخلية ليحقق في الامر. فاذا وجد ان البلدية مقصرة بواجباتها وتؤخذ بتبعات جدية اصدرت قرارا بحلها في الحال.»

ولما هممت بالانصراف، قال الشيخ بشارة : «ان قضية بلدية برمانا تهم زميلك الاستاذ اميل لحود. فارجو ان تخدمه في هذا الموضوع.» وكان اميل لحود وزيرا للمالية.

قلت للرئيس : اذا كانت البلدية مقصرة في واجباتها ومأخوذة بتبعات جدية فان قرار الحل يصدر بدون تأخير.

وفي اليوم التالي طلبت الى السيد محمد صبرا المفتش في وزارة الداخلية ان يحقق في اوضاع بلدية برمانا

وبعد ثلاثة ايام عاد السيد صبرا وقال لي : لم اجد اي تقصير من البلدية او أية مخالفة تؤاخذ عليها.

فطلبت منه ان يضع تقريرا بذلك. ففعل.

اخذت التقرير وعرضته على الرئيس، وقلت له وانا اسلمه التقرير :

في ضوء ما اطلعت عليه لا استطيع حل بلدية برمانا.

تناول التقرير مني. وقبل الامر على مضض. ولما استأذنته بالانصراف ودعني بفتور.

طلب ترقية موظف محكوم تاديبيا

شغر مركز محافظ جبل لبنان، وبدأنا نبحث عن محافظ جديد. واذا بالشيخ بشارة يتصل بي ويطلب مني تعيين قائمقام جديدة المتن في هذا المنصب.

استمهلته ريثما ادرس ملف الموظف المعني.

لما اطلعت على ملفه عثرت على حكم صادر بتوقيفه عن العمل مدة شهر كامل، بسبب اجراءات غير قانونية اقدم عليها في القائمقامية.

وعرضت الامر على رئيس الجمهورية، وقلت له : متأسف يا فخامة الرئيس، لا استطيع ان استصدر مرسوما بتعيين فلان.

اجابني الرئيس : ولكن كيف العمل؟ لقد طلب مني المطران مبارك تعيينه، ووعدته بذلك.

قلت : آسف يا فخامة الرئيس، لا استطيع ترقية قائمقام الى رتبة محافظ بعد ان صدر عليه حكم في المجلس التأديبي. واني في وقوفي هذا الموقف اكون قد سجلت بادرة حسنة في عهدك. فارجو ان لا تلح علي.

اجابني والحيرة تختلط بعدم الرضى في كلامه : اذن، لكي اتخلص

من المطران مبارك، ساقول له انك انت الذي حلت دون تحقيق رغبته.

قلت : فليكن.

وبعد يومين زارني المطران مبارك وقال : وعدني الرئيس بتعيين قائمقام الجديدة محافظا على الجبل. وقال لي امس انك تأخرت في تنفيذ هذا الوعد.

فقلت للمطران : نعم، انا رفضت التعيين لاسباب قانونية. ان ملف السيد المذكور لا يسمح لي بترقيته. وانت يا سيادة الراعي الجليل يجب ان تساعدني في هذه الامور كي نحافظ على حرمة الادارة ومصالح الناس.

وبالطبع لم يقتنع المطران بكلامي وخرج من عندي غير راض.

انني اروي هذه الذكريات عن بعض ما شاهدته وعانيته مدة قيامي بمهام وزارة الداخلية، ونحن في مطلع الاستقلال. لا لاهمية الحوادث بحد نفسها بل لما تدل عليه من عقلية الحكام والمحكومين في ذلك الزمان.

وكان لبنان يدفع ثمن ذلك كله من تقدمه وتطوره وازدهاره. واتساءل اليوم : هل عفا ذلك الزمان وزالت تلك العقلية ام ان الحالة لا تزال كما كانت عليه؟

على اثر وقوفي هذا الموقف المتصلب من تعيين قائمقام المتن محافظا على جبل لبنان، ورفض مجاراة رغبة المطران مبارك دعاني الرئيس الشيخ بشارة الى القصر وقال لي :

«ان منظمة الامم المتحدة ستجتمع قريبا في لندن. ورأيت ان يكون الوفد اللبناني الى هذه الاجتماعات مؤلفا من وزير الخارجية حميد فرنجية رئيسا ومن رياض الصلح رئيس الوزراء السابق ومنـك. واعتمادي عليك بالنظر لكونك اشتركت في وفد لبنان الى سان فرنسيسكو ولك معرفة وخبرة في شؤون الامم المتحدة كما لك علاقات طيبة ببعض السياسيين الدوليين. وسينضم اليكم كميل شمعون وزير لبنان المفوض في لندن.»

واضاف الرئيس، دون ان يترك لي مجالا للاستفهام او لابداء الرأي: «ان مهمة الوفد لن تقتصر على الاشتراك في دورة الامم المتحدة بل ستتعداها الى ما هو أهم من ذلك، فستنتظركم مهمة اخرى هي ان تتقدموا من مجلس الامن الدولي بشكوى تطلبون فيها جلاء الجيوش الاجنبية عن لبنان».

ادركت على الفور خطورة المهمة فلم اتردد في القبول. ولكن لم يغرب عن بالي ان اسأل : ومن يتولى وزارة الداخلية بالوكالة عني في غيابي يا سيدي الرئيس؟

اجابني الشيخ بشارة بلهجة تنم عن الطمأنينة والارتياح: الوزير اميل لحود.

قلت : ولكنني حريص يا فخامة الرئيس على ان تبقى وزارة الداخلية بعيدة عن صراع الحزبيات والحزازات السياسية المحلية. وانت، يا سيدي، تعرف ان اميل لحود رجل حزبي عنيف لا يتردد في الاقدام على اي عمل تمليه حزبيته من دون مصلحة البلد؟

قال الرئيس وهو يفرك يديه : لا ينشغل بالك. لك ان تطلب الى

الاستاذ لحود ان لا يتخذ في غيابك اي موقف لا ينسجم مع السياسة التي سرت عليها في وزارة الداخلية وان يكتفي بتصريف الاعمال ريثما تعود من مهمتك في لندن.

لبنان في مجلس الامن الدولي

سافرت الى لندن مع حميد ورياض، مرورا بالقاهرة في مطلع العام ١٩٤٦. اقلتنا طائرة مائية عسكرية كانت تنتظرنا في النيل وحملتنا الى مرفأ دوفر على شاطيء المانش ومنه ركبنا القطار الى لندن.

ولدى وصولنا وجدنا في استقبالنا كميل شمعون وزير لبنان المفوض في العاصمة البريطانية، وبرفقته ممثل عن وزارة الخارجية البريطانية. وقد اعد للوفد جناح خاص في فندق «ماي فير».

انصرفنا الى حضور جلسات الامم المتحدة والاشتراك في المناقشات التي استمرت شهرين كاملين. وما ان انتهت دورة الجمعية العمومية حتى تقدمنا بشكوى الى مجلس الامن بالاشتراك مع الوفد السوري.

كان يساورني شعور بالقلق نابع من خطورة القضية التي ندب لها وشاء قدري ان اسهم فيها، قضية جلاء الجيوش الاجنبية عن بلادي.

كنت اشعر باننا مقبلون على معركة يتوقف عليها استكمال الاستقلال. فاما ان نفوز بانتزاع قرار من مجلس الامن يحقق امانينا، واما ان نهزم فتعود عجلة التاريخ الى الوراء ونستأنف الكفاح من جديد. بهذا الشعور ولجت باب القاعة التي خصصت لاجتماع مجلس الامن. وقلت في نفسي اننا لسنا وحدنا في المعركة. سنخوضها واخواننا السوريون جنبا الى جنب. وستقف الى جانبنا ولا شك الدول الصديقة.

نزاع لا حالة

عرضت على مجلس الامن الدولي، في جلسته المنعقدة في ١٤ من

شباط ١٩٤٦ شكوى لبنان وسورية، فبحث المجلس طوال جلسة كاملة مبدأ ما اذا كانت الشكوى نزاعا ام حالة. وهذا البحث ضروري لمعرفة ما اذا كانت فرنسا وانكلترة العضوان الطبيعيان في المجلس المذكور يحق لهما التصويت في مجرى المناقشات. ومن الدقائق الاولى ظهر تياران في الجلسة متناقضان ومتعاكسان : اولهما اميركي ومعه اكثر الاعضاء عاطف على فرنسا وانكلترة، والاخر سوفياتي بولوني مصري عاطف على لبنان وسورية.

في الجلسة الثانية بدأ النقاش في صلب الموضوع، فبسط حميد فرنجيه باسم الوفد اللبناني وباللغة الفرنسية شكوانا بوضوح رصين ما بعده وضوح، وقال ان لبنان وسورية قد دخلتا عضوين في هيئة الامم المتحدة فلا يجوز الحد بأي شكل من سيادتهما الكاملة. وبما ان الحرب العالمية قد انتهت، ولم يبق من اي مسوغ قانوني لبقاء جيوش اجنبية في أراضينا، فقد طلبنا الى كل من حكومتي باريس ولندن ان تسحبا جميع جيوشهما فلم تسحباها، وكتبنا اليهما رسميا وفاوضناهما فلم نفلح، وحجتهما ان بينهما اتفاقا على بقاء بعض جنودهما «ريثما تقرر هيئة الأمم التدابير اللازمة للمحافظة على الأمن الاجماعي في المنطقة». وهذا كلام من الدولتين يناقض الميثاق العالمي مناقضة خطيرة.

وبعد حميد فرنجيه بسط فارس الخوري باسم الوفد السوري، وباللغة الانكليزية الاسباب القانونية التي تهيب لمجلس الامن الدولي ان يقبل شكوانا، فموضوع الامن الاجماعي الذي تذرعت به الدولتان هو جزء من الصلاحيات الاساسية لدولتينا، لا يحق للحكومتين المذكورتين ان تتدخلا فيه. وحكومتانا تريان ان بقاء الجيوش الاجنبية على اراضينا يهدد بلدينا بالاخطار، ولهذا نهيب مجلس الامن المحترم ان يدعو الدولتين الى الانسحاب فورا...

ثم فند الرئيس فارس الخوري المزاعم الفرنسية الانكليزية بندا بندا، واجاد.

ولا بد من التذكير ان لبنان وسورية في نضالهما الوطني في تلك المرحلة كانا صفا واحدا، وكلمة واحدة، وهكذا وقف وفداهما امام مجلس الامن الدولي وتكلما.

ووقف على الاثر مسيو جورج بيدو رئيس الحكومة الفرنسية ووزير خارجيتها، فقال :

«ان الجيش الفرنسي موجود في سورية ولبنان للمحافظة على الاستقرار في هذين البلدين، حيث لا تزال تقع حوادث مخلة بالامن. واضاف انه يعترف ان الانتداب الفرنسي على هاتين الدولتين قد انتهى، لكنه يعتقد انه يجب ان تعقب مرحلة انتهاء الانتداب مرحلة اخرى لا بد منها قبل العبور الى الاستقلال التام وهي : عقد معاهدة صداقة وتعاون مع فرنسا. ونحن لا نرغب وراء المعاهدة سوى مساعدة الدولتين ومعاونتهما في مطلع حياتهما الاستقلالية».

القنديل المعلق على العمود

فقال فارس الخوري : اذا كان هناك اخلال بالامن في سورية ولبنان، فهو ناتج اولا واخيرا عن وجود الجيوش الاجنبية فيهما. ثم قال موجها كلامه الى مندوب فرنسا : ان موقفكم هذا ينطبق على القصة التالية :

كان رجل مارا في طريق عام، فوجد في وسطها تلة من الحجار تسند عمودا من خشب علق في رأسه قنديل. فاستغرب الامر وسأل اول شرطي

رآه : لماذا وضعتم «تلة» الحجارة في وسط الطريق ؟

فأجابه الرجل : لكي تسند القنديل.
فسأله : ولماذا القنديل ؟
فأجاب الرجل : لكي يتنبه المارة الى تلة الحجارة فلا يصطدموا بها.

وتابع فارس بك قوله بان وجود الجيوش الفرنسية في سورية ولبنان هو الذي يسبب الاخلال بالامن. فكيف تريدون ان تستعملوهم للمحافظة على الامن ؟

كرجل يغتصب بيتا

واصر الوفدان الفرنسي والانكليزي على انكار ان يكون موضوع الشكوى نزاعا. وجاراهما ممثلون اخرون. فرد عليهم مسيو فيشنسكي رئيس الوفد السوفياتي مشبها الشكوى بقصة رجل احتل بيتا لا يخصه واقام فيه. ولما جاء صاحب البيت يطلب اليه مغادرة بيته لم يقبل. فاضطر المالك الشرعي الى ان يشكو الى المحكمة طالبا اخراج المغتصب من بيته...

هذا هو الحال تماما في الشكوى التي ننظر فيها. هل بيننا، هنا، من يقول بانها لا تشكل نزاعا ؟

وطال الاخذ والرد بين جميع اعضاء المجلس طوال خمس جلسات متعاقبة، اظهر فيها الوفدان اللبناني والسوري من الحكمة والحنكة الديبلوماسية ما اكسبهما عطف المنظمة الدولية.

لين انكليزي

وفي الجلسة الاخيرة اعلن رئيس الوفد البريطاني ان الجيوش البريطانية المرابطة في سورية ولبنان مستعدة للجلاء في مهلة الثلاثة الاشهر التي اعلن عنها المندوب السوفياتي.

بعد هذا التصريح وقف رئيس الوفد الفرنسي وقال : «انني اوافق مبدئيا على الجلاء عن سورية ولبنان. لكن هناك نقاطا يجب ان نتفق عليها اولا. لذلك اطلب ان تجري المباحثات حولها في باريس لا في لندن. وعلى هذا اوجه دعوة الى اعضاء الوفدين السوري واللبناني للحضور الى باريس لمتابعة المفاوضات. وارجو من الوفدين ان يقبلا ضيافة الحكومة الفرنسية.»

وعلى الاثر فتح باب المناقشة ثانية. وكانت مناقشات حامية وطويلة. واصر الوفدان السوري واللبناني على ان يحدد موعد الجلاء على شكل صريح.

الاقتراح الاميركي

واخيرا، وفي جلسة ١٧ من شباط اقترح مندوب الولايات المتحدة الاميركية على المجلس النص التالي :

«ان مجلس الامن يأخذ علما بالبيانات التي ادلت بها الدول الاربع (بريطانيا وفرنسا وسورية ولبنان) وهو يعرب عن يقينه بان القوات الاجنبية الموجودة في سورية ولبنان تسحب في اقرب وقت مستطاع ويجب ان يشرع لهذه الغاية

بمفاوضات بين تلك الدول دون ابطاء. وهو يطلب اليها ان تحيطه علما بنتائج تلك المفاوضات».

قبل الابتداء في التصويت طلبنا كما طلب الوفد السوري تعديل هذا النص تعديلا جوهريا وذلك بان تنحصر المفاوضات انحصارا كليا في الجلاء فقط، مستقلا عن غيره من الشؤون، وان تكون المفاوضات في النواحي التفصيلية من الجلاء وان يحدد موعده بصورة قاطعة.

لكننا لم نوفق الى اقرار هذه المطالب لان التيار الاميركي المؤيد فرنسا وانكلترا كان واضح الرأي في عقد معاهدة تستفيد منها فرنسا وبالتالي انكلترا.

وعرض رئيس المجلس الاقتراح الاميركي على التصويت فحاز سبعة اصوات وهي اكثرية كافية لاقراره. وكاد القرار يصبح ملزما لولم يقف فيشنسكي مندوب الاتحاد السوفياتي ويستعمل حق النقض او «الفيتو»، مصرحا ان الفيتو لا يتناول مبدأ الجلاء بل النواحي الغامضة في الاقتراح والتأكيد على وجوب جلاء الجيوش الفرنسية في مهلة لا تتجاوز الثلاثة الاشهر.

وصار القرار، بعد الفيتو الروسي كأنه لم يكن.

بيدو لا يتراجع

ولما اعلن فيشنسكي اعتراضه على الاقتراح الاميركي استنادا الى البند السابع والعشرين من قانون المجلس، وقف مسيو بيدو واعلن «ان عمل المندوب السوفياتي ينطبق نصا وروحا على البند المذكور. ومع ذلك فاني لما كنت قد وافقت على الاقتراح الاميركي دون ان اشترك في

التصويت، فارى ان الاجراءات الشكلية لا تحول دون ان ابقى على قبولي به. وان ما قلته التزم به» (اي انه وافق على مبدأ الجلاء واجراء المفاوضات لتحقيقه، فهو لا يتراجع عن عهده).

ثم عقبه مستر بيغن وزير خارجية انكلترا وصرح التصريح عينه، وقال : «ولما كنا فرقاء في الخلاف فنحن نمتثل للقرار الذي اعلنته اكثرية المجلس».

هنا وقعنا في حيرة :

اقتراح مجلس الامن قد تلاشى بالفيتو الروسي. وهو على كل حال يتضمن ثغرة قد تعثر فيها المفاوضة لاقرار الجلاء التام الناجز دون الارتباط باية معاهدة تقر المركز الممتاز الذي ترغبه حكومة باريس. ولم يبق علينا الا ان نقبل الاقتراح الفرنسي او ان نرفضه ونعود الى لبنان.

فان رفضناه رجعنا وكأن المهمة التي اتينا لاجلها قد تلاشت واسفرت عن لا شي'

لذلك رأينا، ان ندرس الامر بالنسبة الى هذا الواقع، وفي الاجتماع الطويل الذي عقدناه، وبعد استشارات عديدة قمنا بها بالاتفاق مع الوفد السوري لم نر بدا من ان نلبي دعوة السيد بيدو املين ان نتوصل في باريس الى اقناع الحكومة الفرنسية بقبول طلبنا واقرار الجلاء التام من دون قيد ولا شرط، وتحديد موعد له لا يتجاوز نهاية سنة ١٩٤٦.

وعارض رفيقنا كميل شمعون هذا الرأي بشدة. فقررنا رفع الامر الى الرئيس بشارة الخوري، ولبثنا في العاصمة البريطانية لانتظار الجواب.

واخذ الوفد السوري، وبخاصة رئيسه، يشجعنا على السفر الى

فرنسا ثم علمت انه ابرق الى الرئيس شكري القوتلي طالبا منه ان يتصل بالشيخ بشارة الخوري ويقنعه بضرورة ذهاب الوفد اللبناني الى باريس لان مصلحة البلدين المشتركة تقضي بذلك.

ورفع الاستاذ كميل شمعون هو ايضا رأيه الى الشيخ بشارة ملحا على الرئيس بان يمنع الوفد من السفر الى باريس، بحجة ان الخطوة لن تجدي لبنان شيئا، وان كل ما ستسفر عنه هو اذلال الوفد.

وعلمت في ما بعد ان شمعون كان يستوحي اراءه من سبيرس وان سبيرس شجعه على اتخاذ هذا الموقف.

ولكننا نحن الثلاثة حميد ورياض وانا كنا ندرك انه لو لم نقرر الذهاب الى باريس لكان مجلس الامن انتهى الى لا شيء، اذ ان القرار الذي اتخذ بالاكثرية بقبول مبدأ الجلاء قد عطله الفيتو السوفياتي كما قلت. والمصلحة تقضي بان يبقى الباب مفتوحا مع الفرنسيين حتى نصل اذا استطعنا الى الجلاء التام الناجز.

تلقينا جواب الشيخ بشارة بالموافقة على السفر. فسافرنا وتخلف الاستاذ شمعون عن مرافقتنا انسجاما مع موقفه، ولانه كان يعتقد اننا مقبلون على فشل محتم وهو لا يريد ان يشاركنا هذا الفشل.

مفاوضات الجلاء في باريس

وصلنا الى باريس فاستقبلنا بحفاوة، وكان وزير الخارجية الفرنسية يتقدم المستقبلين. ونزلنا فندق بريستول ضيوفا على الحكومة الفرنسية. وبعد ان اخذنا قسطا من الراحة توزعنا المهمات في ما بيننا، على ان يتولى كل منا جنبا من الاتصالات مع السياسيين او الديبلوماسيين الفرنسيين الذين تربطه بهم علاقة او صداقة.

انصرف حميد فرنجية الى الاتصالات والاجتماعات بوزارة الخارجية الفرنسية. وتبين له في الحال ان هنالك اصرارا على عقد معاهدة مع لبنان.

وتوليت انا الاتصال برجال الاعمال، وبالاخص رؤساء مجالس ادارة الشركات الفرنسية التي لها فروع او مصالح في لبنان. ورحت احذرهم من مغبة تصلب حكومتهم وعدم استجابتها لمطالبنا. قلت لهم انهم هم الذين سيدفعون الثمن اذا بقي في نفوس اللبنانيين شعور عداء نحو فرنسا بسبب مماطلتها في الجلاء. وما حدث في سورية بالنسبة للشركات والمصالح الفرنسية يعطيهم فكرة عما يجوز ان يحدث في لبنان.

اما رياض الصلح، فتولى الاتصال بالسياسيين اليساريين من رجال البرلمان وغيرهم من الذين له بينهم صداقات. وكان اليساريون في فرنسا ينادون بحرية الشعوب الواقعة تحت الاستعمار او الانتداب ولقي رياض منهم آذانا مصغية فراح يدفعهم الى ضغط حكومة بلادهم للقبول بجلاء غير مشروط..

ولا انسى الدور الذي قام به احمد الداعوق وزيرنا المفوض بباريس فظل دائم الاتصال بوزارة الخارجية على أعلى المستويات يؤازرنا مؤازرة مجدية.

وضع لا نحسد عليه

منذ الدقيقة الاولى رأينا انفسنا في وضع لا نحسد عليه. وادركنا اننا نحارب على اكثر من جبهة. فلندن لم تكن راضية عن تلبيتنا دعوة الحكومة الفرنسية. وبيروت تتلقى كل يوم برقيات من لندن تقول بعدم جدوى المفاوضات مع الفرنسيين في عقر دارهم، بعد ان اتفقت فرنسا وبريطانيا على ان يسبق جلاء الجيش الفرنسي عقد معاهدة بين لبنان وفرنسا تعطي الدولة المنتدبة امتيازات و «افضلية وجود وحيوية مصالح.»

كانت بريطانيا عند نزول الحلفاء على شواطئ نورماندي لغزو القارة الاوروبية بحاجة الى مساعدة فرنسا. وصارت الارض الفرنسية الميدان الرئيسي لعمليات الحلفاء العسكرية، مما عزز مركز الجنرال ديغول وقوات «فرنسا الحرة». فتمكنت فرنسا من ممارسة ضغط بريطانيا حتى حملتها على اسداء النصيحة للبنان بقبول عقد المعاهدة.

عرفنا هذا كله وكنت وانا امثل لبنان في القاهرة قد ابلغت بيروت نص التصريح الذي ادلى به السر ادورد غريغ في العاصمة المصرية وقال فيه :

«انه على الرغم من ان فرنسا قد اعترفت باستقلال لبنان وسورية فان مسؤولياتها بصفتها دولة منتدبة لا تزال قائمة، ولا بد من انهائها بشكل شرعي... ان هذا الشكل هو الشكل عينه الذي يجعل من بريطانيا العظمى، بصفتها دولة منتدبة مسؤولة امام جامعة الامم.»

واكبر ظني ان اصرار لندن، «واصدقائها»، على عدم اجراء مفاوضات الجلاء في باريس مبعثه رغبة الانكليز في ان يتم الجلاء على يديهم لا على يد سواهم، فيحملوا لبنان جميلا قد يعود عليهم بالنفع فيما بعد، فلما لم يستطيعوا الحيلولة دون نزولنا باريس راحوا وراحت ابواقهم في بيروت تسمم الاجواء علينا.

شغب علينا في بيروت

اما في بيروت فعلى الرغم من تأييد الرئيس الشيخ بشارة لنا ودعمه موقفنا بجميع الوسائل التي يملكها، ومنها التفاهم مع الوطنيين السوريين على وقوف البلدين صفا واحدا في معركة الجلاء غير المشروط، فان غبارا كثيرا قد اثير علينا في المحافل السياسية، وعلى صفحات الصحف الموالية للانكليز، والصحف المعارضة لرياض الصلح.

المعركة التي خاضها الوفد اللبناني على عدة جبهات تميزت بعنف الهجوم الانكليزي واصحاب الانكليز علينا. وفي طليعة هؤلاء الاصحاب كميل شمعون.

واسوق مثلا على هذا العنف الرسالتين اللتين بعث بهما الجنرال سبيرس الى بيروت، وفيهما ما سيراه القارئ من التجني، والابتعاد عن الحقيقة، والاحكام الظالمة التي اطلقها سبيرس من وراء ظهورنا على حميد فرنجية ورياض الصلح. وفيهما، على عكس ذلك، المديح الذي كاله لصديقه وصديق الانكليز كميل شمعون.

فبعد ان غادرنا لندن الى باريس، حميد فرنجية ورياض الصلح وانا، وخلفنا وراءنا في العاصمة البريطانية كميل شمعون الذي كان يعارض ذهابنا الى باريس معارضة ضارية، ارسل الجنرال سبيرس الى

الشيخ بشارة الخوري رسالة بالحقيبة الديبلوماسية، والى السيد صائب سلام نائب بيروت رسالة حملها اليه فارس الخوري رئيس الوفد السوري، دون ان يعرف محتواها.

وكلتا الرسالتان متشابهتان في المعنى، وان اختلفتا بعض الاختلاف في الشكل. وقد كتبتا بالانكليزية.

اما ان يكتب سبيرس الى الشيخ الرئيس، فلا عجب في ذلك. لقد كانت لندن تحرض رئيس الجمهورية علينا آملة ان يخذلنا او ــ على الاقل ــ ان لا يشد ازرنا.

واما ان يكتب الى صائب سلام، فاكبر ظني ان سبيرس اعتقد انه يستطيع ان يخلق في العاصمة اللبنانية زعيما مسلما يتصدى لرياض وينازعه الزعامة ان لم يستطع ان يقضي على نفوذه.

جاء في الرسالتين ما خلاصته :

«سري وخاص»

«... ان الوفد اللبناني لم يكن في مستوى مهمته، وقد خيب امال اصدقائكم العديدين في لندن. لقد بدا الوفد كانه غير مؤمن بالمهمة التي وكلت اليه، وذلك بخلاف السوريين الذين تصرفوا تصرفا يفرض الاعجاب. ان عمل الوفد اللبناني في خدمة لبنان كان يدعو الى الاسى. وانا اعترف ان حميد قد تصرف تصرفا حسنا مرة واحدة فقط وذلك عندما تكلم في الجمعية العامة.

لقد كان يخيل الى الجميع ان الوفد اللبناني كان خائفا من فرنسا. ولقد خيب رياض املي فيه. ان الوفد اللبناني كان يوحي الشفقة. ونحمد الله على ان كميل شمعون كان هناك حتى يقاوم التيار ويتغلب عليه.

واخيرا ذهبوا الى باريس. وكان من نتيجة ذلك ان سفرهم الى باريس قد اضعف قضيتكم.

واما رياض الصلح ففي اليوم الذي كان مصير لبنان يتقرر في الامم المتحدة كان هو يتنزه في اسواق لندن باحثا عن معطف فراء لزوجته».

وختمت الرسالتان بهذه العبارة:

«لقد اهين لبنان واصبح مسخرة»...

❊

كان يبدو واضحا لكل متجرد عاش الظروف التي مرت فيها قضية المفاوضات، ان الصراع التقليدي على النفوذ بين بريطانيا وفرنسا في هذه البلاد بلغ أشده في تلك الفترة، برغم تحالفهما ضد العدو المشترك المانيا النازية.

وكان واضحا لأعضاء الوفد اللبناني أنهم يواجهون هذا الصراع العنيف في لندن.

فبريطانيا كانت تريد، اذا لم تستطع الحلول محل فرنسا في دولتي المشرق (سورية ولبنان)، استبقاء نوع من الوجود البريطاني الى جانب الوجود الفرنسي. فاذا لم توفق في تحقيقه، كان اقل ما ترضى به إضعاف النفوذ الفرنسي وتقوية النفوذ البريطاني على حسابه. وهكذا كانت تعرقل

كل تفاهم مباشر بين لبنان وسورية من جهة وفرنسا من جهة اخرى. وتعمل على افساد كل حل يمكن ان يتوصل اليه الفريقان بمعزل عنها.

من ضمن هذه السياسة، مقاومة الجانب البريطاني لفكرة اجراء المفاوضات بين الجانب الفرنسي والجانب اللبناني وحدهما، ومباشرة بينهما، والحؤول دون نقل مركز هذه المفاوضات من لندن الى باريس، كما كانت تقترح فرنسا وترغب، وكما انتهى ووافق الوفد اللبناني.

ولا بد من القول ان مثل هذا القرار كان يقتضي، بالنسبة الى الوفد اللبناني شجاعة كبيرة وجرأة فائقة، لأنه كان مغامرة لا يتحمل مسؤوليتها الا رجال من امثال الرفيقين رياض الصلح وحميد فرنجية، والرئيس بشارة الخوري الذي شاركنا من بيروت في اتخاذ القرار. مغامرة بالتأكيد، لكنها كانت رهانا على ان يأخذ لبنان كل شيء او أن يبقى حيث هو.

واذا كانت سياسة بريطانيا تفسر لنا موقف سبيرس وسبب ارساله هاتين الرسالتين الى الرئيس بشارة الخوري والى النائب صائب سلام، فانها لا تبرر على الاطلاق ان ينزل الرجل الذي منحه لبنان الجنسية اللبنانية وشرف اعتباره مواطنا «لبنانيا» واغدق عليه من التكريم ما لم يغدقه على أجنبي من قبل، أجل لا تبرر ان ينزل الى الدرك الذي نزل اليه من الدس على الوفد والافتراء على أعضائه ومحاولة تشويه سمعتهم وطنيا «واجتماعيا».

ويظهر واضحا من الرسالتين أن سبيرس كان يسدد سهام الطعن والتجني الى الوفد اللبناني، لأنه لبى دعوة الحكومة الفرنسية للذهاب الى باريس للمفاوضة على الجلاء، ولم ينزل عند رغبة والحاح الاستاذ كميل شمعون بالبقاء في لندن وعقد المفاوضات فيها.

كما يبدو جليا ان سبيرس واسياده واصحابه لم يكن يهمهم ان يتم جلاء الجيوش الأجنبية عن لبنان، بقدر ما كان يهمهم ان يتم هذا الجلاء على ايديهم وفي عاصمة بلادهم، لا على ايدي الفرنسيين وفي عاصمة فرنسا بالذات.

والله وحده يعلم ما كان يخَبئه لنا القدر في لندن، لولم تتغلب وطنية حميد فرنجيه ورياض الصلح ومن كان معهما على كل اعتبار آخر، ولولم يضع الرجلان الكبيران ورفيقهما كاتب هذه السطور نصب اعينهم هدفا «واحدا» لا هدف سواه، ولا أسمى منه ولا اشرف، وهو تحقيق جلاء آخر جندي أجنبي عن أرض الوطن من دون قيد او شرط.

ولقد بلغنا هذا الهدف بحمد الله، وكان نجاح مهمة الوفد في باريس نجاحا تاما «كاملا» خير جواب على سبيرس ومحاولة النيل من وطنية حميد ورياض ورفيقهما، واتهامه من ذهبوا الى باريس بهذه الاتهامات الرخيصة التي لا تليق برجل تولى المناصب التي تولاها سبيرس، ولاسيما منصب ممثل دولة عظمى كبريطانيا.

والتاريخ لا يرحم. لقد ذهبنا الى باريس واستجابت فرنسا لنا واعترفت بحقنا. وتعهدت بالجلاء ووفت بعهدها. وأما ما عدا ذلك فهراء ذهب مع الريح.

ولا يتم هذا الحادث فصولا من دون ذكر الفصل الأخير منه.

بعد جلاء القوات الفرنسية عن لبنان، واستعادة المصالح والمؤسسات التي كانت تديرها فرنسا باسم لبنان، قام الجنرال سبيرس بزيارة شخصية الى بيروت، وحل ضيفا على فخامة رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري في قصر الرئاسة. وقد توافد عليه رجال السياسة

والمجتمع للسلام عليه والترحيب به. إلا انه بقي واضحا ان رياض الصلح لم يزره، ولم يتصل به لا من قريب ولا من بعيد، واعتذر عن تلبية دعوة رئيس الجمهورية لحفلة عشاء على شرف الجنرال سبيرس.

نشط أصدقاء الطرفين، وبأيعاز من فخامة الرئيس، للسعي الى ازالة الجفوة، ولكن بقي رياض متمسكا برأيه مصرا على موقفه.

وأخيرا اضطر الجنرال سبيرس الى ان يذهب الى منزل رياض الصلح زائرا «للتهنئة والاعتذار». للتهنئة على نجاح مهمة وفد الجلاء، وللاعتذار من التسرع وسوء الظن. وقد رد رياض الصلح الزيارة وحضر مأدبة العشاء التي اقامها رئيس الجمهورية في قصر الرئاسة تكريما لضيفه.

وجزء آخر من الفصل الأخير، حصل حين زرت الجنرال سبيرس في القصر للسلام عليه. فقد عاتبته على التحارير موضوع هذا الكلام، فأجابني بأنه كان يعتقد أن نوايا الفرنسيين لم تكن سليمة وأنه يأسف لما بدر منه في ذلك الحين.

وفي جملة ما كانوا يرددونه في العاصمة اللبنانية، ليوغروا صدر رياض قولهم : كيف يقبل رياض الصلح، وهو من هو، ان يكون عضوا في وفد يرئسه سواه ؟

لكن رياض لم يقابل هذه الاقوال والحملات الا بابتسامة اغضاء الكبير عن قائليها ومروجيها.

مارونية رئيس الوفد

ولا بد لي من ذكر الاسباب التي حملت رئيس الجمهورية على اختيار حميد فرنجيه رئيسا للوفد وقبول رياض الصلح ان يكون مجرد عضو فيه. فقد رضي رياض بذلك بدافع من وطنيته الصادقة وذكائه ودهائه السياسي.

لم يشأ الشيخ بشارة ولا رياض ان تطبع مهمتنا الى الامم المتحدة بطابع غير ودي نحو فرنسا. والفرنسيون يحرصون دائما على الترديد انهم يرون في مسيحيي لبنان، وفي الموارنة بصورة خاصة اصدقاء طبيعيين تقليديين لفرنسا. لذلك رأى الرئيس ورأى رياض ان يكون الوفد مؤلفا في اكثريته من اعضاء مسيحيين وان يرئسه ماروني. وبهذا توصد الابواب في وجه الدساسين وتطوق حملات التضليل.

واحمد الله على ان هذا الاختيار الموفق قد خدم لبنان اصدق خدمة ووطد استقلاله الناجز توطدا تاما حين اقر مجلس الامن مبدأ جلاء الجيوش الاجنبية عن اراضيه.

أوستروروغ

كنا اعضاء الوفد اللبناني في باريس، حميد ورياض وانا، نجتمع كل صباح لنراجع حصيلة اليوم السابق، ونضع خطة عملنا واتصالاتنا في النهار الجديد، ونتناقش ونقيم الاشخاص والاحداث ونتوزع الاعمال.

وكان يرئس الوفد الفرنسي جورج بيدو نفسه وهو وزير الخارجية الفرنسية، يعاونه عدد كبير من موظفي وزارة الخارجية، والديبلوماسيين والعسكريين. وفي طليعة معاونيه الكونت اوستروروغ المعروف بخبرته في شؤون الشرق الاوسط، وكثرة اسفاره بين تركية والبلاد العربية. واوستروروغ هذا نموذج صارخ للمستعمرين المتعصبين، تصلبا في مواقفه، لا يتراجع ولا يلين.

وصارت المفاوضات تتعثر. وفي وقت من الاوقات انتصب شبح الفشل امام اعيننا. وتصورنا انفسنا عائدين الى لبنان والخيبة تواكبنا، ورؤوسنا مطأطئة، والجيش مقيم على ارضنا يثير كل يوم مشكلة، وربما قامت طائراته وقصفت بيروت كما قصفت دمشق تشفيا وانتقاما.

فضاعف هذا الشعور عزيمتنا وصممنا على ان لا نبارح باريس مهما كلف الامر، الا اذا بلغنا الغاية التي جئنا من اجلها، ووفينا الامانة التي وضعها وطننا في اعناقنا.

ودعينا ذات يوم الى العشاء على مائدة مسيو بيدو نحن والوفد الفرنسي المفاوض.

وفي صباح ذلك اليوم ونحن لا نزال في الفندق، دخل رياض الصلح علينا وقال : مضت علي ايام وانا افكـر في طريقة للتخلص من اوسترووروغ، وابعاده عن المفاوضات. وقد وجدتها وانا بحاجة لمساعدتكما لتنفيذ خطتي. فاسألكما ان تستدرجاه بعد العشاء الى زاوية من زوايا الصالون، وطبعا سيدور الحديث بينكما حول المفاوضات، وفي اثناء الحديث، يثير حميد مع اوسترووروغ مسألـة علاقة فرنسا بالمسيحيين في الشرق ويستدرجه الى البحث في هذا الموضوع.
واضاف رياض وهو يبتسم، وعيناه تلمعان : واتركا لي الباقي.

ضحكنا كلانا، حميد وانا. وايقنا ان رياض يخبىء في كمه ورقة رابحة. وعلى الرغم من كره حميد وكرهي لاثارة هذا الموضوع الدقيق الذي قد يخدم مصلحة فرنسا فان ثقتنا برياض، وحدة ذكائه، وبراعته بالمداورات كرا وفرا ثقة لا حد لها. فوعدناه بان نفعل ما طلبه الينا باقصى المستطاع من اللباقة والعفوية.

« هذا ما كنا ننتظره منك يا اكسلانس »

وحضرنا العشاء ورأينا اوسترووروغ بادي الانشراح يتحدث الى الجميع بطلاقة. والابتسامة لا تفارق ثغره. حتى اذا قمنا عن الطعام دعينا الى قاعة فسيحة تشع بالانوار. واخذ اوسترووروغ يتنقل كفراشة

من هذا الى ذاك. حتى اذا وصل الى حيث انا وحميد انضم الينا وبدأ يمازحنا ونحن نبش بوجهه ونسير بخطوات بطيئة نحو احدى زوايا القاعة، وهو يماشينا.
واسترقت النظر فرأيت رياضا غير بعيد عنا، يراقبنا ويتعمد التحدث الى رجل طويل القامة ضخم الجثة وقف الى جانبه بحيث اصبح الرجل الضخم حاجزا بيننا وبينه يخفيه بعض الشيء.

ووقفت ووقف حميد وظهرنا الى الحائط. ووقف اوسترووروغ في مواجهتنا مديرا ظهره للواقفين، وحديثه معنا لا ينقطع. وهو يتدفق في شرح فوائد المعاهدة بين لبنان وفرنسا.

واشرت لرياض بعيني ان الساعة قد حانت. ورأيته يتسلل نحونا بخطى بطيئة.

وفجأة قال حميد لاوسترووروغ : أمل ايها الكونت، مهما اختلفت اراؤنا ان لا تنسى فرنسا تقاليدها ورسالتها التاريخية والثقافية بالنسبة الى المسيحيين في لبنان.
فهتف اوسترووروغ بصوت عال : يا للسعادة ! هذا ما كنا ننتظره منك يا اكسلانس، وانت حميد فرنجيه الزعيم الماروني الكبير. لقد نطقت اخيرا بالكلمة التي كنا نتشوق الى سماعها منك. ان فرنسا، يا اكسلانس، ستعمل دائما على حماية المسيحيين في لبنان. وهذا لا شك فيه.

صوت رياض المخيف

وفي هذه اللحظة بالذات صاح رياض، في ظهر اوسترووروغ، وصوته يرتجف من شدة الغضب والانفعال : ماذا يا كونت؟ حماية

مسيحيي لبنان؟ وانا ماذا جئت افعل هنا؟

صعق اوستروروغ واستدار ليطيب بخاطر رياض. لكن رياض كان قد ادار ظهره وهو يقول : لا. لا. انا لا اقبل بهذا. انا ذاهب الان وسأسافر غدا الى بيروت.»

فلحقنا به. لكنه اصر على لبس قبعته فاستأذن صاحب الدعوة وغادر الحفلة.

وخدث لغط بين الحاضرين. فهرع الينا الرئيس جورج بيدو يسأل ما الخبر؟ ولماذا ترك دولة الرئيس بهذه السرعة، فقال له حميد : لقد حدث حادث مؤسف بينه وبين الكونت اوستروروغ فغادر السهرة.

وروى حميد لبيدو ما حدث بعد ان حمل اوستروروغ الخطأ كله. فقال بيدو : لكنني انا رئيس الوفد الفرنسي لا اوستروروغ. انا الذي يتكلم باسم فرنسا لا سواي. ارجو منكما ان تحملا الرئيس الصلح على قبول زيارتي للوفد اللبناني غدا صباحا في فندقكم، لاقدم لكم الاعتذار عما حدث، ونعتبر الحادث كأنه لم يكن.

اقصاء اوستروروغ عن المفاوضات

وفي اليوم التالي، قبيل الظهر جاء بيدو الى الفندق. فاستقبلناه نحن الثلاثة. وبعد ان اعتذر عن الحادث ابلغنا ان الكونت اوستروروغ قد اقصي عن الوفد، وان الوفد الفرنسي يرجو ان تستمر المفاوضات في جو الصداقة والثقة.

وسارت المفاوضات بعد ذلك بسرعة.

وادركت الحكومة الفرنسية ان الوفد اللبناني، كالعاصمة اللبنانية، صامد لا يتزحزح عن موقفه، وان لا جدوى من المطالبة بالمعاهدة وجعلها شرطا للجلاء العاجل، بل على العكس ان المماطلة ستعمق الثغرة بين فرنسا ولبنان.

وبعد ايام ابلغنا بيدو باسم حكومته ان فرنسا سلمت بوجوب الجلاء التام، وانه في الواحد والثلاثين من كانون الاول ١٩٤٦ لا يبقى جندي واحد على ارض لبنان.

ووضع بروتوكول رسمي يكرس الاتفاق على الجلاء وقعه الجانب الفرنسي ووقعناه نحن.

فابرقنا الى بيروت نعلم رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة بالنبأ السار في الوقت الذي كنا نتبادل فيه، مع ممثلي الحكومة الفرنسية وثائق الجلاء.

واحتفلنا للمناسبة بغداء اقيم على شرف الوفد اللبناني في مقر وزارة الخارجية الفرنسية، تبادلنا خلاله كلمات المجاملة والود والتقدير، وشربنا نخب البلدين فرنسا ولبنان.

ادّينا الامانة حقها

وهكذا بينما كنا نحن في العاصمة الفرنسية نصل الليل بالنهار ساعين سعي المؤمنين وراء الهدف الاسمى وهو تطهير بلادنا من آخر اثر من آثار الاحتلال، كان في بيروت اناس يذيعون ويروجون ان الوفد اللبناني يعبث ويتسلى في باريس. وكان بعض الصحف يشن علينا حملة متجنية رعناء.

بالاضافة الى هذا كله كنا نتلقى الى باريس، ونحن في قلب معركة الجلاء، انباء من بيروت عن حل البلديات، واقالة الموظفين، واعمال وتدابير تجري في غيابنا، لم اكن بوصفي وزيرا للداخلية اوافق عليها او اسمح بحدوثها لو انني في بيروت.

فتولاني شعور قوي، كما تولى حميدا، باننا بعد ان ادينا الامانة حقها، وقمنا بواجبنا على الوجه الاكمل، لم يبق علينا الا ان ننسحب من الوزارة لنكمل رسالـة لبنان المستقل ونحن خارج الحكـم، وننبه الاستقلاليين والوصوليين الى ان الاوطان لا تبنى على السياسات الصغيرة، والحزبيات الضيقة، والنزوات الشخصية. فقررنا ان نستقيل من الوزارة وارسلنا برقية الى الرئيس الشيخ بشارة الخوري نرجو فيها ان يقبل استقالتنا واضفنا اننا نعتبر نفسينا مستقيلين منذ اللحظة التي تطأ فيها اقدامنا ارض الوطن.

استقالتي من الوزارة

عدت انا ورياض الصلح من باريس بطريق مصر. وتخلف حميد بضعة ايام في روما. وبعد وصولنا الى مطار القاهرة ركبنا طائرة اخرى الى مطار اللد. ومن اللد انتقلنا بالسيارة الى حيفا حيق قضينا ليلتين.

وكان رياض يحب ان يعود الى لبنان بطريق الجنوب، وهو ابن صيدا ونائب المنطقة. فجاء الاهلون من كل مكان، من الناقورة الى العاصمة، يستقبلوننا استقبالا حارا، ويهتفون بحياة لبنان ورجال الاستقلال ويهنئوننا على تحقيق الجلاء.

رسول من رئيس الجمهورية

عند وصولنا الى الناقورة، والوقت صباح، فوجئنا بوجود المدعي العام في ذلك الحين الاستاذ يوسف شربل بين المستقبلين. وبعد ان سلم على رياض وعلي انتحى بي ناحية واخبرني ان الرئيس الشيخ بشارة كلفه ان يبلغني انه يرفض استقالتي وهو يأمل ان لا اصر عليها. فاجبته ان ذلك رهن بما اجرته وزارة الداخلية من تغيير جذري واتخذته من تدابير اثناء غيابي. كما انني متضامن مع زميلي حميد فرنجيه.

توقفنا في صور فتناولنا طعام الصباح في منزلي، وتابعنا سيرنا الى صيدا فبيروت والاستقبالات الشعبية تنتظرنا في المدن والقرى الساحلية التي مررنا بها.

ولما بلغنا العاصمة تابعنا الى القصر الجمهوري، فاستقبلنا الرئيس الشيخ بشارة وعانقنا وهنأنا على نجاحنا واثنى ثناء حارا على الجهود التي بذلها كل منا في سبيل الجلاء. ورأينا الابتهاج يعم جميع الحضور من رسميين وغير رسميين.

في اليوم التالي بكرت بالنزول الى مكتبي في وزارة الداخلية في سراية البرج. ولم يطل بي الوقت حتى تبين لي ان قرارات عديدة قد اتخذت في غيابي تتعدى الحدود التي رسمتها قبل سفري ووافق عليها الرئيس الاول.

وعند ذلك دعوت كبار الموظفين وودعتهم. وجمعت اوراقي الخاصة استعداداً لمغادرة السراية والحكم.

ورأيت ان اودع الزعيم نور الدين الرفاعي قائد الدرك بعد ان تعاونت معه مدة وجودي بالوزارة تعاونا مخلصا مفيدا. فطلبت من السكرتير ان يعلمه بالامر. غاب قليلا، ثم عاد ليقول لي : معالي الوزير. قد لا تعلم ان فخامة الرئيس غير راض عن الرفاعي. واعتقد انهم ينتظرون مغادرتك وزارة الداخلية حتى يقيلوه ويعينوا مكانه الكولونيل فيليب ابو نادر. لذلك انصح لك ان لا تذهب لوداعه كي لا تغضب فخامة الرئيس.

وبالفعل كان الرئيس بشارة الخوري قد طلب الي اكثر من مرة ان انقل الرفاعي، لكنني رفضت طلبه لان الزعيم الرفاعي اثبت انه مثال الموظف المسؤول المنضبط والمتمسك بالقانون والنظام.

فقلت للسكرتير : لقد زدتني الان رغبة في زيارة الرفاعي. اتصل به فورا وقل له انني ساكون عنده بعد نصف ساعة.

وعندما وصلت الى قيادة الدرك استقبلت رسميا وجاء كبار الضباط الى مكتب الرفاعي فودعتهم وشكرتهم على تعاونهم. وهذا اخر عمل قمت به في الوزارة.

شركة المياه بحاجة إليّ

بعد ايام عاد حميد فرنجيه من باريس وزارني في بيتي وكان خبر استقالتي قد بلغه فقال : انت تعرف الرئيس وتعرف الظروف التي نعيشها. لقد الح علي ان اطوي استقالتي. ولكنني قلت له انني مرتبط بزميلي يوسف سالم لذلك فانني ساراجعه في الامر.

فاكدت لحميد ان استقالتي نهائية بسبب الحملة الظالمة التي شنوها علينا ونحن في باريس نسعى في سبيل الجلاء، واحتجاجا على السياسة الحزبية التي مارسوها مدة غيابي عن وزارة الداخلية. وعدا عن ذلك فشركة المياه قد احتاجت حاجة شديدة الي، والمسؤولون فيها يطالبونني بالعودة لاني منذ ذهبت سفيرا الى القاهرة، وانا بعيد عنها، وقد طالت اجازتي اكثر من سنة.

واضفت : هذا بالنسبة الي. اما فيما يتعلق بك فانت حر في ان تبقى او تستقيل.

وبالفعل كانت الشركة قد صارت في حاجة الى جهد كبير لتستطيع القيام بالتزاماتها وتأمين المياه للعاصمة التي اخذت تتوسع وازدادت حاجتها الى المياه.

انتخابات ۲۵ ایار

انتهت هذه المرحلة المهمة من حياتي، وهذه الحقبة الدقيقة من تاريخ لبنان، وانا مقتنع كل الاقتناع بأن الغاية التي هدفنا الى تحقيقها من الاستقلال لم تتحقق بعد. فلا تزال هناك الرواسب والنزعات الشخصية، والحزبية السياسية العنيفة، والانتقامات والاستغلال والفوضى.

وبديهي أن استقالتي لم تترك في أوساط القصر، وفي نفس الرئيس بالذات، صدى مستحبا. توقعت ردة الفعل ضدي في أي حين. وليس هنالك أرحب من ميدان الانتخابات النيابية للانتقام مني.

وسنحت الفرصة بحلول موسم الانتخابات النيابية التي حدد موعدها في ٢٥ من أيار ١٩٤٧. وهي الانتخابات التي اشتهرت شهرة مخزية في تاريخ لبنان السياسي.

وبدأنا نتصرف تصرف الاطفال

ويكفي أنها صارت مضرب المثل في التزوير وتعطيل حرية الناخبين.

ودعنا الانتداب وجيوشه. وبدلا من أن ندشن عهد الاستقلال الناجز التام بالسير على السراط المستقيم، واعتماد النزاهة، والعدالة، والحرية، والصدق في سياستنا وأعمالنا وادارة شؤوننا، وبناء دولة الاستقلال، أرخينا العنان لأحقادنا وشهواتنا وجعلنا الدولة والوطن مائدة مددناها أمام مريدينا ليأكلوا منها ويشربوا ما يشاؤون واقصينا عنها خصومنا!

وبدأنا نتصرف تصرف الاطفال اذا غابت عنهم عين الرقيب.

يلهون، ويعبثون، ويحطمون كل ما تقع عيونهم عليه.

وكنت، ولا ازال، أتساءل، أيهما اصعب: أهو الحصول على الاستقلال أم المحافظة عليه؟

وكان قلبي يتقطع أسى على وطن اردناه «سيدا عزيزا حرا» فجعلوه مزرعة!

واستعدت اكثر من مرة قول النبي الكريم بعد أن مكن الله تعالى المسلمين من فتح مكة: «فرغنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر» أي جهاد النفس. وهذا الجهاد هو أعظم عمل يعمله المؤمن، لأنه يكافح شهوات النفس والأغراض والمآرب الشخصية ابتغاء العمل المبرور ومرضاة الله.

ولكن القوم غفر الله لنا، ضلوا سبيلا.

لأني تمردت في مواقف الحق

اقترب موعد انتخابات ٢٥ أيار المشؤومة الذكر.

وكان – ولا يزال – مكان ترشيحي الطبيعي في الجنوب، حيث شكلت لائحتان، الأولى برئاسة أحمد الأسعد، والأخرى برئاسة عادل عسيران. بعد أن فرط الائتلاف الذي تم في الانتخابات السابقة بين الاسعد وعسيران، والذي كان لي اليد الطولى في تحقيقه.

ولست أدري هل كان من حسن الصدف أو من سوئها، بالنسبة إلي، أن يرئس صديقي رياض الصلح حكومة انتخابات ٢٥ أيار. لكنني واثق

بأن الرئيس الشيخ بشارة فرض على أحمد بك الاسعد أن يشطب اسمي من لائحته كما اشترط على رياض ابعادي عن الساحة، وجعله مكبل اليدين في ما يتصل بي.

وكنت أعلم علم اليقين أسباب نقمة الرئيس الخوري علي وإصراره على إبعادي عن مسرح السياسة. أفلا يكفي أنني تمردت عليه في مواقف الحق، مواقف كان ينتظر مني أن أطيعه فيها فلم أفعل.

لقد خالفت أوامره في وزارة الداخلية،
ولم أوافق على طرد اميل اده من المجلس فكسرت الاجماع الذي اتفقوا عليه،
ورفضت تنفيذ سياسة التشفي والانتقام،
وأرسلت استقالتي برقيا من باريس ولم أرجع عنها بل غادرت الوزارة.

وربما كان كل واحد من هذه الأسباب كافيا للحكم علي في نفس الشيخ الرئيس فكيف اذا تعددت الأسباب وفعلت فعلها فيه؟

ولم يصمد السيد أحمد الاسعد أمام الضغط فأبلغني أنه لا يستطيع هذه المرة أن يتعاون معي.

عند ذلك انضممت الى اللائحة الأخرى. ولما لم يجد أحمد الاسعد كاثوليكيا من أبناء الجنوب يوافقه في اكمال لائحته جاؤوا بجوزف سكاف من زحله.

وذاع يومذاك ان ترشيح جوزف سكاف في الجنوب مخالف للقانون مخالفة فاضحة، اذ ان ترشيحه تم بعد قفل باب الترشيح.

فطلبوا من انيس صالح،- مدير وزارة العدل العام فتوى قانونية حول هذا الترشيح لمعرفة مدى صحته او مخالفته للقانون.

فتوى تجيز وفتوى تحرم

وكان انيس صالح من أقرب المعاونين الى الشيخ بشارة وأطوعهم له، لا يزاحمه على هذه الحظوة في القصر الا يوسف شربل النائب الاستئنافي العام.

ولم يخيب انيس صالح ثقة الدولة به هذه المرة أيضا، فوضع صيغتين، جوابا للفتوى التي طلبوها منه: الأولى تجيز نقل ترشيح جوزف سكاف من زحلة الى الجنوب. والثانية لا تجيزها. وسألهم: ماذا تريدون بالضبط؟ فقالوا: نريد أن يكون نقل ترشيح سكاف منطبقا على القانون. فسلمهم الفتوى «الصالحة» ومزق الأخرى.

ولم تكن هذه إلا واحدة من مخازي انتخابات ٢٥ أيار...

وما باليت... ومضينا في حملتنا الانتخابية على أساس أن المعركة مفتوحة أمام الجميع، لكنه كان يساورني شعور قوي، بل إقتناع تام بأن الرئيس الشيخ بشارة لن يدعني أصل الى النيابة مهما كلف الأمر.

وقبل حلول موعد الانتخاب تعرضت لحملة ضغط قوية، قام بها سياسيون، ورجال دين، وأصدقاء لي من جميع الطبقات، لحملي على الانسحاب وراح رياض يظهر لي استعداده لكل موآزرة.

وشد ما كانت دهشتي حين فوجئت ببيان يذيعه رياض داعيا فيه ناخبي الجنوب الى تأييد خصمي!

وذات ليلة طرق صديقي فؤاد صوايا باب بيتي، وكانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل، وقال لي: إن هنالك حملة عنيفة ضدك، وأنا قادم اليك من منزل رياض بك الصلح، ونصيحتي اليك أن تنسحب.

ضحكت وقلت للسيد صوايا ان المطران مكسيموس صائغ، دعاني أمس وطلب إلي أن أنسحب، وردد علي الكلام الذي قلته الآن لي. وقد أجبت سيادته بالرفض. وهذا هو جوابي اليك والى صديقي رياض اذا كان هو الذي أرسلك. إني أعرف أن الحملة ضدي عنيفة، وأعرف أنني لن أتغلب على جوزف سكاف مرشح الدولة. لكنني لن أنسحب.

كانت الأساليب التي اتبعوها زادتني تشبثا واصرارا على موقفي. وأخذت أقول بيني وبين نفسي: لو أنهم طلبوا مني منذ البداية أن لا أرشح نفسي لفعلت ووفرت عناء التورط في معركة أعرف سلفا انها خاسرة. أما الآن فلا.

وفي اليوم التالي عاد المطران صائغ ودعاني اليه. وكانت تربطني به صداقة متينة. وقال لي: هل تعلم أن أصحابك ضدك في الانتخابات؟

قلت: أعلم كل العلم.

قال: من هم؟

قلت: بشارة الخوري، ورياض الصلح، وهنري فرعون.

قال: ولماذا اذن تستمر في المعركة؟ لماذا تتكبد نفقات قد تكون طائلة هذه المرة، وأنت تعرف سلفا انك لن تنجح؟

وأضاف الراعي الجليل بعد دقيقة تردد: «إني مكلف أن اقنعك بالانسحاب. وقد وضعوا في تصرفي خمسة وسبعين الف ليرة لأقدمها اليك عندما تسترجع ترشيحك».

« هل ترضى يا سيدنا أن أبيع سمعتي ؟ »

فحدقت اليه وقلت بنبرة عتب: يا سيدنا. لو لم يكن لشخصك في نفسي احترام كبير لأدرت ظهري وانصرفت. فهل ترضى لي، يا صاحب السيادة، أن أبيع حياتي السياسية وسمعتي بالمال؟ لماذا يعرضون علي هذا المبلغ الكبير؟ أوليس لأبيعهم ثقة أصحابي وانصاري بي. ليس هذا من شيمي ومستحيل أن أقبل به.

قال المطران: طيب. اني أقدر فيك هذه النخوة. وردة الفعل هذه تزيدك احتراما في نظري. لكن لماذا لا تنسحب من تلقاء نفسك فتوفر عليك نفقات لا جدوى منها؟

قلت: ومن عساه يصدق انني انسحبت لوجه الله الكريم؟ من يصدق انني لم أقبض مالا، وفي ميدان المعركة هؤلاء الأثرياء؟

وجرت الانتخابات. وفازت منذ الدورة الاولى لائحة الاسعد بكاملها. باستثناء عادل عسيران الذي فاز بمفرده.

لم تفاجئني نتيجة الانتخابات ولا اوهنت عزيمتي. بل تقبلتها برباطة جاش وتصميم جديد على استئناف العمل ولكن في غير الحقل السياسي.

وانصرفت الى مضاعفة الاهتمام بشركة المياه، ونسيت السياسة، الى حين، كأنني لم أعمل فيها قط.

في سبيل الاقتصاد الوطني

عدت الى العمل في شركة المياه. ولم ألبث أن بدأت أشعر أن شركة المياه صارت لا تشبع ما فطرت عليه من رغبة في الحركة والنشاط وطموح الى خدمة وطني. وقد كان مجال السياسة رحبا، كفيلا بتوفير الأجواء التي يشعر معها الانسان بأنه يقوم بدوره في حياة بلاده.

فكرت في العمل الاقتصادي وقلت أن الاقتصاد والسياسة يحركان البلدان والشعوب سواء بسواء. وقد تكون السياسة أحيانا تبعا للاقتصاد. وقد يكون العكس صحيحا. وعلى كل - قلت لنفسي - انهما يكملان بعضهما بعضا عند من يعرف ان يعمل، فما فاتني بسبب الاحقاد وشهوات الحاكمين استطيع أن أعوضه في حقل الاقتصاد. وربما استطعت أن أخدم بلادي في هذا الحقل، كما فعلت، أو حاولت أن أفعل، في ذاك.

وهكذا اتجهت الى العمل في الحقل الاقتصادي. ولكنني، لم أشأ هذه المرة أن أدخلها من الباب الضيق، باب الوظائف، وتلقي الأوامر، والجلوس في غرف الانتظار. بل صممت تصميما قويا على أن أنشىء الشركات بنفسي وأتولى شؤونها وأكون سيدها.

وكنت أعلم ان المؤسسات الصناعية والتجارية لا تقوم وتصمد وتنمو الا بالمال الكثير. ولم يكن ذلك متوافرا لدي. فعمدت الى تأسيس شركات مغفلة تستمد رأس مالها من مساهمين عديدين على غرار شركة مياه بيروت. ولم يكن لبنان، حتى ذلك اليوم قد عرف مثل هذه الشركات على نطاق واسع في الحقلين التجاري والصناعي.

وأول ما فكرت فيه تأسيس شركة للضمان. وهذا النوع من الشركات كان وقفا على الأجانب أصحاب الرساميل الكبيرة، نظراً لما ينطوي عليه من أخطار ومغامرات. فرأيت أن اللبنانيين لا يقلون عن

الاجانب علما ومعرفة وجرأة، وربما فاقوهم في حب المغامرة، فلماذا لا يركبون المركب الخشن ويحيلونه الى مركب وثير؟

عرضت الأمر على عدد من معارفي وأصدقائي ممن توفرت لهم الامكانات المالية. واستعنت بخبير في شؤون الضمان، أخصائي في شركاته، اسمه انطوان بيوس كان يعمل مستشارا لدى شركة اونيون دوباري، وببعض الأصدقاء من أصحاب الرساميل.

لم تكن شؤون الضمان مألوفة لدى أصحابي الذين لبوا طلبي. وانما فعلوا مسايرة لي. وكان قوام الشركة من اللبنانيين السادة حسين العويني ودزيره كتانة وجان فتال وفؤاد الخوري ونجيب صالحة وحبيب ابو شهلا.

شركة الاتحاد الوطني للضمان

وبعد ان اتفقت مع هذه المجموعة الطيبة من الرجال سافرت الى باريس وعرضت الأمر على فئة من الفرنسيين رأيت أن أشركهم معنا لتأمين التعاون بين الرأسمال اللبناني والراسمال الفرنسي نظرا للخبرة التي لديهم في ادارة الشركات المغفلة. اتفقت مع رئيس مجلس ادارة البنك السوري السيد رنيه بوسون، ورئيس مجلس ادارة شركة مرفأ بيروت حليم بك ملحمه، ورئيس مجلس ادارة البنك العقاري الجزائري التونسي السيد بول رينودان، وسواهم من الفرنسيين أصحاب المصارف فاكتتبوا بربع رأس المال. وتألفت الشركة واطلقنا عليها اسم «شركة الاتحاد الوطني للضمان». وكان أفراد هذه المجموعة من فرنسيين ولبنانيين أعضاء مجلس الادارة. فاجتمع مجلس الادارة وانتخبني رئيسا.

ووضع جميع أعضاء مجلس الادارة ضمان أعمالهم كلها في عهدة شركة الاتحاد الوطني. فاتسعت أعمال المؤسسة بسرعة فائقة. وبعد أقل من سنتين اشترينا أرضا في محلة الصنائع أقمنا عليها بناية فخمة لا تزال معروفة ببناية «الاتحاد الوطني».

وانشأت الشركة عدة فروع لها في دمشق وحلب وبغداد وجدة والكويت. وأذكر أننا، عندما انشأنا فرعا في دمشق وعهدنا بادارته الى السيد صلاح الدين الباقي وكيلا وطلبنا اليه تسجيل الشركة، صادفتنا بعض المتاعب. فقد طال الوقت ولم يستطع مدير الفرع تسجيل الشركة بداعي ان السيد سعيد الغزي وزير الاقتصاد السوري لم يقتنع بأن لبنان باستطاعته أن يؤسس شركة ضمان لما في ذلك في رأيه من المغامرة والخطورة.

عند الرجل الوفي شكري القوتلي

عندئذ سافرت الى دمشق وطلبت مقابلة رئيس الجمهورية شكري بك القوتلي، وكانت تربطني به معرفة وثيقة وصداقة قديمة كما ذكرت سابقا. فاستقبلني بكل ترحاب وعرضت عليه أمري وأطلعته على الصعوبات التي نلاقيها لدى وزارة الاقتصاد لتسجيل الشركة في سورية. حالا ودون تردد أخذ التلفون وطلب سعيد بك الغزي وقال له بالحرف الواحد: «يوجد في مكتبي صديق من لبنان له عندي كل محبة وتقدير هو يوسف سالم الوزير السابق ورئيس شركة الاتحاد الوطني للضمان. وقد طلبت هذه الشركة أن تفتح فرعا في سورية والمعاملة موجودة لديكم، آمل أن توقع عليها حالا وترسلها لي كي أسلمها بنفسي للصديق الكريم».

وتسجلت الشركة في أقل من ساعة وعدت الى بيروت وأنا أحمل قرار التسجيل.

ذكرت هذه الواقعة لأدلل على جمود المعاملات الاقتصادية التي نشأت بين لبنان وسورية، وعلى الصفات التي كان يتحلى بها الرئيس شكري القوتلي في المحافظة على العلاقات مع اصدقائه اللبنانيين.

وشركة آر ايبان

وبعد شركة الضمان اشتركت مع السادة جورج كرم وانطوان صحناوي وميشال خطار وباسيل مكرديش، في تأسيس شركة طيران لبنانية بالاتفاق مع شركة آر فرانس. دعوناها آر ليبان. وتعاقب على رئاستها جورج كرم وميشال خطار وانطوان صحناوي. وابتدأت تؤمن المواصلات الجوية بين لبنان ومصر، ثم اتسع نشاطها الى باريس وروما واليونان وجدة والكويت.

وشركة الكوكا كولا

في سنة ١٩٤٨، انتخبت حاكما لنادي الروتاري عن مقاطعة الشرق الاوسط الذي يضم لبنان وسورية والاردن وقبرص. وبهذه الصفة سافرت الى كندا لحضور اجتماع الروتاري العام في كبيك. وفي عودتي بطريق نيويورك، اتصلت بشركة الكوكاكولا، واتفقت معها على تأليف شركة لبنانية لتعبئة شرابها في لبنان. وبالفعل تأسست الشركة من السادة: حبيب أبو شهلا وفوزي عازار ونقولا سالم والسيد كامبل والسيد وليامس. وانتخبوني رئيسا لمجلس الادارة. وانطلقت الشركة انطلاقا سريعا جدا لأنها كانت، في ذلك الوقت، الشركة الوحيدة للمرطبات في الشرق.

وبدأ اسمي يعرف في الحقل الاقتصادي، حتى ان شركات عديدة طلبت إلي التعاون معها في مجالس الادارة. فصرت عضوا في مجلس ادارة البنك السوري، وشركة راديو اوريان، وشركة الريجي وشركة سكة الحديد، والشركة المالية العامة، وفندق سان جورج الخ... كل ذلك وأنا لا ازال مديرا عاما لشركة مياه بيروت.

رئيس جمعية التجار

ولما تعددت مسؤولياتي في الحقل الاقتصادي، زارني الصديق جورج شويري أمين سر جمعية التجار وعرض علي أن أقبل رئاسة جمعية تجار بيروت التي خلت باستقالة السيد جوزيف خديج. واعتذرت فوراً بقولي إني لست تاجراً بالمعنى المتعارف عليه، وليس لدي الوقت الكافي للعمل في هذا الحقل. على أن السيد جورج شويري ألح علي كثيرا. وبعد اخذ ورد لم أر بداً من العمل برغبته وانتخبت رئيسا لجمعية تجار بيروت وبقيت في رئاستها حتى سنة ١٩٧٠. ولما استقلت انتخبتني جمعيتها العمومية رئيسا فخريا مدى الحياة.

وكان لي في هذا الحقل نشاط واسع تعاونت فيه مع تجار كرام.

وحدث أكثر من مرة اصطدام بين جمعية التجار وجمعية الصناعيين، لأن الصناعيين يطالبون بالحماية الجمركية لصناعتهم المحلية، بينما التجار يطالبون دائما بالاستيراد غير المقيد، وفتح أبواب البلاد أمام المنتجات الاجنبية.

وأستطيع القول من دون مباهاة، انني أديت لوطني خدمات لا يستهان بها في حقل الاقتصاد.

البطريرك مكسيموس صايغ

في هذه الصفحات ورد ذكر المطران مكسيموس صايغ غير مرة. وقد عرفته في بادىء الأمر عندما كان رئيسا لأساقفة بلدي صور. وتوثقت بيننا على مرور الأيام صداقة وثقى لما كان يتحلى به من علم راجح وصراحة في الرأي وتقوى صادقة تنبع من إيمان راسخ، وبأخلاق رضية، هي المسيحية الحقيقية التي أخذ رجالها يقلون ويا للأسف! ثم ازدادت أواصر صداقتنا بعد انتقاله رئيسا على أساقفة بيروت.

ومن نوادرنا اللطيفة، وما اكثرها، طرفة اذكرها دائما وسأرويها هنا لأنها تدل على أن كلمة، أو رأيا، أو زيارة، تؤثر أحيانا في مجرى الحوادث العظيمة وتقلبها رأسا على عقب:

فقد توفي المثلث الرحمات البطريرك كيرلس مغبغب بطريرك الطائفة الكاثوليكية في ٨ من أيلول ١٩٤٧ في الاسكندرية، ودعي السادة المطارنة الى انتخاب خلف له. ومنذ الدقيقة الأولى ظهر أن المطران مكسيموس الصايغ هو المرشح الأجدر والأليق للنهوض بهذه المهمة. أما هو فلأمر أجهله راح يوجه أصدقاءه من السادة المطارنة الى انتخاب السيد يوسف معلوف مطران بعلبك، بطريركا.

سمعت بالخبر فاستغربته. وازعجني أن يرفض صديقي الكبير ما يجمع عليه إخوانه المطارنة، وما تجمع عليه طائفته والرأي العام. فذهبت اليه أسأله حقيقة الأمر فأكده لي.

فقلت له: كنت يا سيدنا طوال خمس وعشرين سنة تعظني مستشهداً بأقوال الله تعالى وتعاليم الكنيسة المقدسة، وأنا اصغي الى

سيادتكم.فاسمح لي بأن اعكس الدور اليوم، فأقوم أنا بوعظك وتصغي انت الي...

فتبسم وقال: خير ان شاء الله يا ابني.

قلت: ما فيه الا الخير يا سيدنا: فأنا أرى تصرف سيادتك في موضوع الانتخاب البطريركي نوعا من «التمرد» على أقواله تعالى وعلى تعاليم الكنيسة: فالسيد المسيح يقول في انجيله الطاهر: «عندما يجتمع اثنان أو أكثر باسمي فاني أكون بينهم». وسمعت منكم غير مرة أن الروح القدس هو الذي يحل عليكم في انتخاباتكم فلماذا لا تمارسونها؟ اذا حل الروح القدس على السادة المطارنة ودلهم عليك، والهمهم انتخابك بطريركا، فكيف ترفض ارادة الله؟ كيف تخالفها وتوجه السادة المطارنة ليمشوا دون رغبتهم ورأيهم والهامهم؟ إنهم يريدونك انت بطريركا. والذي لا ريب فيه أن رأي المطارنة يعبر أصدق تعبير عن إرادة الطائفة كلها. فهل أنت أعلم بمصلحة الطائفة من الروح القدس؟

كنت أتكلم بحماسة، فهون علي وأطرق طويلا.

ثم رفع رأسه وبصوت خافت أجاب: معك حق يا ابني. أشكرك على «موعظتك». دعني أفكر في الأمر، ولن يكون إلا ما يريده الله.

وأراد الله. وانتخب المطران مكسيموس صايغ بطريركا. انتخبه السينودوس الاسقفي في عين تراز يوم الخميس في ٣٠ من تشرين الأول ١٩٤٧. وقوبل انتخابه بسرور عميم من جميع الطوائف. وكانت أيام بطريركيته بركة وخيرا وكرامة لطائفته وللكنيسة.

ولما زرته مهنئا قال لي غبطته: «لولاك لما كنت اليوم هنا» رحمات الله عليه.

جبران تويني

في شهر تشرين الثاني ١٩٤٧، بلغني نعي جبران تويني وزيرنا المفوض في الارجنتين والاوروغواي وشيلي، ومؤسس جريدة «النهار» الصحيفة الوطنية المحترمة، ومن أبرز رواد تطوير الصحافة العربية، والوثوب بها من نمطها البدائي الى الاسلوب العصري الذي وصلت اليه صحافة اوروبا. وقد آلمني نعيه لأني كنت أرى في جبران تويني مثال اللبناني العصامي المقدام والوطني المخلص. فهو من أوائل الصحافيين الذين وقفوا في وجه الانتداب وانتقدوا أعمال رجاله بجرأة، ولم يكن عدد هؤلاء الصحافيين كثيرا يومذاك. وكافح جبران تويني في سبيل الحياة الدستورية والاستقلال، ودعا الى التآخي اللبناني السوري والتفاهم اللبناني العربي. وقد دعي الى الاشتراك في وزارة أوغست أديب سنة ١٩٣٠، وعمل فيها وزيرا للتربية الوطنية والفنون الجميلة. ومن آثاره المحمودة فيه انشاء المتحف الوطني، والبكالوريا اللبنانية.

وعرف جبران تويني بعروبته النقية وبشر بها، ودافع عن فلسطين بحرارة وصدق. وقد توفي على أثر إلقائه خطابا في شيلي تأييدا لمطالبها القومية. فكانت الخسارة به لبنانية وعربية. رحمه الله.

الى السياسة من جديد

في فورة النجاح الذي لقيته في ميدان الاعمال والاقتصاد حسبت اني شفيت من السياسة. ولكنني لم البث ان شعرت بجذوتها لا تزال متقدة في نفسي تحت غطاء من الرماد، وان جرثومتها تعيش في داخلي على غير وعي مني كما تعيش الحشرة في جذع الشجرة.

وبعد، اليست السياسة داء اذا اصيب به الانسان رافقه طول حياته؟

ووجدت لنفسي عذرا حين فكرت في ان السياسة والاقتصاد صنوان لا يفترقان وان الاقتصاد السليم يحتاج الى استقرار سياسي كامل. وان لم يكن الامر كذلك فلماذا وضع العلماء ما سموه «الاقتصاد السياسي»؟.

لم أتجن على اصحابي

وعدت افكر في السياسة من جديد. او، بتعبير ادق، كان كل شيء حولي يذكرني بها. لكنني، وانا منصرف الى العمل الاقتصادي، كنت قد ضيعت آمالا كثيرة، وفقدت صداقة اخوان اعزاء على قلبي، وفي طليعتهم رياض الصلح. وتعزيتي الوحيدة انني لم اكن انا الذي تجنى على اصحابه او خفر لهم عهدا. وقد تكون السياسة، لعنها الله، هي التي ظلمت وهي التي تجنت.

وكنت قد قطعت كل صلة لي بالقصر الجمهوري، وبسيد القصر الرئيس الشيخ بشارة الخوري.

واذا بي ذات يوم، وقد مر على انتخابات ٢٥ أيار بضعة اشهر، افاجأ بمخابرة تلفونية من القصر. وكان مخاطبي العقيد منصور لحود مرافق الرئيس، يحييني بحرارة ولطف زائدين، ويقول لي ان فخامة

الرئيس قد حدد موعدا لاستقبالي في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي.

قلت: ولكني لم أطلب موعدا من الرئيس.
قال: أعرف. لكن الرئيس هو الذي أمر بذلك.

وفي الموعد المحدد دخلت على الرئيس وحييته بكل احترام وتهذيب، بكثير من البرودة، مع ان صداقتنا القديمة بلغت حد رفع الكلفة، وعدم التقيد بالمراسم واصول البروتوكول.

وكان الرئيس الشيخ بشارة عالي التهذيب، بشوش الوجه، لطيفا، فبادرني بقوله، بعد الترحيب بي:

أنت تعرف يا يوسف انني زعلت كثيرا مما حصل. سامح الله رياض الصلح وهنري فرعون و...

فقطعت كلامه بقولي: ولكن، فخامة الرئيس، الم تكن على علم بما دبروه لمنعي من الوصول الى النيابة.

قال، والابتسامة لا تفارق ثغره:

عرفت. سامحهم الله. انك رحب الصدر. وقد تابعت بسرور نشاطك الباهر في الحقل الاقتصادي ونجاحك فيه.

وانتقل الرئيس مباشرة الى موضوع آخر. فقال:
علمت انك ارسلت نجلك ابراهيم الى اميركا ليدرس الهندسة. كيف حاله؟

قلت: بخير والحمد لله.
قال: يسرني ان ابلغك ان الحكومة خصصت له منحة للدراسة. فهو منذ الان سيتابع دروسه بنفقة الدولة.

قلت من دون تردد: شكرا يا فخامة الرئيس. انني والحمد لله قادر على تعليم ابني بنفقتي الخاصة. واذا كان في خزينة الدولة فائض من المال اقترح على فخامتك ان تخص بهذه المنحة طالبا معوزا.

فوجم الرئيس. ورأيت اثار الانزعاج بادية على وجهه. وصمت. وبعد لحظات ودعته وانصرفت.

وانقطعت عن الرئيس عدة اشهر. ولم اكن قد عاودت الاتصال برياض الصلح. وانا مدرك تمام الادراك ان كليهما كان يشعر نحوي شعور المذنب، او بما يسمى في لغة اليوم «بعقدة الذنب».

كرافاتات من الرئيسة وأزهار مني

بعد أشهر، تلقيت من السيدة لور قرينة الرئيس الشيخ بشارة هدية على أثر عودتها من فرنسا، نصف دزينة من الياقات الجميلة ـ كرافاتات ـ. وكانت اللياقة تقضي علي بان اشكر للسيدة الكريمة هذه البادرة اللطيفة، على رغم الفتور القائم بيني وبين القصر، فبادرت الى إرسال سلة أزهار كبيرة باسم الرئيسة ارفقتها ببطاقة شكر وتهنئة بسلامة العودة.

ويبدو أن ما بدر مني لم يصل الى مسامع الرئيس، او أنهم في القصر أخفوا ذلك عنه ليوسعوا شقة الجفاء بيني وبينه. وبعد اسبوع

جاءني صديقي حبيب ابو شهلا على جاري عادته، ولم يكن قد انقطع عني يوما من الايام، ولا جفاني. بل ظل يكثر من زياراته لي ويردد على مسامعي كل مرة: «بدنا نصالحك مع الرئيس».

كان حبيب ابو شهلا من أظرف الناس، إن لم يكن أظرفهم. جميل الوجه، أنيقا، دائم الابتسام، دائم الضحك. وكان محاميا شهيرا، فصيح اللسان، واسع الثقافة، ولم أر في حياتي رجلا ينطبق اسمه عليه كما ينطبق على حبيب. فهو حبيب الى الجميع لا يضمر بغضا لأحد. واذا شب خلاف بين اناس او جماعات تصلهم به صلة، بادر الى العمل على تقريب القلوب وازالة اسباب الجفاء، حتى صار نجم المحافل السياسية والاجتماعية المتألق، يتجاذبه الجميع ويسعدون بلقائه والأصغاء الى حديثه الشائق وكلامه المعسول.

فلما دخل علي رحمه الله، قال لي: لم أكن أعهد فيك إهمال اللياقات. قرينة الرئيس ترسل اليك نصف دزينة كرافاتات إثر عودتها من باريس ولا تشكرها؟ وقد خصتك وحدك بمثل هذه الهدية. حتى أنا نفسي لم الق منها شيئا...

قلت، مستغربا: معاذ الله! لقد قمت بواجبي على الفور، وارسلت اليها سلة أزهار وبطاقة شكر وترحيب بعودتها سالمة.

قال: لا علم للرئيس بذلك. وهو متأثر كل التأثر.
قلت: ما عليك إلا أن توضح له الأمر.
وهكذا كان.

وفي اليوم التالي عاد حبيب الي وقال. اطلعت الرئيس على الحقيقة، فغضب وأنب المسؤولين الذين نسوا او تناسوا ان يخبروه. والان قل لي: اذا دعاك الرئيس الى الغداء فهل تلبي الدعوة؟

قلت: بكل تأكيد، فان تهذيبي لا يسمح لي بأن أرفض دعوة رئيس الجمهورية. هذا لا شك فيه. ولكنني لست مستعدا بحال من الاحوال ان اذهب اليه من نفسي لاعاتبه أو لأقول له: أشكرك على انتخابات ٢٥ أيار. هذا أمر.لا يخطر لي ببال.

قال: إذن سأقول له ذلك. دعني أبح لك بأنهم يشعرون بأنهم أساؤوا إليك، وبخاصة لأنك من رجال الرعيل الأول وقد أسهمت في بناء الاستقلال.

قلت: وشيء آخر أحب أن أصارحك به لأنك صديقي. اذا ما دعيت الى مائدة الرئيس فلا اقبل أن أوضع في ذنب المائدة بل يجب ان يكون مكاني لائقا. وما كنت لأضع مثل هذا الشرط لو كانت العلاقات بيني وبين الرئيس طبيعية.

قال حبيب، وهو يضحك: سترى أن مكانك سيكون في الصدر، يا... عنيد.

بعد أيام دعيت الى العشاء في القصر. وكان بين المدعوين وزراء ونواب. وكان مكاني الى يمين السيدة قرينة الرئيس.

وتعانقت ورياضا

وحل الصفاء محل الجفاء. او هكذا خيل الي. اذ راح الرئيس يدعوني الى العشاء، كل يوم أحد. وتسبق العشاء لعبة بريدج يشترك معنا فيها حبيب ابو شهلا، وغبريال طراد، وجورج شويري.

اما العلاقات بيني وبين رياض الصلح فلم يكن قد طرأ عليها أي تحسن بعد. كان رياض يشعر بالخطأ الذي ارتكبه نحوي ونحو نفسه عندما جارى الشيخ بشارة في إقصائي عن النيابة بانتخابات ٢٥ أيار، في الوقت الذي كنا نخوض المعركة على لائحة واحدة، وهو رئيس للوزراء.

صعب علي أن أنسى ذلك بسهولة. وكان يؤلمني أن يدب الفتور الى الصداقة المتينة التي تربطني برياض. وشعر أصدقائي واصدقاؤه بذلك، فلم يمض وقت طويل حتى توسط بيننا حبيب ابو شهلا والأمير مجيد ارسلان، فزال من نفسي ما رسب فيها من ذكريات الانتخابات. وأحسب أن رياض كان يشعر بما كنت أشعر به، فاجتمعنا وتعاتبنا وتعانقنا وعادت المياه الى مجاريها.

الصفاء بعد الجفاء

لم تنقطع حفلات البريدج ومآدب العشاء طوال السنوات التي تلت «حفلة» التفاهم، وحلول الصفاء محل الجفاء، بين الرئيس وبيني. فخلق ذلك جوا مشجعا على التحدث عن أي موضوع يخطر لنا، في السياسة، او الاقتصاد، او أحوال الناس، أو سلوك هذا او ذاك من الاشخاص الذين نعرفهم والذين يلعبون دورا على مسرح الحياة في لبنان.

وطبيعي ان تستأثر السياسة بالجزء الاكبر من احاديثنا بعد ان اقترب موعد انتخابات العام ١٩٥١. فصرنا نتحدث عن السياسيين الذين سيرشحون انفسهم في هذه المنطقة أو تلك. ويشترك معنا حبيب ابو شهلا في الحديث وإبداء الرأي. وكثيرا ما ألح علي حبيب أمام الرئيس بأن أعود الى مسرح السياسة وأرشح نفسي للنيابة، وكان الرئيس يسمع ولا يقول شيئا. فنعتبر سكوته موافقة وتحبيذا، لانه ما ترك فرصة الا اثنى فيها على عملي السياسي في فترة الاستقلال، واشتراكي في معركة الجلاء والعمل الاقتصادي الناجح. وبدا عليه انه يشاطر حبيب رأيه — ان لم يكن تحمسه — في وجوب عودتي الى السياسة.

وذاع وشاع أن المياه قد عادت الى مجاريها بين سيد العهد ويوسف سالم. وأن الرئيس صار يستقبله متى أراد، ويدعوه الى مائدته كل أسبوع.

والناس في لبنان مرهفو الحس والشعور، يملكون نوعا من الرادار، او البارومتر، يعرفون معه من أين تهب الريح. ويعرفون هل هذا السياسي ذو حظوة فيقتربون منه، أم مغضوب عليه من السلطان فيبتعدون عنه.

ومحترفو السياسة الذين أداروا إلي ظهورهم بالأمس، عادوا يتوددون الي بعد أن صرت من أقرب المقربين الى القصر.

جل من لا عيب فيه

اقترب موعد الانتخابات النيابية وبدأ السياسيون يتفاوضون على تأليف لوائح المرشحين، لم اجد اية صعوبة في الاتفاق مع السيد احمد الاسعد على ان نخوض الانتخابات في الجنوب معا. فتعاهدنا على ان تضمنا لائحة واحدة.

وذات يوم، قبل موعد الانتخابات بقليل، جاءني احمد الاسعد وعلى وجهه امارات الارتباك وقال لي، والكلمات تخرج من فمه ببطء وتردد: «أرجو أن لا تؤاخذني. إني متفق معك على أن نخوض معركة الانتخابات على لائحة واحدة. لكن الرئيس دعاني اليه امس وقال لي بالحرف الواحد: «أطلب اليك أن لا تأخذ يوسف سالم على لائحتك»...

صعقت. وكدت لا اصدق. لولا أنني أعرف احمد بك جيدا، وأعرف أنه رجل صادق لا يكذب ولا ينكث بعهد.

ورحت أفكر بسرعة. لماذا يفعل الرئيس هذا في الوقت الذي لا ينقطع فيه هو وحبيب ابو شهلا عن التحدث إلي عن الانتخابات، وتشكيل اللوائح، وعمن يصلح للنيابة، وعمن لا يصلح. وفي الوقت الـذي يستقبلني فيه واحداً من أصحابه وأحبائه الأقربين، يشجعني ولو بسكوته على ترشيح نفسي للنيابة؟

وفجأة.. خطر لي خاطر، فقلت لاحمد بك:
هل قال لك الرئيس شيئا عن اخي نقولا.
قال: كلا.
قلت: هل لديك ما يمنع من أن يحل أخي نقولا محلي على لائحتك؟
قال أحمد بك: أبدا، بل اني ارحب بذلك.
قلت: إذن نتفق في الحال.

ودعوت أخي على الفور وتم الاتفاق بينه وبين احمد الاسعد، وأقسم كل منهما يمين الشرف على السير في المعركة معا. وانتهى الاجتماع.

وجها لوجه مع الرئيس

انتهى الاجتماع. لكن شيئا في داخلي لم ينته. فقد بقيت القصة التي رواها لي احمد بك، والتي لم أشك في صحتها لحظة واحدة، تتفاعل في داخلي، وتحرك في نفسي أحاسيس عديدة، ليست كلها في مصلحة السياسة والسياسيين، والرئاسة والرؤساء.

وتكتمت عليها وعلى نفسي وعزمت على أمر...

وفي يوم الاحد التالي ذهبت كعادتي الى القصر ولعبت البريدج مع الرئيس وحبيب ابو شهلا، كأن شيئا لم يكن.

وبعد انتهاء اللعب طلبت الى الرئيس ان يحدد لي موعدا لمقابلته مقابلة رسمية. فقال الرئيس: «من كل بد. الآن أقول لمنصور ان يحدد لك موعدا.»

وكان العقيد منصور لحود مكلفا تحديد مواعيد المقابلات.

وسمع حبيب ابو شهلا حديثنا فقال على الفور: «لماذا تحديد الموعد؟ انت هنا. والرئيس هنا. فقل له الآن ما تريد. الا اذا كنت لا تحب أن أسمع أنا حديثك.»

قلت: معاذ الله يا حبيب.

ووجم الرئيس. او هكذا خيل لي. لكنه سارع الى القول: «حبيب على حق. دعنا نتكلم الآن.»

قلت: كما تشاء، فخامة الرئيس. وبدأت أتكلم بعد أن ألبست وجهي قناع رجل سياسي يخاطب رئيس دولة لا صديق يلاعب الرئيس البريدج. فقلت:

مضت علينا مدة ونحن نتحدث عن الانتخابات. وقد أعربت لي فخامتك مرارا عن رغبتك في أن أعود الى ميدان السياسة. وكنت أتردد دائما، وأراجع نفسي، وأدرس وضعي الخاص. إن فخامتك تعرف أنني، بعد انتخابات ٢٥ أيار أسست شركة تأمين، ثم شركة الكوكاكولا، وصرت عضوا في مجالس ادارات شركات عديدة منها البنك السوري، والريجي، والمرفأ، وغيرها. ونحن الآن على أهبة تأسيس مصرف جديد سأتولى أنا رئاسة مجلس إدارته. واذا أضفت الى هذا كله مسؤولياتي في مصلحة مياه بيروت، بدت لفخامتك حقيقة وضعي وكيف أنني مرهق بالعمل.»

واضفت بشيء من الخبث، والرئيس يصغي الي باهتمام وخشية، وكذلك حبيب:

«إني أعلم أن فخامتك تريدني نائبا في المجلس لأعاونك بجهدي المتواضع على خدمة المصلحة العامة. لكنني واثق بأنك تقدر ظروفي الخاصة، فضلا عن ايماني بأن سهري على الشركات التي ذكرتها من شأنه أن يوفر بعض الازدهار للبنان، وبذلك أكون قد أديت لوطني الخدمات التي تنتظرها مني يا سيدي الرئيس. لهذه الاسباب ارجو بالحاح أن تقبل عذري وتسمح لي بأن لا ارشح نفسي للنيابة في هذه الدورة...»

وختمت كلامي بقولي: ويسرني أن أبلغ فخامتك إنني سعيت الى حمل احمد بك الاسعد على أخذ أخي نقولا على لائحته، ونجحت في مسعاي. ووافق احمد بك على التعاون مع نقولا لأنه يعلم تمام العلم أنك تؤيد ترشيحي وبالتالي تؤيد ترشيح أخي، اذ لا فرق بيني وبينه.

لم يتحرك عرق في وجه الشيخ بشارة. وكنت كأني أخاطب أبا الهول.

لكن حبيب ابو شهلا تحرك بعفويته الطبيعية، وطيبته الفطرية وصاح: أبدا! نحن لا نقبل إلا بك. والرئيس يريدك أنت. وعلى هذا اتفقنا. فكيف تتهرب؟

أجبت: أرجو أن تعذرني، كما رجوت أن يعذرني فخامة الرئيس. أنت عضو معي في عدد من الشركات، وتعرف ضخامة المسؤوليات الملقاة على عاتقي.

ظل حبيب يناقشني ويلح.

وظل الرئيس صامتا يصغي إلينا، ويفرك يديه إحداهما بالأخرى.

وقمنا الى العشاء.

في مساء اليوم التالي، الاثنين، جاءني احمد بك الاسعد، وسألني بلهفة:

ماذا قلت للرئيس؟ هل أخبرته بشيء مما قلته لك؟

قلت: ابدا. لكنني شرحت له الاسباب التي تحول بيني وبين ترشيح نفسي للنيابة، وكثرة مشاغلي، وتعدد مسؤولياتي في الشركات. وقلت له انني سعيت لديك لتضم اخي نقولا الى لائحتك، وانك وافقت على ذلك. هذا كل ما جرى، لكن قل لي. لماذا تسألني؟

قال:

صباح اليوم طلبني الشيخ بشارة وعاتبني على ضم نقولا الى لائحتي. وسألني كيف أفعل ذلك من دون ان أستشيره. فقلت له: «انك يا سيدي الرئيس طلبت مني أن لا أتعاون مع يوسف سالم. اما شقيقه نقولا فلم تأت على ذكره.» عند ذلك غضب الرئيس وقال لي بحدة: حتى نقولا لا أريده.

وتابع أحمد بك روايته. قال:

أجبت الرئيس بقولي: «والله يا فخامة الرئيس ما عدت أقدر أن أعمل شيئا الآن. لقد اتفقت مع نقولا سالم واقسمنا يمين الشرف. ولا أستطيع أن أنكث قسمي.»

فسكت الرئيس — والكلام لا يزال لأحمد بك الاسعد — وطلب مني ان لا أطلعك على شيء.

وقبل أن يغادر احمد بك منزلي طمأنته بقولي:

لا تقلق يا احمد بك. سيبقى حديثنا كله سرا بيننا.

وجرت الانتخابات. ووفى احمد الاسعد بعهده. وصار أخي نقولا نائبا.

أما أنا فحرصت على أن لا أغير شيئا من عاداتي. وواظبت على لعب البريدج عصر كل يوم أحد مع الرئيس، وعلى العشاء على مائدته.

واستمر مسلسل المفاجئات في صلتي به يكر، على رغم مظاهر الود والحفاوة التي كان يخصني بها.

جل من لا عيب فيه

والآن، وأنا اغوص في أعماق الماضي، والتقط ذكريات ظلت راكدة في قرارة نفسي اكثر من عشرين عاما، الآن أتساءل، والرجلان في ذمة الله، هل صرت في حل من الوعد الذي قطعته لأحمد بك بأن «يبقى الأمر سرا بيننا»؟

ويعذبني سؤال آخر: هل كان من حقي، وأنا أسرد هذه الذكريات بأمانة وصدق، أن أكشف للناس عما كان يظهره لي الرجل الكبير الرئيس الشيخ بشارة من ود، وما كان يخفيه من بغضاء؟

الست، وأنا افعل، أنزع بعض الأوراق الخضر من أكليل الغار الذي كلل به اللبنانيون هامة أبي الاستقلال لأضع بدلا عنها عودا من الشوك؟

ترددت. لكنني قلت لنفسي إن الشيخ بشارة صار ملك التاريخ. ومن واجب من يكتب التاريخ أن يعنى بالحقيقة قبل كل شيء.

وأسارع الى القول إن التاريخ لا يحفظ إلا ذكرى العمالقة. وقد كان الشيخ بشارة عملاقا اتسم بالشجاعة والوطنية والصمود في فترة دقيقة من تاريخ لبنان. وكان جديرا بلقب «ابي الاستقلال» الذي أطلقه عليه اللبنانيون.

هذا لا شك فيه. ولكن لا شك كذلك في أن جذورا عميقة كانت تشده الى حزبية الجبل اللبناني القديم، الحزبية المحلية، الموروثة عن عهد المتصرفين، وقبل المتصرفين.

وعلى رغم ثقافته الواسعة، وتبحره في الفقه والتاريخ والادب، واللغات، وانفتاحه على الشرق والغرب، وتنقله بين باريس والقاهرة وبيروت، وولادته وسكناه في بيروت، ظل الشيخ بشارة ابن بلدة «رشميا» في الجبل اللبناني. وظلت عداوته لاميل اده، ولسياسته، هاجس حياته.

كان هاجس اميل اده مالئا حياة الشيخ بشارة. وفيه نجد تفسيرا لكثرة من مواقفه وتصرفاته. وعلى ضوئه نستطيع ان نقرأ مذكراته «حقائق لبنانية».

ولأنني رفضت أن يرمى اميل اده بالخيانة عام ١٩٤٣، ورفضت أن يطرد من المجلس، كان الرئيس العملاق الذي أحببت، وخدمت، يظهر لي الود، ويخفي البغضاء.

وقديما قيل: «جل من لا عيب فيه».

تأميم شركة المياه

في نهاية العام ١٩٥٠ انتهى امتياز شركة مياه بيروت. وصار علينا ان نسلمها الى الحكومة لتأخذ بشأنها القرار الذي تراه.

وكنت قد اتخذت الحيطة ليوم انتهاء الامتياز فعملت على تأسيس الشركات التي تكلمت عنها حتى لا اجد نفسي – في الحقل الاقتصادي – عاطلا عن العمل.

وبدأت اعد نفسي لترك شركة المياه حين دعاني الرئيس الشيخ بشارة الى مكتبه وقال لي بحضور رياض الصلح، رئيس الوزراء: «ان شركة المياه هي اول شركة تؤممها الحكومة، ويخشى ان تسوء حالها اذا سلمناها الى احدى ادارات الدولة. لذلك رأينا ان نحولها الى مصلحة مستقلة على ان تبقى انت مديرا لها كما في السابق تديرها بالكفاءة التي عرفت بها».

فأجبته إني أعتذر عن أن أعمل موظفا في الدولة، ناهيك بأن القانون لا يجيز ذلك، إذ انني أدير واستثمر شركات عديدة وادارتها تلقي على عاتقي مسؤوليات جمة. واذا أصر فخامة الرئيس وحكومته على أن أستمر في ادارة الشركة، فالحل الوحيد هو ان ترتبط الدولة معي بعقد.

قال الرئيس: فليكن. لقد قررنا تعيين الامير جميل شهاب رئيسا لمجلس ادارة المصلحة الجديدة. وسنطلب اليه ان يوقع معك على عقد ينص على الصلاحيات عينها التي كنت تتمتع بها في الشركة.

واضاف الرئيس: انا أعرف أن الأمير جميل صديقك. ولي مل‍ء الثقة بانكما ستتفاهمان على كل شيء.

ولم أر بدا من إجابة الرئيس الى طلبه. فشكرت له حسن ظنه وثقته بي وكذلك شكرت رياض بك.

وفي اليوم التالي جاء الامير جميل الى مكتبي. واتفقنا على شروط العقد بيني وبين الدولة.

وصارت شركة المياه تدعى «مصلحة مياه بيروت». ولها مجلس ادارة من رئيسه المير جميل شهاب، والاعضاء السادة خليل الهبري. اندره تويني. جوزف نجار. انطون شمالي. ابرهيم عبد العال.

وبقيت انا مديرها العام.

قصتي مع المير جميل

كان المير جميل شهاب موظفا نشيطا ونزيها، قضى شبابه وكهولته في خدمة الحكومة، دون النظر الى اي شأن آخر، ونشأت عنده مع الأيام «نفسية ضيقة» لا تريه إلا حياة الوظيفة الحكومية الروتينية، وتريه اعتداد الموظف الناهي الآمر الذي يصدر الاوامر وينتظر الطاعة من مأموريه. وقد اضيفت الى هذه النفسية احلام راكدة في مخيلته تذكره عهدا كان الحكام فيه من الاسرة الشهابية. فصار المير جميل ـ مع استمرار ترقيه في وظيفته وتكاثر صلاحياته الحكومية ـ يرى دائما انه امير، وان الناس دونه شأنا، حتى حلم بان يعينه الفرنسيون رئيس جمهورية. فهذا المركب الاستعلائي جعل المير جميل يرى في معاونيه مأمورين يجب عليهم ان يطيعوه. في حين أن المبدأ المعمول به في القطاع الخاص يرى في المعاونين مساعدين، لا مأمورين، وشركاء في العمل لا مأجورين.

في الجلسة الاولى التي عقدها مجلس الادارة برئاسة المير جميل بسطت له حالة الشركة بسطا كاملا. وشددت على وجوب الاسراع في اصلاحات ملحة ومهمة، لان الشركة السابقة ـ ككل شركة يقرب

امتيازها من الانتهاء ـ لا تعود تفكر في الاصلاحات البعيدة المدى، او في الانشاآت والتغييرات الرئيسية، لئلا تتكلف نفقات يرى اصحاب الامتياز ان يوفروها لجيوبهم. ثم عرضت ما تحتاج اليه المصلحة من اجراءات سريعة لتستطيع مواصلة العمل وتأمين مياه العاصمة.

وتلقى المجلس بياني بأصغاء.

وكم كانت دهشتي عظيمة عندما قال المير جميل: حسنا... والآن ارجو ان تنسحب من الجلسة لاننا نريد ان نتناقش بالامور التي عرضتها!

سمعت هذه الكلمة فجن جنوني. وتوقفت بضع ثواني لا ادري ما افعل. وباسرع من لمح البصر انسحبت خوفا من ردة فعل مني تقلب علاقتنا الجديدة رأسا على عقب.

وذهبت الى مكتبي افكر بالاستقالة، وان كان ترك الشركة في مرحلتها الجديدة المبهمة والخطرة يؤلمني.

وبعد نصف ساعة جاءني الحاجب يقول:

ـ المير جميل يرجو ان تشرف الى الاجتماع.

فأجبته: ارجع وقل للمير جميل اني لست بحاجة اليه. فأن كان يحتاجني فليتفضل هو...

واضطرب الحاجب وتلكأ، فقلت له بنبرة جزم: ارجع حالا وبلغ المير جميل ما سمعته!

وذهب الحاجب، وبعد ثوان، رأيت خليل الهبري مهرولا مشدوها، معتذرا مجاملا، مقسما ان المير لم يقل شيئا يمس كرامتي، وهو يحترمني ويحبني... ونحن لا نرضى... ونحن اخوان... الى آخر المجاملات المعهودة في بلادنا.

واخذ السيد هبري يستحلفني لأن ارافقه حتى يعتذر المير مني. فرفضت وقلت له:

ماذا تعرف انت يا خليل، وماذا يعرف المير جميل، ومجلس الادارة، من شؤون الشركة ومشاكلها وحاجاتها حتى تبحثوا امورها في غيابي، وأنا وحدي الخبير بها؟

وقال خليل: والله يا عمي الحق معك، ونحن من دونك لا نستطيع شيئا. والمير قال ما قاله من دون انتباه او تفكير. فتعال معي حتى نسوي الامور.

– أبدا، لا تتعب نفسك فلن اذهب.

وبعد دقائق دخل علي المير جميل نفسه وابتدأ يعتذر. ثم طلب الي مرافقته الى الجلسة. فرفضت، وقلت له:

قد تعتقد أني موظف عندك وتريد ان تعاملني كما تعامل مرؤوسيك وهذه عادتك بقوة الاستمرار لذلك لست مستعدا ان اتعاون معك. وقد عزمت مقابلة الرئيس، وبعدها اما ان استقيل انا او تستقيل انت.

عندئذ تهيب الموقف ورجاني ان ارى حلا لا يعرض كرامته تجاه الشيخ بشارة ورياض الصلح اللذين انتخباه لهذا المركز.

واتفقنا على ان يعود الى الجلسة ويتخذ قرارا مآله ان المدير هو عضو طبيعي في مجلس الادارة يحضر كل الاجتماعات، وبعدها يحل الجلسة ويعين اجتماعا آخر بعد يومين. وانه عند ابتداء الجلسة المقبلة يعتذر ويده ذلك في المحضر.

وكان كل ما طلبت.

وقد اتيت على هذه الحادثة لاظهر الفارق بين التفكير الحكومي الروتيني التقليدي، وبين التفكير الشخصي في الاعمال الخاصة. فكرت في ان تظل شركة مياه بيروت مؤسسة ذات مبادرة تنبعث من مصلحتها الحيوية التي تنظر الى المستقبل بحذر وحسبان، لا دائرة حكومية متجمدة تخضع لهوى من يرئسها، فالشركة حياة بيروت كلها، وسكان بيروت جميعا. وهذا ما جعلته نصب عيني طوال السنوات التي عملت فيها مهندسا فمديرا.

اللبنانيون يؤمنون بالاقتصاد الحر

كانت الخطوة التي خطتها الحكومة اللبنانية في اقدامها، للمرة الاولى، على تأميم شركة خاصة تدبيرا الزاميا فرضه انتهاء امتياز الشركة، ولم يفرضه سبب آخر

ذلك أن اللبنانيين يؤمنون بالاقتصاد الحر القائم على المبادرة الفردية والمنافسة المشروعة.

وجميع العهود التي توالت على لبنان بعد الحرب العالمية الثانية آمنت بالنظام الحر وحافظت عليه. وشجعها على ذلك ما رأته من اخفاق الدول، ولا سيما في المنطقة العربية، التي غيرت هذا النظام وبنت اقتصادها الجديد وسياستها على نظام تأميم المؤسسات والشركات التي قامت على جهد الافراد، فمنيت بفشل ذريع وتراجع اقتصادها بعد ازدهار.

ذلك لأن المنافسة هي المحرك البشري الأكبر الكفيل بتحقيق التحسين المستمر في جميع حقول الجهد الانساني.

وحين تعطل الدولة هذا المحرك لا تجد له بديلا. واذا وجدت، ونادرا ما توفق، يدفع المواطنون من حرياتهم ثمن هذا البديل.

بدء نذير العاصفة

في العام ١٩٥٠ كان لا يزال الشيخ بشارة الخوري في سدة الرئاسة وقد مر عليه فيها ثماني سنوات.

ذلك انه قبل ان تنتهي مدة ولايته سنة ١٩٤٩ عرضت حكومة رياض الصلح على مجلس النواب مشروع قانون بتعديل الدستور تعديلا يجيز تجديد الرئاسة ست سنوات اخرى، فعدل المجلس الدستور وجدد الرئاسة للشيخ الرئيس.

لو سمعا لميشال شيحا

تلك الخطيئة الرئيسية التي اقترفها الشيخ بشارة ومشجعوه ما كان ليرضى عنها قريبه ميشال شيحا، وكثيرا ما حاول شيحا اقناع صهره بخطر التجديد، وبرفض الرأي العام له، وبوجوب الحفاظ على نص الدستور، وكثيرا ما كتب في جريدة «لوجور» يندد بهذه الرغبة ولم يفلح. واخيرا ضاقت به الحيل فطلب الى صديقه موسى مبارك ان يذهب الى رياض الصلح ويطلب اليه عدم تشجيع الشيخ بشارة على التجديد. فأصغى الزعيم الى كلام زائره واجاب:

اسمع يا موسى، أنا لم اتعود ان «ابكل» سترتي الا امام الشيخ بشارة الخوري وحده. ولكني لست مستعدا لان ابكلها امام كميل شمعون او حميد فرنجيه. واريد ان يعلم ميشال شيحا انه اذا صرف الرئيس الشيخ بشارة النظر عن التجديد، فانا مستعد للرئاسة. واذا رشحت نفسي نجحت. ولن اعمل ما عمله المير بشير الشهابي ليصير اميرا على لبنان، بل اني ارشح نفسي وانا رياض الصلح المسلم.

وقد اخطأ الرئيسان بشارة ورياض.

وترك التجديد في البلاد اثرا سيئا واثار نقمة فريق كبير من

اللبنانيين، سياسيين وغير سياسيين.

وقويت شوكة المعارضة. وبدأت الصحف تشن حملات عنيفة على العهد، والحكومة، وعلى سيد العهد نفسه. واخذ الرئيس وحكوماته يقابلون هذه الحملات باحالة الصحفيين على المحاكمة وارسال بعضهم الى السجن حينا، وتعطيل الصحف احيانا.

وكم الافواه في لبنان، وتحطيم الاقلام، وكبت الحريات تولد الانفجار.

وزاد في الطين بلة، بطانة فاسدة احاطت بالرئيس، وضعفه امامها، واستسلامه الى شهواتها.

السلطان سليم

ولم تكن هذه البطانة بعيدة عن الرئيس بل كانت بمعظمها من لحمه ودمه.

كان يتزعمها أخوه سليم الملقب بالسلطان. والذي كان في حزبيته العنيفة مثال اللبناني القديم وقد حاول أن يبني نفوذه ونفوذ شقيقه سيد العهد على سياسة المختار والناطور.

ووجد «السلطان» في بعض الموظفين العبيد ادوات طيعة يأمرها فتجيب عابثة بالانظمة والقوانين ومبادىء الاخلاق، حتى ضجت البلاد وارتفعت الشكوى وعم السخط على الدولة جميع الطبقات.

وكان رياض الصلح، رئيس الوزراء، في طليعة الناقمين على تدخل الشيخ سليم في شؤون الدولة على شكل يوحي بأن «السلطان» هو الدولة،

وهو الحكومة، وهو العهد. فخلق ذلك هوة بين رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة.

وأذكر أنه ذات صباح صدرت مجلة «الصياد» لصاحبها سعيد فريحه وفيها مقال بتوقيع محمد النقاش احد محرريها اعتبره الشيخ سليم الخوري ماسا بأخيه رئيس الجمهورية. فأوعز الى مدير الشرطة ناصر رعد، وهو من اصدقائه الاقربين بجلب سعيد فريحه واستجوابه، فصدع ناصر رعد بالامر وجاء بالاستاذ فريحه الى دائرة الشرطة، حيث استجوبوه استجوابا جافا، وسألوه كيف سمح لنفسه ولمحرري مجلته بأن يمسوا ما لا يمس (وكان هذا هو التعبير الذي تستعمله الصحف للاشارة الى مقام رئاسة الجمهورية وشخص الرئيس).

وبعد ان قضى سعيد فريحه ساعات طوالا في مركز الشرطة أخلي سبيله، واعتقل محمد النقاش وزج في السجن.

ولما عرف رياض الصلح رئيس الحكومة ووزير الداخلية، بالأمر ثار واتصل بمدير الشرطة وعنفه تعنيفا شديدا على تنفيذ أمر يصدره اليه رجل غير مسؤول، وأمره باطلاق سراح الصحافي السجين، فرفض مدير الشرطة، أن ينفذ الأمر مع ان رياض الصلح كان، بوصفه وزيرا للداخلية، رئيسه المباشر.

الافراج عن محمد النقاش

وثار رياض. ولم يكن يستطيع ان ينقل مدير الشرطة من مركزه أو أن يحيله على المجلس التأديبي، لأن تدبيرا كهذا يحتاج الى مرسوم. وخشي رياض ان يمتنع الشيخ بشارة عن توقيع المرسوم، فعمد الى اصدار قرار يعطي مدير الشرطة اجازة اجبارية مدتها عشرون يوما.

فغادر مدير الشرطة مركز عمله مكرها وأطلق سراح محمد النقاش.

عند ذلك أراد السلطان سليم أن يلقي درسا على رياض الصلح ويريه نفوذه الواسع في جبل لبنان، فأوعز الى جماعات تنتمي اليه بأن تزحف نهار الاحد التالي الى بيته في فرن الشباك. ثم تواكبه في تظاهرة ضخمة تدخل العاصمة وتتحدى رئيس الوزارة والمعارضة وكل من لا يأتمر بأمره.

وعرف رياض الصلح بما يبيته سليم الخوري، فدعا فؤاد صوايا محافظ جبل لبنان الى منزله وقال له: «اذهب في الحال الى القصر واطلب مقابلة رئيس الجمهورية. واذا لم يستقبلك على الفور أبلغه انك أت برسالة من رئيس الوزارة. وقل له إن رياض الصلح بلغه ما أعده أخوك الشيخ سليم من تحديات لا يمكن السكوت عنها، وانه سيحاول ان يدخل بيروت على رأس تظاهرة ضخمة. لذلك فأن رياض الصلح، لا بوصفه رئيسا للحكومة ووزيرا للداخلية، بل بوصفه رياض الصلح، مجردا من كل صفة رسمية، قد استنفر رجال الاحياء الغربية ليمترسوا في فرن الشباك ويمنعوا بقوة السلاح كل تظاهرة تحاول اقتحام العاصمة، أيا كانت نتيجة ذلك.»

وذهب فؤاد صوايا من فوره الى رئيس الجمهورية وأبلغه ما قال له رياض فوجم الشيخ بشارة وحار في أمره. ولكنه بعد قليل اتصل برياض ودعاه الى الاجتماع فحضر، وكانت بين الرئيسين خلوة طالت اكثر من ساعة خرج على اثرها رياض من عند الرئيس باسما مرفوع الرأس، عالي الجبين.

وصدرت أوامر الدولة الى القائمقامين وقادة الدرك في جبل لبنان بمنع الناس من النزول جماعات الى بيروت في ذلك اليوم.

وسميت تدابير الدولة المتخذة ضد الصحافيين مجزرة الصحافة، لان ثماني صحف عطلت عن الصدور دفعة واحدة، لمدة شهر.

ولما مثلت وزارة سامي الصلح امام المجلس لنيل الثقة قابلها النواب بهجوم كاسح لم يقتصر على نواب المعارضة بل اشترك فيه عدد من النواب الموالين.

ولم يدافع عن الحكومة سوى الوزير اميل لحود. ولكن دفاعه كان فاترا. ودلت الاكثرية الضئيلة التي نالتها الحكومة دلالة واضحة على قوة المعارضة وضعف العهد، وكل حكومة يأتي بها سيد العهد.

اجتماع دير القمر

وفي صيف ١٩٥٢، تنادى خصوم الرئيس الخوري الى اجتماع شعبي ضخم عقد في دير القمر في ١٧ من آب، بتدبير زعماء المعارضة كميل شمعون، وكمال جنبلاط، وريمون اده، وحميد فرنجيه، وعادل عسيران.

وألقيت في الاجتماع خطب عنيفة جداً ضد الرئيس الشيخ بشارة، ووجهت اليه والى عهده الفاظ جارحة بلغت حد الاهانة على لسان الخطباء، وبخاصة النواب المعارضين.

وصدم الشيخ بشارة حين عرف أن رئيس حكومته سامي الصلح قد سمح بعقد الاجتماع ولم يحرك ساكنا للرد على الذين هاجموا الرئيس وأطلقوا عليه الالقاب المزرية.

وانفجر الخلاف بين رئيس الجمهورية ورئيس حكومته.

وراح رئيس الجمهورية يوعز الى الوزراء المقربين اليه بأن يستقيلوا حتى تجر استقالتهم رئيس الوزارة فيستقيل.

ولكن اللعبة لم تنطل على سامي الصلح. فكان كلما استقال وزير بادر الى وضع مرسوم بقبول استقالته وتعيين بديل له. وأرسل المرسوم الى قصر الرئاسة فلا يوقع عليه الرئيس. وظل سامي بك في مكانه. فلا الاستقالة تقبل. ولا البديل يعين.

وساد صلة رئيس الحكومة برئيس الجمهورية جو غريب، هو مزيج من الحذر وعدم الثقة. بل هو أقرب الى التآمر منه الى التعاون.

برنامج اصلاح واستقالة سامي الصلح

وخطر لرئيس الجمهورية ان يقترح على الحكومة «برنامج اصلاح» لتهدئة الرأي العام، وتخفيف نقمة المعارضة. واعد البرنامج بنفسه وحمل مجلس الوزراء على اقراره. وطلب من الحكومة ان تتقدم به الى مجلس النواب وتطلب لتنفيذه حق التشريع لمدة معينة وتطرح الثقة على اساسه.

واجتمع المجلس في ٩ من أيلول ١٩٥٢. وتلا الوزير اميل لحود بيان الحكومة وشرح مشاريع الاصلاح وطالب المجلس بمنح الحكومة حق التشريع لمدة محددة لتحقيق الاصلاح بمراسيم اشتراعية. وانهى خطابه بطلب الثقة بالحكومة. .

فوقف رئيس الوزراء وسحب من جيبه خطابا معدا من قبل وقال

مخاطبا النواب ان الخطاب الذي القاه اميل لحود هو بيان بمشاريع واعمال. واما انا سامي الصلح فاريد ان اتكلم عن سياسة الحكومة. لقد تجاوز رئيس الجمهورية صلاحياته و... و... ومن اجل ذلك لن اطرح الثقة لانني لا اريد الثقة منكم. وانا ذاهب لاني اعتبر نفسي مستقيلا.

وقبل ان ينهي سامي بك كلمته كان الوزراء قد انسحبوا الواحد تلو الاخر. وحدث هرج ومرج. وترك رئيس الحكومة مكانه وخرج بينما اخذ هنري فرعون يصيح به بصوت عال ويكيل له الكلمات النابية.

لم يذهب سامي الصلح الى قصر الرئاسة بل ذهب الى بيته حيث لحق به اقطاب المعارضة وجمهور كبير من انصاره.

وعلى الفور اصدر رئيس الجمهورية مرسوما «باعتبار سامي الصلح رئيس الوزراء مستقيلا» وقبول استقالة الوزراء.

وزارة ادارية برئاسة ناظم عكاري

على الاثر طلب الرئيس ناظم عكاري وكلفه ان يشكل وزارة برئاسته وعضوية موسى مبارك وباسيل طراد. فقبل السيد عكاري المهمة بعد ان استأذن الرئيس بان يزور سامي الصلح، ويقول له انه مكلف بتأليف وزارة «ادارية» لا سياسية تضع في رأس مهامها تهدئة الحالة، وتخفيف حدة التوتر الذي يسود البلاد. فرحب سامي الصلح به وبوزارته ودعا له بالتوفيق.

ومما يجدر ذكره ان ناظم عكاري كان، ولا يزال، من أطيب

العناصر اللبنانية التي شغلت في الدولة مراكز مرموقة، وابتعدت عن السياسة وما تجره من أحقاد وخلافات. وكانت وزارته تلك التي عاشت بضعة أيام وزارة تهدئة وانتقال.

وسادت الفوضى

سجلت المعارضة انتصارا جديدا بذهاب سامي الصلح على الشكل الذي ذهب فيه. ولاسيما بخطابه وهجومه العنيف على رئيس الجمهورية. وهو، رئيس الحكومة، المفروض فيه أن يصد الهجمات عن رئيس الدولة.

وأقفلت مدينة بيروت، وتعطلت الاعمال، وسادت الفوضى. وشعر الناس بأن زمام الحكم قد أفلت من يد الحاكم، على رغم أن تعيين وزارة التهدئة لقي الارتياح في اوساط عديدة.

وهال الرئيس أن تبقى الاسواق مقفلة، والاعمال التجارية معطلة فصمم على دعوة أحد الاقطاب السياسيين وتكليفه تأليف حكومة جديدة عله يضع حدا للاضراب. فطلب السيد صائب سلام وأبلغه انه فكر في تكليفه تشكيل وزارة جديدة. وكان ذلك في صباح اليوم التالي لتعيين حكومة ناظم عكاري، وسأله: هل تستطيع ان تفتح بيروت فأجابه صائب بالايجاب. فطلب منه الرئيس ان يجري مشاورات مع السياسيين ويعود اليه ليصدر مرسوما بتعيينه.

وغادر صائب سلام القصر الجمهوري وهو يأمل ان يستطيع فتح العاصمة ووضع حد للاضراب.

اقتراح عجيب

وقضى صائب يومين في الاجتماع بالسياسيين والتشاور معهم. وعاد الى قصر الرئاسة فكلفه رئيس الجمهورية رسميا تأليف الحكومة واطلق يده في اختيار الوزراء وحثه على الاسراع في العمل والمجيء بوزارة سياسية قوية.

وشرع صائب في العمل على تشكيل وزارة تتميز عن الوزارات التي عرفها لبنان وألفها الناس، ففكر في الأتيان بوزيرين من خارج المجلس هما الفرد نقاش، أحد رؤساء الجمهورية اللبنانية في عهد الانتداب، وشارل مالك سفير لبنان في واشنطن يومذاك. وابرق الى شارل مالك يعرض عليه الاشتراك في الوزارة.

وفي هذه الاثناء كان عبد الله اليافي، ورشيد كرامي، وسعدي الملا، وحسين العويني، وهم المرشحون التقليديون لترؤس الوزارات في لبنان، يجتمعون وينضم اليهم رهط من وجهاء المسلمين، وممثلي الشباب، ويتعاهدون على ان لا يقبل احد منهم ان يؤلف حكومة ما دام بشارة الخوري رئيسا للجمهورية. فما كان من صائب الا ان انضم اليهم ووافق على ما تعاهدوا عليه. ووقعوا في ما بينهم على وثيقة خطية بهذا التعهد.

وفي اليوم التالي نزل صائب سلام الى سرايا الحكومة واجتمع بناظم عكاري رئيس الوزراء والوزير موسى مبارك وقال لهما ان الحالة لن تهدأ، والعاصمة لن تفتح إلا اذا استقال الشيخ بشارة وغادر البلاد. فلنعد له طائرة تنقله الى أي بلد يريد.

استكبر عكاري الأمر. وقال للرئيس المكلف: كيف ننفي من لبنان رجلا كالشيخ بشارة ادى الى وطنه الخدمات التي اداها فضلا عن أنه لبناني عريق، ورئيس الجمهورية، وابو الاستقلال؟

وفي الحال طويت صفحة هذا الاقتراح العجيب!

وتسارعت الاحداث. وكانت كل دقيقة تحمل نبأ مثيرا. والى القارىء فيلم الأحداث.

ـ اتصل صائب سلام بالجنرال فؤاد شهاب قائد الجيش تلفونيا وتبادلا الرأي في الحالة. وبعد قليل وصل الجنرال شهاب الى مكتب رئيس الوزارة، واقفلت الابواب عليهما طوال ساعة كاملة.

ـ انضم صائب سلام الى صفوف المعارضة واعد كتابا موجها الى رئيس الجمهورية يطلب فيه ان يعتزل ويغادر الرئاسة على الفور. ووضع الكتاب في جيبه بعد ان اطلع عليه زعماء المعارضة. وخبر هذا الكتاب لم يعد سرا على كثيرين.

ـ قدم تسعة نواب كتابا الى رئيس مجلس النواب يطلبون ابلاغ رئيس الجمهورية وجوب الاعتزال.

ـ حضر النواب الموالون الى قصر الرئاسة في عاليه وعددهم زهاء خمسين نائبا يؤلفون اكثرية المجلس، وقدموا الى الرئيس عريضة يعربون فيها عن تأييدهم له وثقتهم به.

تلفون من شارل مالك

احدى حلقات هذا الشريط السينمائي وهي عجيبة وغريبة، وصول صائب سلام الى قصر الرئاسة في عاليه والمواجهة المثيرة بينه وبين رئيس الجمهورية. قال الشيخ بشارة للسنيد سلام: انا اعلم انك تحمل في جيبك رسالة موجهة الي تطلب فيها ان استقيل. فابقها في جيبك لأني قد أقلتك من رئاسة الحكومة التي كلفتك تشكيلها. وبدلا من الرسالة التي

تحملها، عليك ان تكتب الكتاب التقليدي الذي يوجهه رؤساء الحكومات الى رئيس الدولة حين يغادرون الحكم.

وكانت نكتة تلك الدقائق المثيرة ان رن جرس التلفون في مكتب الرئيس في عاليه. وعلى طرف الخط شارل مالك يتكلم من واشنطن ويبلغ الرئيس انه قبل بالاشتراك في حكومة صائب سلام، ويشترط ان يعهد اليه بوزارة الخارجية...

بعد دقائق طلب الرئيس السيد حسين العويني وسأله هل يقبل بتأليف حكومة جديدة ما دامت اكثرية المجلس قد جددت ثقتها به، أي برئيس الجمهورية؟

قال الحاج حسين: ارجو ان نجتمع باللواء فؤاد شهاب لنقيم الموقف بالضبط.

فدعي الجنرال شهاب واجتمع بالرئيس بحضور السيد عويني. وسأل الرئيس قائد الجيش هل يريد أو هل يستطيع ان يفتح بيروت بالقوة اذا ظلت العاصمة مضربة، وحوانيتها مقفلة، وأسواقها مقفرة من الناس؟

فاستمهله الجنرال شهاب ريثما ينزل الى بيروت ويجتمع بأركان حربه للتشاور. ولما عاد الجنرال شهاب الى عاليه أبلغ الرئيس أنه، بالاتفاق مع قادة الجيش، يأبى أن يريق دما لبنانيا لفك الاضراب.

عند ذلك قرر الشيخ بشارة أن يستقيل وأبلغ قراره هذا الى الجنرال شهاب وطلب منه أن يعود اليه حوالي منتصف الليل ليسلمه مرسوم تعيينه رئيسا للحكومة التي ستشرف على انتخاب خلف له. فعاد الجنرال شهاب في الموعد المحدد ودخل على الشيخ بشارة فسلمه نسخة من الدستور وقال له إنه يأتمنه عليه، وإنه عينه رئيسا للحكومة وطلب اليه ان يشكل على الفور حكومة مصغرة، تقوم بأعباء الرئاسة موقتا وفق نصوص الدستور الى ان ينتخب رئيس جديد للجمهورية. وبذلك تحفظ الشرعية ولا يخلو الحكم دقيقة واحدة من رئيس شرعي. ويظل على رأس الدولة رئيس ماروني.

روى الشيخ بشارة في مذكراته «حقائق لبنانية» قصة هذه الساعات المؤثرة الحاسمة من تاريخ حياته، وتاريخ لبنان فقال:

«وبعد ان انسحب الحاضرون قربت اللواء فؤاد شهاب مني وسلمته الدستور اللبناني وقلت له: «احتفظ به وحافظ عليه...»

ثم دفعت اليه كتاب «مجموعة خطب» وقلت: قد تحتاج الى مراجعتها.

والتفت اللواء شهاب رئيس الوزارة الجديد الي وهو بالغ التأثر، ولم يبق في الغرفة سوى ميشال شيحا، وقال لي القائد: قد تعتقد فخامتك انني لم اقم بواجبي كاملا في مثل هذه الظروف، لكنني فضلت الصراحة وانا شديد الأسف لهذه النتيجة. ان الناس اجمعين يعرفون، وانا اعرف، ان

افضل رجل لتولي رئاسة الجمهورية كان ولم يزل الشيخ بشارة الخوري.

وصافحت اللواء وانسحب.

وتوجهت نحو غرفة النوم حيث قرينتي لا تزال تنتظرني مع اولادي وأخي فؤاد وبعض الاقرباء والاصدقاء فقبلتهم جميعا، وقلت لهم: اشكر الله انني سلمت الأمانة كاملة غير منقوصة، ولم تهرق نقطة دم، ولم يمس الدستور، ولم ينتقص من قدر الرئاسة.

وبعملي هذا جعلت الانقلاب ابيض، و «دسترته» وتمنيت للبنان العز والمجد، وكانت وصيتي ان يحافظ اللبنانيون على قدسية ميثاقهم الوطني الذي لا حياة لهم بدونه.

ونمت ما بقي من ذلك الليل ملء جفوني. «ج ٣: ٤٧٩)»

اما كتاب الاستقالة فهذا نصه:

حضرة رئيس المجلس النيابي الافخم.

لما كنت قد صممت على اعتزال منصب رئاسة الجمهورية، ارجو منكم التفضل باخذ العلم بذلك، شاكرا لمجلسكم الكريم وللشعب اللبناني النبيل ما لقيته اثناء مدة ولايتي من ولاء ومحبة. ولي ملء الامل ان يوفق مجلسكم بانتخاب خلف لي يحافظ على كيان هذا الوطن اللبناني، على

استقلاله وسيادته، وعلى الميثاق الوطني الذي هو دعامة هذا الاستقلال، لانه يؤمن الحب والوئام بين جميع الطوائف التي يتألف منها هذا الوطن العزيز.

وتفضلوا بقبول جزيل الاحترام

في ١٨ ايلول سنة ١٩٥٢
بشارة خليل الخوري

في وزارة الجنرال شهاب

قبل ان اختتم هذه الصفحة لا بد لي من العودة بضع ساعات الى الوراء.

ففي عشية اليوم الذي سبق استقالة الرئيس، عندما دعي الجنرال شهاب الى عاليه لمقابلة الشيخ بشارة، وعاد الى العاصمة للتشاور مع قادة الجيش، اتصل بي شقيقي توفيق، وكان يشغل منصب رئيس اركان الجيش، وقال لي ان الجنرال يدعوك لمقابلته.

ذهبت الى وزارة الدفاع واجتمعت بالجنرال شهاب فقال لي:

« استدعاني رئيس الجمهورية وابلغني انه سيستقيل الليلة. وطلب مني ان اشكل حكومة برئاستي. وقد فكرت فيك لتكون وزيرا معي في حكومة مصغرة جدا.»

ترددت في بادىء الامر. ثم وافقت بعد الحاح الجنرال.

فودعته وانصرفت.

وفي الصباح الباكر اتصل بي أخي توفيق ثانية وقال لي: «طلب الي الجنرال شهاب أن أخبرك أن الحديث الذي دار بينك وبينه ليلة أمس لم يقترن بنتيجة وهو عندما يراك يطلعك على السبب.»

بعد قليل أعلنت الحكومة الجديدة برئاسة الجنرال شهاب وعضوية ناظم عكاري وباسيل طراد.

وفي المساء اتصل بي الجنرال شهاب ودعاني الى مقابلته. فذهبت

«ذهبت الى الشيخ بشارة فسألني عن الوزراء الذين أفكر في اختيارهم للتعاون معي. فقلت: اني افكر في اثنين ناظم عكاري ويوسف سالم. فهب الرئيس من مكانه وقال لي: ابدا. ابدا. انا لا اقبل بيوسف سالم. واقترح علي اسم (....) فأجبته ان الذي تذكره نائب وأنا أريد أن اشكل وزارة من خارج المجلس. لكنه بقي مصرا على موقفه فيما يختص بك. فاضطررت أن أراعي شعوره في تلك الساعة الحرجة. وكان ما كان».

لم أستغرب الأمر. تلك كانت حلقة من حلقات المسلسل العجيب في صلتي بالشيخ بشارة.

لكنها كانت الحلقة الاخيرة!

انصرفت من مكتب الجنرال وذهبت من توي الى منزل الشيخ

بشارة، وكانت استقالته قد أعلنت. وأعربت له عن عاطفة التأثر التي أشعر بها نحوه في ذلك الظرف الدقيق. ولم أشر بالطبع الى تأليف الحكومة على الشكل الذي ألفت فيه.

ولم أنقطع عنه قط. بل بقيت أزوره من حين الى حين الى أن لبى دعوة ربه.

ولم أشر يوما، من قريب أو بعيد، الى «المسلسل». ولا جعلته يشعر يوما بأنني كنت على علم بكل شيء.

عهد مضى وخلفه آخر

انتهى حكم الشيخ بشارة الخوري وانهار على شكل مأساوي دراماتيكي بلا عنف، ولا سفك دماء. بلا تمرد ولا عصيان.

الرجل الذي كان في العام ١٩٤٣ ملء القلوب والعيون اصبح بعد تسع سنوات غمدا من دون سيف. مدفعا من دون ذخيرة. رئيسا ليس في يده من السلطة اكثر مما في يد القابض على حفنة من الرمل.

في لحظات كتب الرئيس استقالته واذاعها فدالت دولة رجل. وانتهى حكم سلطان!

وضعت حدا له تورة سميت «ثورة بيضاء». ونعم التسمية. لأن شيم اللبنانيين وتقاليدهم تأبى ان يسفك الدم الغالي من اجل السياسة، او للتخلص من سياسة انسان مهما بلغ هذا الانسان من علو شأن، وقدم للوطن من خدمات.

للتذكير والاعتبار

أما أسباب سقوط الشيخ الرئيس فكثيرة، والمسؤولون عنها اكثر. وقد تكون قبل كل شيء كامنة في الحاشية. وعلى رغم ما للشيخ من حسنات خطيرة في تحقيق الاستقلال فأن البطانة، والحاشية، والاقربين، والانصار، استغلوا مرافق الدولة بلا حياء، وحولوا البلاد الى بقرة حلوب يستدرون منها الخيرات ولا يشبعون.
وقد يكون من هذه الاسباب ما شعر به اللبنانيون من ميل الحاكم الى جعل الرئاسة ولاية يتولاها المرة بعد المرة، لا عهدا حدد الدستور له بداية ونهاية. ولو ان الرئيس انسحب في الموعد الدستوري، ولم يفرض التجديد لنفسه لنسي الناس اخطاء العهد الاستقلالي الاول. والناس في

وسميت تدابير الدولة المتخذة ضد الصحافيين مجزرة الصحافة، لان ثماني صحف عطلت عن الصدور دفعة واحدة، لمدة شهر.

ولما مثلت وزارة سامي الصلح امام المجلس لنيل الثقة قابلها النواب بهجوم كاسح لم يقتصر على نواب المعارضة بل اشترك فيه عدد من النواب الموالين.

ولم يدافع عن الحكومة سوى الوزير اميل لحود. ولكن دفاعه كان فاترا. ودلت الاكثرية الضئيلة التي نالتها الحكومة دلالة واضحة على قوة المعارضة وضعف العهد، وكل حكومة يأتي بها سيد العهد.

اجتماع دير القمر

وفي صيف ١٩٥٢، تنادى خصوم الرئيس الخوري الى اجتماع شعبي ضخم عقد في دير القمر في ١٧ من آب، بتدبير زعماء المعارضة كميل شمعون، وكمال جنبلاط، وريمون اده، وحميد فرنجيه، وعادل عسيران.

وألقيت في الاجتماع خطب عنيفة جداً ضد الرئيس الشيخ بشارة، ووجهت اليه والى عهده الفاظ جارحة بلغت حد الاهانة على لسان الخطباء، وبخاصة النواب المعارضين.

وصدم الشيخ بشارة حين عرف أن رئيس حكومته سامي الصلح قد سمح بعقد الاجتماع ولم يحرك ساكنا للرد على الذين هاجموا الرئيس وأطلقوا عليه الالقاب المزرية.

لبنان مفطورون على التسامح، سريعو النسيان.

وعلى الرغم من المزايا التي تحلى بها الشيخ بشارة من حكمة، وذكاء، وثقافة، وأطلاع على تاريخ الدول والحاكمين، فاته ان وهج الحكم جذاب، وكرسي الرئاسة شديد الاغراء. وان الذين ينتظرون دورهم للتربع عليه كثيرون. وهم ابعد الناس عن التحلي بمزية الصبر ست سنوات، فكيف اذا طلب الى الناس ان يصبروا اثنتي عشرة سنة؟

ونسي الرئيس وهو ذو الذاكرة القوية، أن الحكم يتلف صاحبه. فتشبث به. فأتلفه الحكم واهلكه.

نحن في بقعة التصارع الدولي

ونسي كذلك ان هذه الرقعة من العالم هي ميدان التصارع بين الدول بدأ منذ القديم، ولا يزال، وهيهات ان ينتهي!
ومن هذه الاسباب كذلك وقوع انقلابين خطيرين في المنطقة: انقلاب في سورية في أواخر سنة ١٩٥١ وأسفر عن استقالة هاشم الاتاسي من رئاسة الجمهورية، وتسلم اديب الشيشكلي زمام الحكم، ثم انهيار حكم الملكية في مصر في ٢٣ من تموز ١٩٥٣، وكان عرشها كالطود.

وفي الانقلابات عدوى واغراء. واذا عرفنا ان أديب الشيشكلي كان له في لبنان اصدقاء بين السياسيين المحترفين، ووراءه دولة معينة، أو دول، ساعدته على الاطاحة برئيس الجمهورية السورية ليتسلم الحكم بالقوة، أدركنا اي تأثير كان لانقلابه في تشجيع المعارضة بلبنان على مطالبتها برأس الشيخ بشارة الخوري. ونحمد الله على ان لبنان كان ولا يزال يفضل بياض التغييرات، ودستوريتها، على احمرار الانقلابات وعنفها.

وانفجر الخلاف بين رئيس الجمهورية ورئيس حكومته.
وراح رئيس الجمهورية يوعز الى الوزراء المقربين اليه بأن يستقيلوا حتى تجر استقالتهم رئيس الوزارة فيستقيل.

ولكن اللعبة لم تنطل على سامي الصلح. فكان كلما استقال وزير بادر الى وضع مرسوم بقبول استقالته وتعيين بديل له. وأرسل المرسوم الى قصر الرئاسة فلا يوقع عليه الرئيس. وظل سامي بك في مكانه. فلا الاستقالة تقبل. ولا البديل يعين.

وساد صلة رئيس الحكومة برئيس الجمهورية جو غريب، هو مزيج من الحذر وعدم الثقة. بل هو أقرب الى التآمر منه الى التعاون.

برنامج اصلاح واستقالة سامي الصلح

وخطر لرئيس الجمهورية ان يقترح على الحكومة «برنامج اصلاح» لتهدئة الرأي العام، وتخفيف نقمة المعارضة. واعد البرنامج بنفسه وحمل مجلس الوزراء على اقراره. وطلب من الحكومة ان تتقدم به الى مجلس النواب وتطلب لتنفيذه حق التشريع لمدة معينة وتطرح الثقة على اساسه.

واجتمع المجلس في ٩ من أيلول ١٩٥٢. وتلا الوزير اميل لحود بيان الحكومة وشرح مشاريع الاصلاح وطالب المجلس بمنح الحكومة حق التشريع لمدة محددة لتحقيق الاصلاح بمراسيم اشتراعية. وانهى خطابه بطلب الثقة بالحكومة. .

فوقف رئيس الوزراء وسحب من جيبه خطابا معدا من قبل وقال

مخاطبا النواب ان الخطاب الذي القاه اميل لحود هو بيان بمشاريع واعمال. واما انا سامي الصلح فاريد ان اتكلم عن سياسة الحكومة. لقد تجاوز رئيس الجمهورية صلاحياته و... و... ومن اجل ذلك لن اطرح الثقة لانني لا اريد الثقة منكم. وانا ذاهب لاني اعتبر نفسي مستقيلا.

وقبل ان ينهي سامي بك كلمته كان الوزراء قد انسحبوا الواحد تلو الاخر. وحدث هرج ومرج. وترك رئيس الحكومة مكانه وخرج بينما اخذ هنري فرعون يصيح به بصوت عال ويكيل له الكلمات النابية.

لم يذهب سامي الصلح الى قصر الرئاسة بل ذهب الى بيته حيث لحق به اقطاب المعارضة وجمهور كبير من انصاره.

وعلى الفور اصدر رئيس الجمهورية مرسوما «باعتبار سامي الصلح رئيس الوزراء مستقيلا» وقبول استقالة الوزراء.

وزارة ادارية برئاسة ناظم عكاري

على الاثر طلب الرئيس ناظم عكاري وكلفه ان يشكل وزارة برئاسته وعضوية موسى مبارك وباسيل طراد. فقبل السيد عكاري المهمة بعد ان استأذن الرئيس بان يزور سامي الصلح، ويقول له انه مكلف بتأليف وزارة «ادارية» لا سياسية تضع في رأس مهامها تهدئة الحالة، وتخفيف حدة التوتر الذي يسود البلاد. فرحب سامي الصلح به وبوزارته ودعا له بالتوفيق.

ومما يجدر ذكره ان ناظم عكاري كان، ولا يزال، من أطيب

العناصر اللبنانية التي شغلت في الدولة مراكز مرموقة، وابتعدت عن السياسة وما تجره من أحقاد وخلافات. وكانت وزارته تلك التي عاشت بضعة أيام وزارة تهدئة وانتقال.

وسادت الفوضى

سجلت المعارضة انتصارا جديدا بذهاب سامي الصلح على الشكل الذي ذهب فيه. ولاسيما بخطابه وهجومه العنيف على رئيس الجمهورية. وهو، رئيس الحكومة، المفروض فيه أن يصد الهجمات عن رئيس الدولة.

وأقفلت مدينة بيروت، وتعطلت الاعمال، وسادت الفوضى. وشعر الناس بأن زمام الحكم قد أفلت من يد الحاكم، على رغم أن تعيين وزارة التهدئة لقي الارتياح في اوساط عديدة.

وهال الرئيس أن تبقى الاسواق مقفلة، والاعمال التجارية معطلة فصمم على دعوة أحد الاقطاب السياسيين وتكليفه تأليف حكومة جديدة عله يضع حدا للاضراب. فطلب السيد صائب سلام وأبلغه انه فكر في تكليفه تشكيل وزارة جديدة. وكان ذلك في صباح اليوم التالي لتعيين حكومة ناظم عكاري، وسأله: هل تستطيع ان تفتح بيروت فأجابه صائب بالايجاب. فطلب منه الرئيس ان يجري مشاورات مع السياسيين ويعود اليه ليصدر مرسوما بتعيينه.

وغادر صائب سلام القصر الجمهوري وهو يأمل ان يستطيع فتح العاصمة ووضع حد للاضراب.

اقتراح عجيب

وقضى صائب يومين في الاجتماع بالسياسيين والتشاور معهم. وعاد الى قصر الرئاسة فكلفه رئيس الجمهورية رسميا تأليف الحكومة واطلق يده في اختيار الوزراء وحثه على الاسراع في العمل والجيء بوزارة سياسية قوية.

وشرع صائب في العمل على تشكيل وزارة تتميز عن الوزارات التي عرفها لبنان وألفها الناس، ففكر في الاتيان بوزيرين من خارج المجلس هما الفرد نقاش، أحد رؤساء الجمهورية اللبنانية في عهد الانتداب، وشارل مالك سفير لبنان في واشنطن يومذاك. وابرق الى شارل مالك يعرض عليه الاشتراك في الوزارة.

وفي هذه الاثناء كان عبد الله اليافي، ورشيد كرامي، وسعدي الملا، وحسين العويني، وهم المرشحون التقليديون لترؤس الوزارات في لبنان، يجتمعون وينضم اليهم رهط من وجهاء المسلمين، وممثلي الشباب، ويتعاهدون على ان لا يقبل احد منهم ان يؤلف حكومة ما دام بشارة الخوري رئيسا للجمهورية. فما كان من صائب الا ان انضم اليهم ووافق على ما تعاهدوا عليه. ووقعوا في ما بينهم على وثيقة خطية بهذا التعهد.

وفي اليوم التالي نزل صائب سلام الى سرايا الحكومة واجتمع بناظم عكاري رئيس الوزراء والوزير موسى مبارك وقال لهما ان الحالة لن تهدأ، والعاصمة لن تفتح إلا اذا استقال الشيخ بشارة وغادر البلاد. فلنعد له طائرة تنقله الى أي بلد يريد.

استكبر عكاري الأمر. وقال للرئيس المكلف: كيف ننفي من لبنان رجلا كالشيخ بشارة ادى الى وطنه الخدمات التي اداها فضلا عن أنه لبناني عريق، ورئيس الجمهورية، وابو الاستقلال؟

وفي الحال طويت صفحة هذا الاقتراح العجيب!

وتسارعت الاحداث. وكانت كل دقيقة تحمل نبأ مثيرا. والى القارئ فيلم الأحداث.

ـ اتصل صائب سلام بالجنرال فؤاد شهاب قائد الجيش تلفونيا وتبادلا الرأي في الحالة. وبعد قليل وصل الجنرال شهاب الى مكتب رئيس الوزارة، واقفلت الابواب عليهما طوال ساعة كاملة.

ـ انضم صائب سلام الى صفوف المعارضة واعد كتابا موجها الى رئيس الجمهورية يطلب فيه ان يعتزل ويغادر الرئاسة على الفور. ووضع الكتاب في جيبه بعد ان اطلع عليه زعماء المعارضة. وخبر هذا الكتاب لم يعد سرا على كثيرين.

ـ قدم تسعة نواب كتابا الى رئيس مجلس النواب يطلبون ابلاغ رئيس الجمهورية وجوب الاعتزال.

ـ حضر النواب الموالون الى قصر الرئاسة في عاليه وعددهم زهاء خمسين نائبا يؤلفون اكثرية المجلس، وقدموا الى الرئيس عريضة يعربون فيها عن تأييدهم له وثقتهم به.

تلفون من شارل مالك

احدى حلقات هذا الشريط السينمائي وهي عجيبة وغريبة، وصول صائب سلام الى قصر الرئاسة في عاليه والمواجهة المثيرة بينه وبين رئيس الجمهورية. قال الشيخ بشارة للسنيد سلام: انا اعلم انك تحمل في جيبك رسالة موجهة الي تطلب فيها ان استقيل. فابقها في جيبك لأني قد أقلتك من رئاسة الحكومة التي كلفتك تشكيلها. وبدلا من الرسالة التي

تحملها، عليك ان تكتب الكتاب التقليدي الذي يوجهه رؤساء الحكومات الى رئيس الدولة حين يغادرون الحكم.

وكانت نكتة تلك الدقائق المثيرة ان رن جرس التلفون في مكتب الرئيس في عاليه. وعلى طرف الخط شارل مالك يتكلم من واشنطن ويبلغ الرئيس انه قبل بالاشتراك في حكومة صائب سلام، ويشترط ان يعهد اليه بوزارة الخارجية...

بعد دقائق طلب الرئيس السيد حسين العويني وسأله هل يقبل بتأليف حكومة جديدة ما دامت اكثرية المجلس قد جددت ثقتها به، أي برئيس الجمهورية؟

قال الحاج حسين: ارجو ان نجتمع باللواء فؤاد شهاب لنقيم الموقف بالضبط.

فدعي الجنرال شهاب واجتمع بالرئيس بحضور السيد عويني. وسأل الرئيس قائد الجيش هل يريد أو هل يستطيع ان يفتح بيروت بالقوة اذا ظلت العاصمة مضربة، وحوانيتها مقفلة، وأسواقها مقفرة من الناس؟

فاستمهله الجنرال شهاب ريثما ينزل الى بيروت ويجتمع بأركان حربه للتشاور. ولما عاد الجنرال شهاب الى عاليه أبلغ الرئيس أنه، بالاتفاق مع قادة الجيش، يأبى أن يريق دما لبنانيا لفك الاضراب.

عند ذلك قرر الشيخ بشارة أن يستقيل وأبلغ قراره هذا الى الجنرال شهاب وطلب منه أن يعود اليه حوالي منتصف الليل ليسلمه مرسوم تعيينه رئيسا للحكومة التي ستشرف على انتخاب خلف له. فعاد الجنرال شهاب في الموعد المحدد ودخل على الشيخ بشارة فسلمه نسخة من الدستور وقال له إنه يأتمنه عليه، وإنه عينه رئيسا للحكومة وطلب اليه ان يشكل على الفور حكومة مصغرة، تقوم بأعباء الرئاسة موقتا وفق نصوص الدستور الى ان ينتخب رئيس جديد للجمهورية. وبذلك تحفظ الشرعية ولا يخلو الحكم دقيقة واحدة من رئيس شرعي. ويظل على رأس الدولة رئيس ماروني.

روى الشيخ بشارة في مذكراته «حقائق لبنانية» قصة هذه الساعات المؤثرة الحاسمة من تاريخ حياته، وتاريخ لبنان فقال:

«وبعد ان انسحب الحاضرون قربت اللواء فؤاد شهاب مني وسلمته الدستور اللبناني وقلت له: «احتفظ به وحافظ عليه...»

ثم دفعت اليه كتاب «مجموعة خطب» وقلت: قد تحتاج الى مراجعتها.

والتفت اللواء شهاب رئيس الوزارة الجديد الي وهو بالغ التأثر، ولم يبق في الغرفة سوى ميشال شيحا، وقال لي القائد: قد تعتقد فخامتك انني لم اقم بواجبي كاملا في مثل هذه الظروف، لكنني فضلت الصَراحة وانا شديد الأسف لهذه النتيجة. ان الناس اجمعين يعرفون، وانا اعرف، ان

افضل رجل لتولي رئاسة الجمهورية كان ولم يزل الشيخ بشارة الخوري.

وصافحت اللواء وانسحب.

وتوجهت نحو غرفة النوم حيث قرينتي لا تزال تنتظرني مع اولادي وأخي فؤاد وبعض الاقرباء والاصدقاء فقبلتهم جميعا، وقلت لهم: اشكر الله انني سلمت الأمانة كاملة غير منقوصة، ولم تهرق نقطة دم، ولم يمس الدستور، ولم ينتقص من قدر الرئاسة.

وبعملي هذا جعلت الانقلاب ابيض، و «دسترته» وتمنيت للبنان العز والمجد، وكانت وصيتي ان يحافظ اللبنانيون على قدسية ميثاقهم الوطني الذي لا حياة لهم بدونه.

ونمت ما بقي من ذلك الليل ملء جفوني. «ج ٣: ٤٧٩)»

اما كتاب الاستقالة فهذا نصه:

حضرة رئيس المجلس النيابي الافخم.

لما كنت قد صممت على اعتزال منصب رئاسة الجمهورية، ارجو منكم التفضل باخذ العلم بذلك، شاكرا لمجلسكم الكريم وللشعب اللبناني النبيل ما لقيته اثناء مدة ولايتي من ولاء ومحبة. ولي ملء الامل ان يوفق مجلسكم بانتخاب خلف لي يحافظ على كيان هذا الوطن اللبناني، على

استقلاله وسيادته، وعلى الميثاق الوطني الذي هو دعامة هذا الاستقلال، لانه يؤمن الحب والوئام بين جميع الطوائف التي يتألف منها هذا الوطن العزيز.

وتفضلوا بقبول جزيل الاحترام

في ١٨ ايلول سنة ١٩٥٢
بشارة خليل الخوري

في وزارة الجنرال شهاب

قبل ان اختتم هذه الصفحة لا بد لي من العودة بضع ساعات الى الوراء.

ففي عشية اليوم الذي سبق استقالة الرئيس، عندما دعي الجنرال شهاب الى عاليه لمقابلة الشيخ بشارة، وعاد الى العاصمة للتشاور مع قادة الجيش، اتصل بي شقيقي توفيق، وكان يشغل منصب رئيس اركان الجيش، وقال لي ان الجنرال يدعوك لمقابلته.

ذهبت الى وزارة الدفاع واجتمعت بالجنرال شهاب فقال لي:

« استدعاني رئيس الجمهورية وابلغني انه سيستقيل الليلة. وطلب مني ان اشكل حكومة برئاستي. وقد فكرت فيك لتكون وزيرا معي في حكومة مصغرة جدا.»

ترددت في بادىء الامر. ثم وافقت بعد الحاح الجنرال.

فودعته وانصرفت.

وفي الصباح الباكر اتصل بي أخي توفيق ثانية وقال لي: «طلب الي الجنرال شهاب أن أخبرك أن الحديث الذي دار بينك وبينه ليلة أمس لم يقترن بنتيجة وهو عندما يراك يطلعك على السبب.»

بعد قليل أعلنت الحكومة الجديدة برئاسة الجنرال شهاب وعضوية ناظم عكاري وباسيل طراد.

وفي المساء اتصل بي الجنرال شهاب ودعاني الى مقابلته. فذهبت

«ذهبت الى الشيخ بشارة فسألني عن الوزراء الذين أفكر في اختيارهم للتعاون معي. فقلت: اني افكر في اثنين ناظم عكاري ويوسف سالم. فهب الرئيس من مكانه وقال لي: ابدا. ابدا. انا لا اقبل بيوسف سالم. واقترح علي اسم (....) فأجبته ان الذي تذكره نائب وأنا أريد أن اشكل وزارة من خارج المجلس. لكنه بقي مصرا على موقفه فيما يختص بك. فاضطررت أن أراعي شعوره في تلك الساعة الحرجة. وكان ما كان».

لم أستغرب الأمر. تلك كانت حلقة من حلقات المسلسل العجيب في صلتي بالشيخ بشارة.

لكنها كانت الحلقة الاخيرة!

انصرفت من مكتب الجنرال وذهبت من توي الى منزل الشيخ

بشارة، وكانت استقالته قد أعلنت. وأعربت له عن عاطفة التأثر التي أشعر بها نحوه في ذلك الظرف الدقيق. ولم أشر بالطبع الى تأليف الحكومة على الشكل الذي ألفت فيه.

ولم أنقطع عنه قط. بل بقيت أزوره من حين الى حين الى أن لبى دعوة ربه.

ولم أشر يوما، من قريب أو بعيد، الى «المسلسل». ولا جعلته يشعر يوما بأنني كنت على علم بكل شيء.

عهد مضى وخلفه آخر

انتهى حكم الشيخ بشارة الخوري وانهار على شكل مأساوي دراماتيكي بلا عنف، ولا سفك دماء. بلا تمرد ولا عصيان.

الرجل الذي كان في العام ١٩٤٣ ملء القلوب والعيون اصبح بعد تسع سنوات غمدا من دون سيف. مدفعا من دون ذخيرة. رئيسا ليس في يده من السلطة اكثر مما في يد القابض على حفنة من الرمل.

في لحظات كتب الرئيس استقالته واذاعها فدالت دولة رجل. وانتهى حكم سلطان!

وضعت حدا له ثورة سميت «ثورة بيضاء». ونعم التسمية. لأن شيم اللبنانيين وتقاليدهم تأبى ان يسفك الدم الغالي من اجل السياسة، او للتخلص من سياسة انسان مهما بلغ هذا الانسان من علو شأن، وقدم للوطن من خدمات.

للتذكير والاعتبار

أما أسباب سقوط الشيخ الرئيس فكثيرة، والمسؤولون عنها اكثر. وقد تكون قبل كل شيء كامنة في الحاشية. وعلى رغم ما للشيخ من حسنات خطيرة في تحقيق الاستقلال فأن البطانة، والحاشية، والاقربين، والانصار، استغلوا مرافق الدولة بلا حياء، وحولوا البلاد الى بقرة حلوب يستدرون منها الخيرات ولا يشبعون.
وقد يكون من هذه الاسباب ما شعر به اللبنانيون من ميل الحاكم الى جعل الرئاسة ولاية يتولاها المرة بعد المرة، لا عهدا حدد الدستور له بداية ونهاية. ولو ان الرئيس انسحب في الموعد الدستوري، ولم يفرض التجديد لنفسه لنسي الناس اخطاء العهد الاستقلالي الاول. والناس في

لبنان مفطورون على التسامح، سريعو النسيان.

وعلى الرغم من المزايا التي تحلى بها الشيخ بشارة من حكمة، وذكاء، وثقافة، واطلاع على تاريخ الدول والحاكمين، فاته ان وهج الحكم جذاب، وكرسي الرئاسة شديد الاغراء. وان الذين ينتظرون دورهم للتربع عليه كثيرون. وهم ابعد الناس عن التحلي بمزية الصبر ست سنوات، فكيف اذا طلب الى الناس ان يصبروا اثنتي عشرة سنة؟

ونسي الرئيس وهو ذو الذاكرة القوية، أن الحكم يتلف صاحبه. فتشبث به. فأتلفه الحكم واهلكه.

نحن في بقعة التصارع الدولي

ونسي كذلك ان هذه الرقعة من العالم هي ميدان التصارع بين الدول بدأ منذ القديم، ولا يزال، وهيهات ان ينتهي!

ومن هذه الاسباب كذلك وقوع انقلابين خطيرين في المنطقة: انقلاب في سورية في أواخر سنة ١٩٥١ وأسفر عن استقالة هاشم الاتاسي من رئاسة الجمهورية، وتسلم اديب الشيشكلي زمام الحكم، ثم انهيار حكم الملكية في مصر في ٢٣ من تموز ١٩٥٣، وكان عرشها كالطود.

وفي الانقلابات عدوى واغراء. واذا عرفنا ان أديب الشيشكلي كان له في لبنان اصدقاء بين السياسيين المحترفين، ووراءه دولة معينة، أو دول، ساعدته على الاطاحة برئيس الجمهورية السورية ليتسلم الحكم بالقوة، أدركنا اي تأثير كان لانقلابه في تشجيع المعارضة بلبنان على مطالبتها برأس الشيخ بشارة الخوري. ونحمد الله على ان لبنان كان ولا يزال يفضل بياض التغييرات، ودستوريتها، على احمرار الانقلابات وعنفها.

« مش انتو . . . هودي الطليان »

وتحضرني هنا قصة المقابلة التي جرت بين الشيخ بشارة، بعد اعتزاله، ومارون عرب والنكتة التي اطلقها الرئيس المستقيل.

لاحظ المراقبون ان الشيخ الرئيس التزم الصمت التزاما مذهلا على اثر استقالته. ومضت أسابيع وبدأت ألسنة المقربين تهمس في مجالس الاصدقاء: ان الرئيس المستقيل يتهم الانكليز بأنهم هم الذين شجعوا المعارضة وأثاروا البلاد عليه، لأنه رفض مشروعهم المعروف باسم «الدفاع المشترك» عن الشرق، وهو المشروع الذي أعدوه مع حلفائهم الأميركيين تحسبا لوقوع حرب بينهم وبين الاتحاد السوفياتي. (وهو مقدمة حلف بغداد). وفي مدينة مثل بيروت، مستحيل كتمان اسرار المجالس. فعرف السفير البريطاني ما يقوله الشيخ بشارة، فأوفد اليه مستشاره الشرقي المرحوم مارون عرب، يعاتبه على اتهامه أصدقاءه الانكليز ويؤكد لفخامته ان السفارة وقفت على الحياد التام في الأزمة التي ادت الى استقالته!

وكان مارون عرب، خفيف الروح، قريبا الى القلوب، كثير الاصدقاء، بذل نشاطا مشكورا في معركة الاستقلال، وخدمها خدمات طبية تذكر، وصار صديق الرئيسين وجميع رجال العهد.

وصبر الشيخ على مارون، وصابر، ومارون يلقي دفاعه عن الانكليز، واذا به يسمع صوت الرئيس المستقيل مجيبا: «لا... لا يا مارون، مش انتو، مش انتو أبدا... هودي الطليان!...» والطليان يومها لا شأن لهم ولا نفوذ ـ فصارت نكتة يرددها الناس في طول البلاد وعرضها.

ما كادت استقالة الرئيس بشارة الخوري تضع حدا للازمة السياسية الحادة التي عصفت بلبنان في خريف العام ١٩٥٢ حتى بدأ صراع من نوع آخر. هو صراع على الخلافة بين الطامحين الى الرئاسة.

وبرز في الميدان مرشحان لكل منهما مكانة كبيرة، وقاعدة شعبية وماض سياسي، ورصيد وطني ضخم: كميل شمعون وحميد فرنجيه.

وأخذ الناس بهذه المباراة تجري بين قطبين كبيرين للمرة الاولى بعد زوال الانتداب الفرنسي واستقلال الدولة السياسي.

وظن الشعب اللبناني بسذاجته وطيبته ان الفوز سيكتب لمن يختاره نواب الشعب احرارا من كل ضغط وتأثير، الا تأثير مزايا احد المرشحين على الاخر.

ولكن واقع الحال كان غير ذلك. فابواب لبنان ما تزال مشرعة امام النفوذ الاجنبي. وتدخل الدول قريبها وبعيدها، لا يزال يفعل فعله.

في بادىء الامر كانت كفة حميد فرنجيه هي الراجحة. فقد انطلق في ترشيحه من مركز قوة. اذ كانت تدعمه اكثرية مجلس النواب، كنواب بيروت، والكتلة الدستورية المنتشرة في مناطق جبل لبنان والشمال والبقاع.

أما كميل شمعون فكان يعتمد في المرحلة الاولى على نواب كتلة احمد الاسعد في الجنوب، ونائبي الكتلة الوطنية بيار اده وعبدالله الحاج، ونائبي جبهة النضال كمال جنبلاط وانور الخطيب بالاضافة الى عدد من النواب المستقلين كغسان تويني، وديكران توسباط، واميل

بستاني.

كان الفرق في الاصوات لمصلحة حميد فرنجيه غير قليل.

لكن كميل شمعون سياسي داهية، خبير باساليب السياسة والمداورات الانتخابية. فشحذ اسلحته كلها للمعركة المحتدمة.

واول ما فعله ان استنجد باصدقائه الانكليز الذين وثق بهم اثناء توليه سفارة لبنان في لندن. ولم يخيب الانكليز ظنه فانجدوه. والصراع الانكليزي الفرنسي على النفوذ في لبنان وفي سوريا لا يزال محتدما، وان صار صراعا وراء الكواليس.

رحلة الصيد . . .

وتذكر شمعون انه قبل استقالة الشيخ بشارة بأسبوع قام برحلة «صيد» الى سورية واجتمع برئيس دولتها اديب الشيشكلي. وأدرك أنه وجد في الشيشكلي عونا له على فريق من اللبنانيين يتأثر بسياسة سورية. فأستعان به فأعانه الرئيس السوري.

واذا بكميل شمعون، بين ليلة وضحاها، يجتذب الى صفه جميع نواب بيروت وعددا لا يستهان به من نواب الشمال، بفضل الضغط السياسي من جانب سورية، وتدخل السفير البريطاني في بيروت.

وبدا ذلك واضحا للعيان. حتى أن أصدقاء حميد فرنجيه وزملاءه في جريدة «لوجور» الصادرة بالفرنسية في بيروت، امثال حبيب ابو شهلا، وشارل حلو، وهنري فرعون، وموسى دو فريج الذين كانوا دعامته الكبرى وقادة معركته، تخلوا عنه لا حبا بشمعون بل تحت الضغط السافر الذي مارسه عليهم السفير البريطاني عبر ميشال شيحا.

بلغ التنافس بين المرشحين قمته، وصرنا على خطوة من انتخاب الرئيس، فاعلن سامي الصلح لاصدقائه انه مع كميل شمعون. وما كان هذا ليرضي آل الصلح فانزعجوا ورأوا فيه انتقاصا من الصداقة الاخوية الحميمة التي تربط بني الصلح بحميد فرنجيه.

اخبرني السيد محمد شقير انه ذهب موفدا من اخوانه واصدقائه الصلحيين الى سامي بك ليقنعه بأن لا يقف هذا الموقف غير الموفق، وان حرمة الصداقة (والمصلحة) تدعوه لتأييد حميد والوقوف الى جانبه وفاء منهم جميعا بالصديق الطيب المشهور بأخلاصه لاصدقائه، فأجابه سامي بك:

لا تحك معي، روح احكي مع الشيشكلي وشبمان اندورز (الوزير البريطاني المفوض).

وقيل يومها ان الرئيس السوري اديب الشيشكلي لم يركب مركب شمعون الا بطلب من الانكليز.

لماذا وقفت الى جانب حميد فرنجيه

أما انا، صديق حميد فرنجيه، فكنت أعمل جهدي في سبيل نجاحه. كان يهمني أن يصل الى الرئاسة لا عن أنانية بل عن عقيدة راسخة في نفسي بأن رئاسة تقبض على زمامها يدا حميد فرنجيه، هي رئاسة مثلى من جميع الوجوه. وساءني ان يتدخل الاجانب في انتخاب رئيس الدولة اللبنانية على هذا الشكل السافر. فضاعف ذلك عزيمتي واصراري على دعم حميد وتأييده.

كنت اعتقد ان النفوذ السوري والنفوذ البريطاني اللذين يتأثر بهما محترفو السياسة سيتحطمان في النهاية على صخرة النواب وصمودهم واستقلالهم ووطنيتهم.

وكنت أؤمن بأن أي مرشح لرئاسة الجمهورية اللبنانية يتورع عن اللجوء الى الاجنبي للوصول الى كرسي الرئاسة.

ولكن خاب ظني. وادركت ان السياسة لا دين لها. وأن نبيها لا يزال ماكيافلي مطلق شعار «الغاية تبرر الواسطة».

فكرت في الموقف كثيرا. وتبادلت الآراء وأصدقائي. وقلبنا الأمور على شتى وجوهها فتبين لنا انه اذا بقيت الحالة على ما هي، فسينتخب الرئيس الجديد بضغط الاجنبي. وربما كان ذلك بداية مرحلة غامضة محفوفة بالمخاطر. فبادرت الى الاتصال بصديقي حميد فرنجيه وبسطت له الموقف. وأعربت له عن الألم الذي يحز في نفسي. وبعد ان قمنا معا بعملية احصاء المؤيدين له، والمؤيدين للاستاذ شمعون، تبين لنا ان انصار شمعون يزيدون اثنين او ثلاثة على مؤيديه.

اجتمع المرشحان في منزلي

عند ذلك توجهت الى حميد بهذا السؤال:
— هل ترضى انت، حميد فرنجيه، بأن ينتخب رئيس الجمهورية اللبنانية في هذا الجو من الضغط؟
قال: لا ... وما ترانا نفعل؟

قلت: ارى ان تجتمع بكميل شمعون وتدرسا الموقف معا ويحصي كل منكما عدد مؤيديه من النواب. ومن كان عدد مؤيديه اقل ينسحب

للاخر، وينتخب الرئيس حينئذ بالاجماع. وبذلك نزيل عنا وصمة تدخل الاجنبي. وندحض قول القائلين بان الاجنبي هو الذي فرض رئيس الدولة على اللبنانيين.

لم يتردد حميد. بل وافق على الفور. فذهبت في الحال الى كميل شمعون وعرضت عليه الاقتراح ثم دعوته الى الاجتماع بحميد في منزلي.

وبعد ساعات قليلة كان المرشحان المتنافسان وجها لوجه في خلوة لم يحضرها سواي ويدرسان الموقف من جميع وجوهه.

وكان قد تجمع في منزلي عدد كبير من انصار كلا المرشحين. ومن الصحفيين ورجال السياسة.

حميد فرنجيه النبيل الشجاع

وفجأة وقف حميد فرنجيه وقال لكميل شمعون:

ـ مبروك.

ثم صافحه. وانفتح الباب على مصراعيه. فضجت الدار بالتصفيق والهتاف.

تم الاجتماع بين فرنجيه وشمعون وديا، على الرغم من ان نتائجه تركت مرارة في بعض النفوس. وبديهي انه اسعد نفوسا اخرى.

وبعد اربع وعشرين ساعة، في الثاني والعشرين من ايلول ١٩٥٢، انتخب مجلس النواب كميل شمعون رئيسا للجمهورية باجماع الاصوات.

انقلاب في مصر

في ذلك العام تم في مصر انقلاب ٢٣ تموز على ايدي «الضباط الاحرار» وسقط الملك فاروق عن عرشه وطرد من بلاده. وصارت مصر ـ للمرة الاولى في تاريخها الطويل منذ الفراعنة ـ جمهورية يرئسها اللواء محمد نجيب ثم لا يلبث ان يخلفه رجل الثورة الحقيقي «البكباشي» جمال عبد الناصر.

في سبيل الاقتصاد ثانية

ملت عن السياسة في بدء عهد الرئيس شمعون وانصرفت الى الشؤون الاقتصادية وضاعفت نشاطي في الشركات الموضوعة تحت رقابتي، والتي انا مسؤول عنها في الدرجة الاولى. وهي مصلحة مياه بيروت. وشركة الضمان. وشركة الكوكاكولا.

وبعد دراسة عميقة تبين لي ان هذه الشركات تعوزها مؤسسة مالية تقوم بجانبها وتدعمها. ففكرت في تأسيس مصرف.

البنك الاهلي

اتصلت ببعض الاصدقاء. دزيره كتانه وجان فتال وانطوان صحناوي وميشال ضومط وجورج كرم ونجيب صالحه واتفقنا على تأسيس بنك سميناه «البنك الاهلي».

ومن اجل ذلك سافرت الى باريس واتصلت ببنك باريس والاراضي المنخفضة، كما اتصلت ببنك اوتومان وعرضت عليهما ان يدخلا شريكين في البنك الاهلي، فوافقا.

وانتخبت رئيسا لمجلس ادارة البنك باجماع اصوات المؤسسين.

ابتدأنا العمل في جو من الثقة والارتياح. وكنت في ذلك الحين رئيسا لجمعية تجار بيروت. ورأيت من الهيئات التجارية والصناعية تجاوبا تاما وتشجيعا كبيرا.

وكان النجاح حليفنا، فاسسنا فروعا للبنك في دمشق وحلب كما

امتد نشاطنا خارج لبنان، ولم تمض سنة حتى اشتركنا مع بعض رجال المال الايرانيين في تأسيس بنك طهران بنسبة عشرين بالماية من رأسماله. وهذا البنك يعد اليوم من أكبر المصارف في العاصمة الايرانية.

وزادني حسن سير الاعمال المصرفية في البنك الاهلي ثقة بالوضع المالي في لبنان. وامتد نشاطي الى الحقل الفندقي، اذ اني، في احدى زياراتي الى باريس اتصلت بالمجموعة المصرفية التي تملك فندق سان جورج وعرضت عليها شراء ٢٥ بالماية من رأسمال الفندق المذكور، أي خمسة آلاف سهم من أصل عشرين ألفا توزعت بيني وبين الصديقين حبيب أبي شهلا ونجيب صالحة. وعينا نحن الثلاثة اعضاء في مجلس ادارة الفندق.

حققت كل ذلك وانا لا ازال امارس المديرية العامة لمصلحة مياه بيروت. وكنت اوزع جهودي بين كل هذه المؤسسات التي أسند الي امر ادارتها. اوصل الليل بالنهار للنهوض بتبعاتي على أكمل وجه.

استدانة ضرورية ملحة لتأمين المياه

صارت بيروت تنمو ويزداد عدد ابنيتها وسكانها بسرعة فائقة، مما فرض علي التفاتا خاصا لزيادة انشاآت مصلحة المياه بنسبة اتساعها السريع.

وهذا النمو يفترض الحصول على المال اللازم لكل هذه الاعمال. فطلبنا الى الحكومة أن تساعدنا بأقراضنا سلفة تقدر بأربعة ملايين ليرة قبل أن يسبقنا الوقت وتحتاج بيروت الى الماءفلا تجده. ونحن مصلحة حكومية نعمل باسم الدولة لتأمين حاجات العاصمة من الماء.

غير ان الحكومة لم تتجاوب معنا على الرغم من العرائض الخمس التي قدمتها تباعا حتى يئست من تجاوب الحكومة. فدعوت مجلس الادارة، وكان يرئسه المهندس المرحوم ابراهيم عبد العال الى الاجتماع، وعرضت عليه الامر وقلت أنه لم يعد في امكاني ان ابقى على رأس ادارة المصلحة اذا لم يتضامن مجلس الادارة معي لتأمين المال اللازم.

واجاب اعضاء مجلس الادارة ان لا سلطة لهم على الدولة. غير انهم مستعدون لبذل كل ما تطلبه المصلحة من مساعدة.

فاقترحت أن نلجأ الى الاستدانة. وأكدت لهم استعدادي لاقناع بعض المصارف بادانتنا المبلغ المطلوب بفائدة لا تتعدى أربعة في المئة.

وهالهم الأمر واستكبروه: ماذا، أيقدمون هم الموظفون على الاستدانة من المصارف والحكومة غير متحمسة لهذا العمل؟

وسألوني: وهل يسمح لنا القانون بالاستدانة؟

أجبت: قد لا يسمح القانون. لكنني مستعد، بعد تقاعس الحكومة أن أتحمل تبعة هذا العمل لأنني أرى من واجبي وواجبكم تجاه بيروت أن لا نتركها تعطش وتفقد الماء حتى ولو تجاوزنا القوانين.

واقتنع مجلس الادارة بضرورة الاستدانة بسرعة. فوافق بالاجماع واستدنت من البنك السوري الذي كنت عضوا في مجلس ادارته مليوني ليرة بفائدة ٢ بالمئة. كما استدنت مليوني ليرة من البنك الاهلي بفائدة ٦ في المئة. فصار متوسط الفائدة ٤ في المئة. وشرعنا في اقامة الانشاءات الجديدة.

مناقشة مع وزير المال

اخذت الاعمال تسير سيرا سريعا عندما دعاني وزير المال بيار اده الى مقابلته. وسألني: هل صحيح انكم استدنتم اموالا لمصلحة مياه بيروت من دون موافقة الحكومة؟

أجبت: صحيح.

قال مستغربا: ولكن هذا التصرف مخالف للقانون.

قلت: اعتقد انه عندما تكون الضرورة ملحة والامر متعلقا بالمصلحة العامة يجوز حصول تجاوزات لا غنى عنها. وانا اعتقد ان هنالك قوانين مكتوبة وقوانين غير مكتوبة.

وأضفت: ان مهمتي هي قبل كل شيء تأمين المياه لمدينة بيروت. فهل أستطيع أن أحقق ذلك من غير مال؟ اني اطرح عليك هذا السؤال بوصفك وزيرا مسؤولا؟

عندها قال بلهجة جدية: انا وزير المال وبهذه الصفة اجيب: ان القانون لا يسمح لك بذلك.

قلت: هناك امران تستطيع ان تسألني عنهما وتحاسبني عليهما: كيف صرف المال الذي استدناه؟ وما هي الفائدة التي دفعناها؟ ان الفائدة هي ٤ في المئة. وهي ادنى نسبة في التعامل الرائج.

أما كيف صرفنا المال، فارسل مفتشا الى المصلحة ونحن نضع تحت تصرفه جميع المستندات والدفاتر والوثائق.

لكن الوزير عاد الى نغمته الاولى: هذا التصرف ضد القانون. وانت تعرف ذلك.

سابقة انكليزية

قلت: دعني اقص عليك، يا معالي الوزير، القصة الآتية:

قبل سنوات قررت الحكومة البريطانية خفض قيمة الجنيه الاسترليني بالنسبة الى الذهب.

اجتمع رئيس الحكومة ووزير المال ودرسا الموضوع. فتبين لهما ان القانون يفرض عليهما أن يعودا الى مجلس العموم قبل الاقدام على هذه الخطوة. ولكنهما أدركا أن عرض هذا الأمر الخطير على مجلس العموم سيؤدي الى انتشار الخبر ويدفع الناس الى مغامرات مالية ومضاربات بالعملة قد تسبب للخزينة البريطانية خسارة تقدر بمئات الملايين. والجنيه الاسترليني في تلك الأيام سيد عملات العالم.

على ضوء ذلك اتفقا على أن يعلنا قرار الخفض على مسؤوليتهما قبل عرضه على مجلس العموم، على أن يتم الاعلان يوم الجمعة مساء بعد أن تقفل البورصة مكاتبها. والبورصة لا تعمل يومي السبت والاحد.

ويوم الاثنين وكان قد تم كل شيء، واصبح سعر الاسترليني الجديد أمرا واقعا، مثل رئيس الحكومة ووزير المال أمام مجلس العموم. وكان المجلس بأكثريته ساخطا على هذا التدبير.

فوقف وزير المال وشرح الاسباب التي دعت الحكومة الى خفض قيمة الاسترليني ١٥ في المئة، والاسباب التي حملته على اعلان قرار الخفض قبل مراجعة مجلس العموم. ثم خلص الى القول: «انني اعرف انني أخطأت من الوجهة القانونية وانني مذنب في نظر القانون. لذلك فانا مستعد أن أتحمل الجزاء أو العقوبة التي تفرضونها علي. وهذه هي استقالتي أعلنها الآن.»

وعلى الأثر طلب رئيس المعارضة الكلام فقال: «انني أعتبر أن وزير المال ارتكب خطأ قانونيا، لذلك أطلب أن يحكم عليه بغرامة قدرها شلن واحد. وبأسم المعارضة أطلب منكم أن ترفضوا استقالته.»

وبعد أن رويت للوزير بيار اده هذه القصة قلت: هذا ما حدث في بلد عريق في التقاليد والقوانين، عندما كانت مصلحة البلاد معرضة للخطر. وانا اقول الآن ما قاله وزير المال البريطاني: اني أعرف اني اخطأت قانونا، ولكني انقذت عاصمة لبنان وسكانها من العطش، ومن نازلة مخيفة تضربنا ماديا ومعنويا. فاسمح لي بأن أقدم استقالتي.

فضحك بيار اده وقال: أرجو أن تنسى ما قلته لك فقد أقنعتني.

ويسعدني في هذه المناسبة ان اثني على جهود أعضاء مجلس ادارة المصلحة الذين تعاونوا معي، وبخاصة رئيس المجلس المرحوم ابراهيم عبد العال الذي كان من خيرة الاختصاصيين الموهوبين والوطنيين الذين يعرفون كيف يوجهون جهودهم نحو الخير. لقد كان ابراهيم عبد العال املا كبيرا للبنان لكن القدر لم يمهله ليحقق هذا الأمل فانطفأ وهو في عز شبابه ونشاطه، رحمات الله عليه!

ذكرت هذا الحادث لأبين كيف ان القوانين وضعت للعمل بها في الحالات الطبيعية. ولكن قد يكون هنالك قوانين غير مكتوبة يمكن اللجوء اليها في الحالات الطارئة.

عهد كميل شمعون

كل عهد من عهود الرؤساء الذين تعاقبوا على سدة الرئاسة في لبنان المستقبل يكتب عنه كتاب، بل اكثر من كتاب. انما انا اسجل احداثا ووقائع اشتركت فيها من قريب او بعيد او كنت شاهدا عليها، او اثرت في. واكتب عن أناس عرفتهم وعايشتهم وكان لهم على حياتي، وحياة وطني تأثير.

انا اذن شاهد. عاش ورأى وسمع وعرف طوال خمسين عاما.

واني حريص كل الحرص على أن اكون شاهد حقيقة، وهذا ما تفرضه الاخلاق قبل أن تفرضه الشرائع. وهذا ما حاولت أن التزم به في هذا الكتاب.

أعرف أن الحقيقة تجرح احيانا.

ولا يحسبن القارىء انني لا أتألم عندما أرى نفسي مكرها على جعل القلم في يدي كالمبضع في يد الجراح، يغرزه ويديره في جسد المريض ليشفيه ويستأصل علة الداء.

واكثر ما يؤلمني أن يعمل مبضع الحقيقة في ذكرى صديق عزيز علي او رجل كبير. اني أفضل الحقيقة على كل ما عداها، مهما بلغت محبتي للصديق الكريم، أو بلغ تقديري للانسان الكبير.

بدأ عهد الرئيس كميل شمعون بمفاجأة اذهلت أهل السياسة وجعلتهم يحسبون لعهده ألف حساب.

فهم يعرفون أن كميل شمعون رجل ذكي، شجاع، طموح يتقن فن المداورات وألاعيب السياسة اتقانا بلغ حد الاعجاز. وانه مقدام لا يردعه

رادع عن تحقيق أهدافه أية كانت وسيلته الى ذلك.

وفجأة تكشف العهد، وسيد العهد، عن صفات جديدة، هي مزيج عجيب من المزايا والعيوب.

لقد تنكر الرئيس، وهو يدشن عهده، لجميع الاصدقاء، والاقطاب، والسياسيين الذين مكنوه من الوصول الى سدة الرئاسة. تنكر لحميد فرنجية، وأحمد الاسعد، وحبيب أبو شهلا، وصائب سلام، وعبد الله اليافي، وغيرهم كثيرين وجاء بوزارة موظفين حياديين يرئسها الامير خالد شهاب. ومعه موسى مبارك. وجورج حكيم. وسليم حيدر.

وأول عمل قامت به تعديلها قانون الانتخاب، وتخفيض عدد النواب من ٧٧ الى ٤٤.

وسجلت لهذا القانون بادرة تقدمية مشكورة هي اعطاء المرأة اللبنانية حق الانتخاب أسوة بالرجل.

استقالة موسى مبارك

في مطلع العام ١٩٥٣ عقد اجتماع في شتورة بين وزير الاقتصاد اللبناني الدكتور جورج حكيم ووزير الاقتصاد السوري، اتفق فيه الوزيران على مشروع وحدة اقتصادية بين سورية ولبنان على أن يعرض المشروع على مجلس ألنواب اللبناني لمناقشته وابداء رأيه فيه قبل اقراره ووضعه موضع التنفيذ.

وكان الرئيس كميل شمعون على أهبة السفر الى الرياض بدعوة

من الملك سعود. وعرف أن موسى مبارك وزير الخارجية سيرافقه في هذه الزيارة. وفي آخر ساعة علم الوزير مبارك بأمر مشروع الوحدة الاقتصادية بين سورية ولبنان، فما كان منه الا أن أعلن احتجاجه الشديد عليه وشفع الاعلان بتقديم استقالته من الوزارة.

وحاول الرئيس شمعون اقناع موسى بالعودة عن الاستقالة بارجائها الى ما بعد زيارة السعودية. ولكن وزير الخارجية ظل متشبثا برايه فقبل الرئيس استقالته.

هدف شمعون من زيارته للمملكة العربية السعودية الى تحقيق غايتين. الاولى توطيد صلات لبنان بالمملكة. والثانية تلطيف الجو بين السعودية والعراق. فقد كان الخلاف مستحكما بين الاسرتين السعودية والهاشمية.

وبدأ عهد شمعون ببحبوحة وازدهار. وانفتح لبنان على الخارج بالزيارات التي قام بها الرئيس الى بعض جمهوريات اميركا الجنوبية حيث تفقد المغتربين.

اكمل الرئيس شمعون عهد الانماء الذي كان اطل على لبنان في المرحلة الاولى من الاستقلال، اذ تسلمنا جميع مصالح الدولة من سلطات الانتداب وتملكنا مقدراتنا، فدخل اقتصادنا ميدان العمل النشيط العاقل بحماية الاستقلال.

ومما يذكر للرئيس شمعون في هذا الميدان انه في عهده انشىء القصر الجمهوري بعيدا عن ضوضاء المدينة في حرج بعبدا، وانشئت المدينة الرياضية في محلة الاوزاعي، ومحطة توليد الكهرباء في زوق مصبح، والحوض الثالث في مرفأ بيروت، وأكمل المطار الدولي، وتملكت

الدولة امتياز شركة الجر والتنوير لتصير مصلحة حكومية. تضاف الى هذا كله انشاءات كثيرة اخرى وهي جميعها مشاريع ضخمة استجلبت أموالا من الخارج وأشغلت اليد العاملة مما أنعش الشعب وجعل الاقتصاد اللبناني يزدهر.

حلف بغداد

زار شمعون تركيا وايران والعراق وأجرى في عواصمها مباحثات مع المسؤولين تركز أكثرها على «حلف بغداد».

وحلف بغداد الذي عقد بين بريطانيا وايران وتركيا والعراق، وانضمت اليه الولايات المتحدة فيما بعد «دولة رقيبة» هو معاهدة دولية أوحت بها الجبهة الانكلو ـ اميركية. غايتها وقف التغلغل الشيوعي في الشرق الاوسط، ومحاربة نفوذ الاتحاد السوفياتي.

وتحمس رجلان اثنان للحلف تحمسا شديدا في الدول الاسلامية الثلاث ايران وتركيا والعراق، هما عدنان مندريس رئيس وزراء تركيا ونوري السعيد رئيس وزراء العراق.

وكان جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة الاميركية راعي الحلف وسنده مع زميله البريطاني.

وتصدى جمال عبد الناصر للحلف فشن عليه حملة كاسحة عبر أجهزة دعاية قوية لم يعرف لها الشرق العربي مثيلا من قبل.

كان صوت أحمد بسعيد «صوت العرب» وصحف القاهرة، وخطب

الرئيس عبد الناصر مطارق تهوي كل يوم بل كل ساعة على رؤوس أصحابه «وعلى من وراءهم من دول الاستعمار»، وتتهمهم بالعمالة، وتكيل لهم الشتائم وتدعو الشعب الى الثورة عليهم والتخلص منهم.

عبد الناصر واجهزته المخيفة

وشهد الشرق العربي ظاهرة جديدة لا عهد له بها من قبل. تلك كانت أجهزة الدعاية الضخمة التي توسل بها عبد الناصر الى تهديم خصومه وتحريض الشعوب عليهم.

فقد رأى عبد الناصر، منذ الدقيقة الاولى في الحلف عملا عدائيا موجها ضده، ومؤامرة عليه وعلى نظامه واشتراكيته ومناداته بالحياد الايجابي، ووجوب التعاون مع جميع الدول على السواء، سواء في ذلك دول الكتلة الشرقية، أو أية دولة من دول الغرب تعامله الند للند، لا السيد للعبد.

ووقع كميل شمعون تحت ضغط شديد لضم لبنان الى حلف بغداد، والتوقيع عليه، لكنه تهيب الموقف. فقد عبأ جمال عبد الناصر الشعوب العربية بشحنات من الكراهية والبغضاء والثورة جعلت كل حاكم عربي يخاف على نفسه، ويراجع ذاته مرارا قبل الاقدام على عمل خطير كهذا.

وانقسم العرب، مرة أخرى، عربين، وهم دائما مستعدون للانقسام، غير مهيئين للاتحاد ورص الصفوف حتى في أحرج الأوقات.

وتجاوبت مع مصر أكثر الدول العربية. ولم ينضم الى حلف بغداد في النهاية أحد. فأما الدول التي كانت راغبة في الانضمام اليه، فقد

ترددت ثم أحجمت نهائيا، خوفا من أن تدفع نفسها، وتدفعها أصوات عبد الناصر، بدمغة العمالة للاستعمار.

وظل الحلف قاصرا على العراق، من الدول العربية.

ميشال شيحا

في ٢٩ من كانون الاول ١٩٥٤ توفي ميشال شيحا بسكتة قلبية وهز نعيه لبنان على اختلاف تياراته. والصحف كلها، حتى التي كانت تخالف مبادئه، أجمعت على أن الخسارة به جلى. وخصوصا انه كان من أصدق الذين كتبوا بالفرنسية في التحذير من المطامح الصهيونية ومراميها التوسعية.

بدأ لمعان اسم ميشال شيحا منذ ان اختير مقررا للجنة وضع الدستور اللبناني سنة ١٩٢٦، ثم جرته السياسة الى خوض معاركها فكانت خطته رشيدة عاقلة. وأصدر جريدة «ليجور» بالفرنسية لاسماع صوت المعارضة الدستورية.

وعمل في حقول الاقتصاد، وهو يرئس بنك فرعون وشيحا، أعمالا بناءة. وكانت مقالاته السياسية والاقتصادية والأدبية محترمة الرأي. وعلى الرغم من القربى التي جمعته بالشيخ بشارة الخوري، فقد كان ينتقد بجراة وصراحة أخطاء حكم الاستقلال. ولما عمل صهره لتجديد رئاسته عارضه معارضة شديدة ولم ينجح في مسعاه فقال كلمة Tant pis أي «يسطفل» ورددتها جميع الاوساط.

وقد أثبت ميشال شيحا في جميع أعماله الاقتصادية والسياسية

انه مفكر كبير واسع الثقافة، بعيد النظر مصيب الرأي، مصلح بناء في حكمة وتؤدة.

بعد وفاته أنشأ أصدقاؤه «مؤسسة ميشال شيحا» لاحياء ذكراه ونشر آرائه ومبادئه السديدة، رحمه الله.

جمال عبد الناصر

كانت سنة ١٩٥٥ اذن سنة «حلف بغداد».

وكانت، كذلك، سنة اقدام جمال عبد الناصر على خطوة جديدة مثيرة أحدثت أثرا بعيدا لا في وضع منطقة الشرق الاوسط وحدها، بل في الموقف الدولي في العالم كله.

ففي صيف ١٩٥٥ عقد عبد الناصر صفقة الاسلحة الشهيرة مع تشيكوسلوفاكيا، بعلم الاتحاد السوفياتي ومباركته. ووضع العالم العربي، والدول الغربية أمام الأمر الواقع، من دون أن يستشير احدا.

ويروي خليل تقي الدين، سفير لبنان في القاهرة يومذاك، ان الرئيس جمال عبد الناصر دعاه ليخبره بصفقة الاسلحة ويكلفه الذهاب الى بيروت وابلاغ أمرها للرئيس شمعون والطلب اليه ان يؤيد خطوته.

قال الرئيس عبد الناصر للسفير اللبناني:

«ما دامت اميركا وبريطانيا وفرنسا تمنع عني السلاح الذي استطيع أن أزود به جيشي وأحارب اسرائيل، ولا تبيعني قطعة، فقد اشتريت من تشيكوسلوفاكيا سلاحا وعتادا كثيرا. ووعدتني روسيا بأن تمدني بما اشاء من الاسلحة بأسعار معقولة. واتفقنا.»

ثم أضاف:

«واريدك ان تذهب الآن الى بيروت وتبلغ ذلك الى الرئيس كميل شمعون وتطلب منه بلساني ان يؤيد خطوتي هذه ثم تذهب الى اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش اللبناني وتدعوه باسمي لزيارة القاهرة حتى يرى بعينه الاسلحة والعتاد الذي اشتريته ويختار منه ما يشاء لتسليح جيشه. ان عندي من الاسلحة الآن وسيكون عندي قريبا جدا ما يكفي لتسليح جميع الجيوش العربية. ولن اتقاضى ثمنها بل أجعلها «هبة.»

شمعون يؤيد وشهاب يعتذر

ونفذ السفير اللبناني المهمة وطار الى بيروت في اليوم نفسه وابلغ الرئيس شمعون ما قاله عبد الناصر، فلم يتردد الرئيس اللبناني من تأييد العمل الذي اقدم عليه الرئيس المصري. اما الجنرال فؤاد شهاب فأجاب بأنه يعتذر عن تلبية الدعوة في الوقت الحاضر.

دوي هائل في العالم

أحدثت صفقة الاسلحة دويا هائلا في انحاء العالم. وكانت فاتحة لحدثين خطيرين يقعان للمرة الاولى في التاريخ.

الحدث الاول هو أن شحنات الاسلحة التشيكية والروسية الى مصر تبعها وصول دفعات من الخبراء الروس الى مصر ظل عددهم يتزايد سنة بعد سنة حتى بلغ الالاف.

والثاني ان الاتحاد السوفياتي استطاع أن يحقق الحلم الذي راود مخيلات القياصرة طوال ثلاثة قرون وهو كسر طوق الجليد من حول روسيا والنفاذ الى المياه الدافئة.

لقد ساعد جمال عبد الناصر اسياد الكرملين الحمر، على تحقيق الحلم. وصارت موانىء مصر قواعد تلجأ اليها قطع الاسطول الروسي عندما تشاء. وصار هذا الاسطول يخطر في البحر الأبيض المتوسط ويواجه الاسطول السادس الاميركي وأساطيل الدول الغربية.

والدول الكبرى تنقض على الفرص انقضاضا. وقد اتاح

عبد الناصر الفرصة للاتحاد السوفياتي فلم يكتف بالتغلغل في مصر، بل وسع رقعة نفوذه حتى شملت عددا من الاقطار العربية فصار له فيها انصار كثيرون. ثم قامت أنظمة في بعضها تعمل في فلك موسكو، وتتأثر بها. وبعضها يسير على السياسة التي يرسمها لها سادة الكرملين.

التأميم في مصر

كانت سنة ١٩٥٦ حبلى بالاحداث الجسام. ففيها شدد جمال عبد الناصر قبضته على مصر فأمم الشركات والمصانع باسم الاشتراكية، وصادر الثروات والاراضي والعقارات الفخمة.

وكان الحدث الأهم تأميم قناة السويس، وأكثرية أسهمها في أيدي بريطانيا وفرنسا فأصبحت القناة بين ليلة وضحاها مصرية تديرها أيد مصرية وتعود ايراداتها الضخمة الى خزانة مصر.

ولا شك أن تأميم القناة يعد عملا جريئا أثار في البلدان العربية حماسة منقطعة النظير، ورفع جمال عبد الناصر في نظر الشعوب الى الذروة، ولكنه انطوى على أخطار كبيرة.

فقد تحركت بريطانيا وفرنسا بعد أن حاولتا عبثا مفاوضة عبد الناصر. واتفقتا مع عدو العرب اسرائيل على شن الحرب على مصر.

الهجوم المثلث على مصر

وفي خريف العام ١٩٥٦ قامت الدول الثلاث بمهاجمة مصر من

الجو فدمرت اسطولها الجوي واحتلت قواتها المعتدية المنقولة جوا من قبرص مدينة بور سعيد بعد مقاومة ضارية ابداها الشعب ببطولة عظيمة.

لكن تلك الحرب التي لم تدم الا بضعة أيام انتهت بفشل سياسي ذريع منيت به الدول المعتدية الثلاث. فقد ارغمتها حكومتا واشنطن وموسكو والدول الأخرى على قبول وقف اطلاق النار ثم الانسحاب من بور سعيد ومن كل شبر احتلته في الاراضي المصرية.

وهذه الهزيمة المنكرة التي نزلت بدولتين كبيرتين، فرنســا، وبريطانيا، رفعت جمال عبد الناصر الى السماك الاعلى. ذلك لان العالم دهش لصمود الجبهة المصرية الداخلية ووقوفها صفا واحدا وراء قائدها في حين أن الرأي العام العالمي كان يتوقع واثقا ان أية هزة تصيب نظام عبد الناصر ستطيح به وبنظامه على الفور، فما بالك بحرب تشنها عليه ثلاث دول؟

صمد جيش مصر، وشعب مصر، وقاوما مقاومة باسلة أثارت الاعجاب. وبلغت ثقة عبد الناصر بشعبه، وايمانه بوطنيته حدا جعله يوزع عليه السلاح ولا يخشى أن يصوب الشعب السلاح الى حكامه. فكان الشعب عند حسن ظن قائده به. وصار كل مواطن جنديا يقاتل العدو الغازي.

ومن الاسرار التي لا تزال تكتنف تلك الحرب معرفة من من الجبارين امريكا وروسيا هو الذي تدخل قبل الآخر لارغام دول العدوان الثلاثي على وقف الاعمال الحربية والانسحاب من مصر.

ولم ينته العام ١٩٥٦ حتى كان الجلاء قد تم عن الاراضي المصرية

بكاملها. وكشف الاعتداء الغاشم عليها هيئة الامم المتحدة، واظهر عجزها امام العالم، واضعف هيبتها في نظر الشعوب.

مؤتمر قمة عربي في بيروت

في العدوان الثلاثي دعا الرئيس كميل شمعون الى مؤتمر قمة عربي يعقد في بيروت يحضره ملوك الدول العربية ورؤساؤها ويبحثون فيه ما يجب تقديمه الى الشقيقة مصر من عون، وما يترتب على الدول العربية من واجبات نحوها وهي تواجه العدوان.

وفي ذلك الوقت كان عبد الله اليافي رئيسا للحكومة اللبنانية.

ولبى الدعوة رؤساء الدول الاعضاء في الجامعة العربية، باستثناء جمال عبد الناصر المشغول بقيادة المعركة عن مغادرة بلاده. لكنه أوفد الصحفي مصطفى أمين ليطلع الملوك والرؤساء على الحالة في مصر، وفوض اليه والى السفير المصري في بيروت أن يمثلاه في المؤتمر.

وحصل ما يحصل في جميع المؤتمرات العربية. حماسة، وخطب رنانة، ومزايدات، وتضارب في الاتجاهات والميول. وأخذ المؤتمرون علما بالانذار الذي وجهه أيزينهاور الى دول العدوان الثلاثي على مصر بوجوب سحب قواتها في خلال شهرين. وقرروا انه اذا لم تستجب بريطانيا وفرنسا واسرائيل الى الانذار الاميركي فان حكوماتهم تقطع علاقاتها بفرنسا وبريطانيا.

وتحفظ العراق بالنسبة الى بريطانيا نظرا للمعاهدة التي كانت تربطه بها. ورأى الرئيس شمعون أن يبقى لبنان على علاقاته بحكومتي لونده وباريس، وأبلغ جمال عبد الناصر هذا الرأي وبرره بقوله.

ان من الخير أن يظل هنالك رئيس بلد عربي معروف بصداقته للغرب قادرا على الاتصال في كل دقيقة بالدول الغربية، حتى بدولتي العدوان ومخاطبتها مباشرة باسم الدول العربية، وربما باسم عبد الناصر نفسه. وذلك افضل من أن يكون رسول عبد الناصر والوسيط بينه وبين دول الغرب رجل دولة أجنبيا كالامين العام للامم المتحدة داغ همرشولد، أو جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند، وهما الصديقان اللذان عرضا وساطتهما وباشراها منذ وقوع العدوان الثلاثي. وهذا يظهر صواب السياسة اللبنانية...

بلبلة في لبنان تقسم اللبنانيين

وكانت المفاجأة الكبرى، ان لبنان، البلد المضيف اعلن بلسان رئيس حكومته عبدالله اليافي استعداده لقطع علاقاته بفرنسا وبريطانيا، فيما كان رئيس الجمهورية كميل شمعون يعلن أنه لن يقطع العلاقات مع هذين البلدين في أي حال، مكررا انه افضل لقضية مصر نفسها ان يظل بلد عربي واحد على الاقل متصلا بالغرب، وبدولتي العدوان بالذات، وان لبنان هو البلد المؤهل لأن يقوم بهذا الدور ويمارس ضغط الغرب لحمل المعتدين على التعقل ووقف العدوان على مصر.

احدث موقف كميل شمعون تأثيرا بالغا في نفوس اكثر المجتمعين، وكذلك في داخل لبنان لدى الفئات اللبنانية الملتهبة حماسة وتأييدا لعبد الناصر، والصابة جام الغضب والنقمة على الدول المعتدية. وبديهي ان لا ترضى هذه الفئة عن قرار كميل شمعون فنقمت عليه. وتجاوب معها عبدالله اليافي فاستقال احتجاجا على عدم قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا. وقبل الرئيس شمعون استقالته على الفور. ودعا سامي الصلح الى رئاسة حكومة جديدة.

وصارت العلاقات بين لبنان واكثر الدول العربية فاترة، ان لم نقل متوترة.

واما في داخل لبنان فقد أدى ذلك الى شبه طلاق بين السلطة الممثلة بكميل شمعون وسامي الصلح من جهة، وبين فئات الشعب المؤيدة لعبد الناصر، الهاتفة بحياته، المتحمسة لكل كلمة يقولها او تقولها اجهزة دعايته ذات الصوت المدوي في انحاء العالم العربي كله.

مصر وسورية تحرضان على كميل شمعون

وأطل العام ١٩٥٧ ليشاهد وطننا منقسما على نفسه.
فريق من اللبنانيين يرى في كميل شمعون خصما يجب التخلص منه بأي شكل من الاشكال. ويتلقى هذا الفريق من خارج لبنان، وعلى سبيل التحديد من مصر وسورية، دعما معنويا صارخا ، ومساعدات مادية بدأت تظهر ملامحها هنا وهناك، وتقرأ بين السطور، وفي السطور منشورة كل صباح.

وفريق آخر يرى في رئيس الجمهورية الرجل العنيد الصامد الذي يرد للطامعين بلبنان الكيل كيلين ولا يكتفي بالدفاع بل يتعمد الهجوم.

في هذا الجو المشحون اصدر الرئيس شمعون مرسوما بحل المجلس. وجرت الانتخابات على اساس القانون الجديد الذي يجعل عدد النواب ٦٦ مما اتاح للرئيس ان يتخلص من خصومه.

اقصاء اكثر الاقطاب

فوضع ثقله في الانتخابات واقصى عن المجلس اكثر الاقطاب والزعماء السياسيين امثال عبدالله اليافي، وصائب سلام، وكمـال

جنبلاط، واحمد الاسعد، وسواهم. فكان الزيت الذي يصب على النار. وازدادت المعارضة عنفا ومضى الرئيس في تصلبه.

واصبحنا، واصبح لبنان على شفير خطر، فقد انقسم ابناؤه على انفسهم.

الرئيس شمعون يستقطب حوله من اللبنانيين، وما اكثرهم، اولئك الخائفين على لبنان من رياح الصحراء.

والمعارضة تضرب بسيفها وسيف المارد العربي جمال عبد الناصر، وهو الذي زادته هزيمة دول العدوان الثلاثي قوة ونفوذا وتأثيرا سحريا في الجماهير.

ودرج اقطاب المعارضة على الذهاب الى القاهرة والارتماء في حضن سيدها، يوغرون صدره على كميل شمعون ويزينون له ان في قدرته ان يدخل لبنان ساعة يشاء دخول الفاتحين. ولا ادري ما اذا اقوالهم كانت تلقى هوى في نفس عبد الناصر.

وفجأة اعلنت الوحدة بين مصر وسورية. وذاب اسم مصر، واسم سورية، في الجمهورية العربية المتحدة وبايعت الدولة الجديدة جمال عبد الناصر رئيسا لها. فدخل عاصمة الامويين دخول صلاح الدين.

هذه الاحداث كلها كانت تحدث في لبنان هزات عنيفة حسبت المعارضة انها تخدم اغراضها وتضعف كميل شمعون.

لكن شمعون عرف ان يستغلها واستطاع بدهائه ان يجعل من نفسه رمزا للبنان ويحيط رئاسته بهالة اشبه بالهالة التي تحيط بصور رؤوس القديسين.

القوة الثالثة

وادرك اللبنانيين العقلاء المعتدلون خطورة الحالة وخطرها. وايقنوا ان كميل شمعون لم يبعد عن المجلس اقطاب المعارضة والزعماء السياسيين، الا ليعمل على تجديد رئاسته، وقد اقترب موعد انتهاء ولايته في خريف العام ١٩٥٨. كما ادركوا انه اذا استمر اللبنانيون منقسمين هذا الانقسام المنذر بشبه حرب اهلية تعرض لبنان لخطر فادح.

وكنت في عداد الذين شعروا بالخطر. ولئن ابتعدت عن المجلس فلم ابتعد عن متابعة الاحداث السياسية. فدعوت الى منزلي عددا من رجال الفكر والسياسة والقيادة لنتدارس الامور. ولبى دعوتي عدد من الاصدقاء اذكر منهم السادة: بيار الجميل. هنري فرعون. غسان تويني. الدكتور يوسف الحتي. بهيج تقي الدين. جورج نقاش. شارل حلو محمد شقير. جان سكاف. غبريال المر. نجيب صالحة.

وبعد المناقشة وتقليب الامور على شتى وجوهها وضعنا عريضة اكدنا فيها اتفاقنا وتضامننا على الاتصال بالسلطة من جهة وبالمعارضة من جهة اخرى. واتفقنا على ان نسمي حركتنا «القوة الثالثة».

وفي اليوم التالي صدرت الصحف تحمل انباء قيام القوة الثالثة.
ونشرت نص العريضة التي وقعنا عليها. فخلق ذلك جوا من الاحسان والترحيب. وساعد على تهدئة الحالة قليلا. رغم ان شارل حلو وبيار الجميل اعلنا استقالتهما من القوة الثالثة لاسباب لا ازال اجهلها الى اليوم.

عند الرئيس كميل شمعون

ورأينا اولا ان نتصل بالرئيس كميل شمعون.

وعرفنا ان الرئيس لم يكن راضيا عن هذا التجمع، فقد اعتبر القوة الثالثة عملا موجها ضده قد يضعف مركزه. وربما كان هذا سبب استقالة بيار الجميل وشارل حلو.

ومع ذلك فقد حدد الرئيس موعدا لمقابلتنا. فذهبنا اليه في قصر الرئاسة في محلة القنطاري. وكنا ثمانية. هنري فرعون. جورج نقاش. غسان تويني. بهيج تقي الدين. الدكتور يوسف حتي. محمد شقير. غبريال المر. وانا.

استقبلنا الرئيس استقبالا فاترا. وبدا واضحا انه غير مرتاح لعملنا.

وتكلمت باسم الاخوان الذين يرافقونني، واعربت عن القلق الذي يسود اللبنانيين. وعن مخاطر الفترة التي يمر بها لبنان. وقلت له بصراحة ان من الاسباب التي ادت الى هذا التوتر في البلاد هي النتائج التي اسفرت عنها الانتخابات النيابية.

واضفت: وبعضها يتصل برغبتكم في التجديد. ولا يخفى على فخامتكم ان التجديد يتطلب تعديل الدستور. وتعديل الدستور في هذا الجو المشحون بالقلق امر شاق فضلا عن انه غير ملائم في الوقت الحاضر.

فأجاب الرئيس بحدة: ومن قال لكم انني اعمل على تجديد ولايتي؟ انا لم اعلن ذلك.

قلت: يكفي يا فخامة الرئيس ان تعلن انك غير راغب في التجديد حتى تهدأ الامور.

فقاطعني بقوله: لا استطيع ان اعلن ذلك، لأنني اذا لم اجد في الميدان مرشحا يستطيع ان يكمل السياسة التي سرت عليها، عند ذلك ارى نفسي مكرها على العمل للتجديد.

هذه السياسة ليست لبنانية

فقال جورج نقاش للرئيس: اذا كنت تعتقد انك لن تجد بين المليونين ونصف المليون لبناني من يستطيع ان يكمل سياستك، فهذا يعني ان هذه السياسة ليست لبنانية.

عند ذلك قال الرئيس شمعون:
اذا لم يكن عندكم ما تقولونه غير هذا فقد انتهى الحديث.

وكنا قبل وصولنا الى قصر الرئاسة قد وضعنا صيغة بيانين نذيع احدهما بعد انتهاء الزيارة، الاول نقول فيه ما معناه، ان اركان القوة الثالثة تشرفوا بمقابلة فخامة الرئيس كميل شمعون واعربوا له عن القلق الذي يسود البلاد ورجوا منه ان يعلن عدم رغبته في تجديد ولايته، لكي يسهم في تهدئة الحالة فأستجاب الى رجائهم واعلن عدم رغبته في التجديد.

واما صيغة البيان الآخر فتقول في الفقرة الاخيرة ان الرئيس لم يقبل رجاء القوة الثالثة ورفض ان يصرح بعدم رغبته في التجديد.

فلما انتهت زيارتنا على الشكل الذي ذكرته عرضت البيان الثاني

على الرئيس وقلت له اننا سنذيعه في الصحف «فهل لفخامة الرئيس أي اعتراض، أو ملاحظة؟»

فأجاب الرئيس بغضب: «افعلوا ما اردتم .»
وصدرت الصحف في اليوم التالي وفي صدر صفحاتها الاولى انباء الزيارة ونص البيان.

مقتل المرحوم نسيب المتني

ظلت الازمة تتفاعل وتشتد الى ان قتل الصحافي المرحوم نسيب المتني صاحب جريدة «التلغراف» في ٩ من أيار ١٩٥٨.

ومما لا شك فيه ان اغتيال المتني كان نتيجة خطة مدبرة لاثارة الفتنة في لبنان. وكان لصاحب الخطة ما اراد. فقد اعلن الاضراب العام في البلاد. واغلقت الاسواق التجارية، ثم تحول الاضراب الى ثورة مسلحة على السلطة اندلعت في بعض احياء بيروت، وبعض مناطق لبنان، حيث اخذ زعماء الثورة، وبعض الزعماء السياسيين يعتبرون انفسهم حكام المناطق التي يسيطرون عليها ويتصرفون على هذا الاساس. وزالت سلطة الدولة عن المناطق الثائرة فطلب الرئيس كميل شمعون الى اللواء فؤاد شهاب ان يتصدى للثورة ويقمعها وهي بعد في بدايتها، فاجابه قائد الجيش انه ليس مستعدا لقتل الناس من اجل تأمين التجديد لرئيس الجمهورية.

عند ذاك تصدى كميل شمعون للثورة بنفسه واستعان بالدرك اللبناني حين فرغت يده من مساعدة الجيش.

وبدا واضحا ان الثورة اتخذت شكل فتنة طائفية. وان يدا من الخارج قد امتدت الى لبنان واشعلت النار.

وكنا، في القوة الثالثة، نتابع مساعينا واتصالاتنا. وعرضت على بعض الاخوان من الطائفة الاسلامية، النافذين والمعروفين بتجردهم وحيادهم امثال أمين بيهم، واحمد الداعوق، وعبد الرحمن السحمراني ان يساعدونا على تهدئة الحالة واخماد النار. فكانوا يؤيدون مساعينا، لكنهم لم يكونوا مستعدين للانضمام الينا خوفا من مجابهة المعارضين.

أيد حزب الكتائب اللبنانية والحزب القومي وحزب الطاشناق الارمني، كميل شمعون وسياسته.

أما مهد الثورة فاستقر في المنطقة الغربية في بيروت حيث اقام صائب سلام قيادته. وكان زعماء المسلمين كالرئيسين حسين العويني وعبد الله اليافي على اتصال دائم به. وعزلت طرابلس وصيدا ومنطقة الشوف الثائرة عن سلطة الدولة.

بين الثورة على كميل شمعون والثورة المعاكسة المؤيدة له، وقفنا نحن اعضاء «القوة الثالثة» في الوسط نعمل ليل نهار لانقاذ لبنان من حرب اهلية لا يعلم الا الله نتيجتها.

وبدا واضحا ان الفتنة صارت طائفية تهدد لبنان وكيانه واستقلاله، وان الجنرال فؤاد شهاب قائد الجيش لا يستطيع، أو لا يريد، قمعها بالقوة مخافة ان يقتل لبنانيون برصاص لبنانيين.

والعجيب في أمر الاحداث الخطيرة التي عصفت بلبنان أن الناس الفوا الثورة والثورة المعاكسة كأنما هي جزء من حياتهم.

هناك خنادق وهنا خنادق. هناك ثائرون وهنا ثائرون ضدهم.

وفي أكثر الليالي تسمع طلقات البنادق والرشاشات. فيعلم الناس في الصباح ان قصر الرئاسة قد هوجم في الليل ودافع عنه رجال الدرك، وكميل شمعون نفسه الذي تحصن في القصر، هو وبعض أصدقائه، ولم يخرج منه قط طوال الاشهر السّتة التى عاشتها الثورة.

الثورة في العراق

اخذ رئيس الجمهورية يقاتل بنفسه الى جانب الدركيين كلما هاجمه انصار الثورة. الى ان وقع انقلاب العراق في ١٤ من تموز ١٩٥٨ على أيدي عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف فاطاح بالملكية وقتل الملك الفتى فيصل وخاله الوصي على العرش الأمير عبد الاله ورئيس الوزراء نوري السعيد وسواهم.

رأى كميل شمعون في انقلاب العراق دليلا على تراجع النفوذ الغربي في المنطقة وازدياد نفوذ جمال عبد الناصر ودول عدم الانحياز والحياد الايجابي وكل ما تمثله هذه الشعارات من قوى معادية لاميركا وبريطانيا وفرنسا، الدول الثلاث التي يعتبرها لبنان صديقة له.

الاستنجاد بالولايات المتحدة

خشي الرئيس شمعون على لبنان كما خشي على نفسه؛ واقنعه وزير

الخارجية الدكتور شارل مالك بالاستعانة بالولايات المتحدة الاميركية خوفا من ان يحدث في لبنان ما حدث في العراق.

ولا ينكر احد ان شارل مالك من ابرز الشخصيات التي اطلعها لبنان، والتي برزت في المحافل الدولية بروزا افاد لبنان منه جاها عريضا وسمعة طيبة. فالرجل واسع الثقافة، درس الفلسفة وعلمها في الجامعة الاميركية سنين طويلة. وقد استطاع بفضل مزاياه ومواهبه الكثيرة ان يتولى رئاسة الجمعية العمومية للامم المتحدة في احدى دوراتها، وهو مركز لا يصل اليه الا افذاذ الناس.

استنجد الرئيس شمعون بالولايات المتحدة، فأنجدته بالاسطول الاميركي السادس في الحال.

وعندما نزل رجال البحرية الاميركية على الشواطىء اللبنانية حاول الجيش اللبناني التصدي لها ومنعها، وكاد يقع اصطدام بينه وبينها لولا تدخل السفير الاميركي مع قائد الجيش اللبناني، والتأكيد له ان القوات الاميركية ليست آتية للاحتلال بل لضمان سلامة لبنان، وأنها ستنسحب كما جاءت، عندما تطلب منها الحكومة اللبنانية ذلك.

وتسارعت الاحداث. فأوفد الرئيس الاميركي ايزنهاور مساعده السيد مورفي واجتمع بقادة المعارضة وتدارس الموقف معهم. ودس في حديثه سؤالا عن الرجل الذي يستطيع فيما اذا تولى الحكم، ان يعيد الامن والطمأنينة الى لبنان ويقضي على الفتنة. فأجمعوا على القول انهم يرفضون تجديد الولاية لشمعون. وفهم من حديثهم ان اسم الجنرال فؤاد شهاب مقبول لديهم.

وزار مورفي شمعون ونصح له بأن لا يفكر في التجديد حتى لا يقال

إنه استعان بالجيش الاميركي ليجدد الرئاسة لنفسه. فأعرب له شمعون عن خيبة أمله في أصدقائه الغربيين وفي طليعتهم الاميركيون وقال له: إني أحصد الآن ثمار موقفي معكم ضد الشيوعية. وها أنتم الآن تقفون مع المعارضة ضدي.

وأجاب مورفي جوابا قاطعا بقوله: لا تجديد. وانما نترك لك يا حضرة الرئيس ان تفكر في الأمر. ويبدو لي، بعد أن درست الموقف، ان اللواء شهاب هو أصلح المرشحين في هذه الفترة العصيبة التي يمر بها لبنان.

قبل كميل شمعون باللواء شهاب على مضض. لكنه اشترط ان يظل في الرئاسة الى آخر دقيقة من ولايته، مهما كلف الأمر، وأية كانت الظروف.

بعد ذلك عاد الهدوء الى البلاد. وتم انتخاب اللواء شهاب رئيسا للجمهورية. وكان اختياره هذا متفقا مع رغبة الرئيس جمال عبد الناصر، ورغبة المعارضة في لبنان.

ملاحظات

ولا بد لي قبل ان اختتم هذا الفصل من ابداء الملاحظات التالية:

ـ لا شك في ان كميل شمعون كان يفكر في تجديد الولاية لنفسه، وان فكرة التجديد كانت احدى اسباب ثورة ١٩٥٨، وان لم تكن اهمها.

على المؤرخ المتجرد ان يسجل للرئيس شمعون شجاعته،

وصموده، وعناده في التمسك بالرئاسة اللبنانية الشرعية حتى آخر دقيقة منها، وعدم التفريط بها على رغم الخطر الشديد الذي كان محدقا بشخصه وبالرئاسة في كل لحظة، بعد ان تخلى الجيش عنه ورفض ان يقمع الثورة.

ـ لقد حال كميل شمعون بصموده وشجاعته دون تعرض لبنان لكارثة كانت مدبرة له.

ـ كانت النتيجة التى انتظرها البعض من الثورة، انهيار النظام في لبنان واذابة الكيان اللبناني في كيان عربي واسع.

ـ وزين بعض السياسيين اللبنانيين للرئيس عبد الناصر وللسلطات السورية ان لبنان لا يصمد طويلا، وانه سيكون الاقليم الثالث في «الجمهورية العربية المتحدة» خلال شهر أو شهرين. وقد ثبت ان الرئيس عبد الناصر استعان بسورية على تمويل ثورة ١٩٥٨.

ـ صار كميل شمعون في نظر فريق كبير من اللبنانيين يمثل لبنان الصامد في وجه الطامعين به.

ـ وعندما جرت حفلة التسلم والتسليم بين الرئيس الذاهب كميل شمعون والرئيس الجديد فؤاد شهاب، سمعت أجراس الحزن تقرع في بعض كنائس لبنان.

محمد فؤاد شهاب

كان اول عمل قام به العهد الشهابي، بتخطيط المكتب الثاني، تاليف وزارة جديدة (٢٤ ايلول) برئاسة السيد رشيد كرامي، من اشخاص لم يعرف عنهم الانغماس في الاحداث الدامية المؤلمة التي مر بها لبنان، وهم السادة : شارل حلو، وفيليب تقلا، ومحمد صفي الدين، ويوسف السودا، ورفيق نجا، وفريد طراد، وفؤاد النجار.

وما ان اذاعت الاذاعة اللبنانية نبأ تشكيل هذه الوزارة حتى انتفض تيار قوي من المواطنين رافضا القبول بالسيد رشيد كرامي رئيسا للوزارة الجديدة، وهو الذي اشترك اشتراكا رئيسيا مسلحا ضد الشرعية.

لم يغفر كميل شمعون للجنرال شهاب موقفه منه ومن الثورة التي نشبت ضده. فما كاد شهاب يتربع على سدة الرياسة حتى ادرك ان فريقا كبيرا من اللبنانيين لا ينظر اليه والى حكمه بعين الرضى.

واذا كانت الثورة التي تزعمها صائب سلام ورفاقه هدأت، فان قوة مضادة نشبت على اثرها بقيادة الكتائب اللبنانية بالاتفاق طبعا مع الرئيس شمعون. وذلك لافهام شهاب : «اننا نحن الذين نمثل المسيحيين في هذا البلد، والموارنة بوجه خاص، لا انت».

وظلت دقات الحزن التي ارسلتها اجراس بعض الكنائس في بيروت والقرى اللبنانية ترن في الاذان.

ودامت الثورة المضادة شهرا بكامله.

وحدثت الاعجوبة اللبنانية بين ليلة وضحاها. وانطفأت النار، وفتحت الاسواق، ونزل الناس الى الشوارع يتباوسون باللحى ويهنئون بعضهم بعضا بزوال المكروه.

قيل ان الحكم توقع وتنبؤ، واحتياط لما قد يحدث، اما الحكم في لبنان فقد كان، ولا اقول لا يزال، الارتجال في كل شيء وعدم التخطيط لشيء.

ثورة الستة الاشهر انهكت لبنان. وخلفت في نفوس اللبنانيين رواسب طائفية زرعتها احداث الماضي كالبذور في نفوسنا وغذاها الاجنبي، وساعدناه نحن على تعهدها والاعتناء بها، فرويناها بدم الابرياء. ونمت بذور الشر وترعرعت، فصرنا نسلط على كل مشكلة تعرض علينا منظار الطائفية. وصارت اعظم القضايا في لبنان تعالج في الشارع، وفي الصالونات، وفي دواوين الحكام، على شكل طائفي.

كلما عصفت بلبنان عاصفة، او احدق به خطر، ثم سكتت العاصفة وزال الخطر، قال اللبنانيون ان العناية الالهية تحرس لبنان .

وافرطنا في ترديد هذا الكلام، واطمانت اليه نفوسنا، الى حد اننا تركنا للعناية الالهية وحدها امر حراسة لبنان وانقاذه، بدلا من ان نساعدها نحن على النهوض بهذه المهمة الوطنية الجليلة. ثم القينا عليها كسلنا، وتخاذلنا، وارتجالنا المواقف والخطط والحلول. واطلقنا على ذلك كله «الاعجوبة اللبنانية».

تسلم فؤاد شهاب الحكم في اعقاب الثورة، وهو الجندي الذي لم يستطع او لم يشأ ان يقمع الثورة حتى لا يسفح دما لبنانيا برصاص لبنانيين.

وجعل اهتمامه الاول ان يجري مصالحة وطنية بين اركان الثورة الاولى والثورة المضادة. لذلك انتقى وزارة جديدة عنوانها لا غالب ولا مغلوب مؤلفة من اربعة وزراء : رشيد كرامي رئيسا، والشيخ بطرس جميل، والحاج حسين العويني، وريمون اده اعضاء.

لم يكن قائد الجيش راغبا في الرياسة، ولا ساعيا وراءها، وانما دفعته الاحداث اليها دفعا. فما استطاع ان يرفضها لانه رأى نفسه، ورآه الناس، الحل الوحيد بعد محنة الاشهر الستة.

اني اسجل ذلك لمعرفتي بالرجل الكبير وخلقه وطبعه، ووفاء مني للحقيقة والتاريخ.

اقول ذلك وانا اعرف ان فريقا من السياسيين، وليسوا من اقلهم شأنا، سينكرون علي ما اقول. وربما اضافوا الى النكران السخط علي، لكني آليت على نفسي ان ارضي ضميري ولو اغضبت اقرب الناس الي.

واكبر ظني ان الرئيس شهاب قبل الرياسة في العام ١٩٥٨، على زهده بها، بسبب الحالة الاستثنائية التي كانت تتخبط بها منطقة الشرق العربي، والجو الحالك الذي كان يغمر لبنان والذي وضع مصيره في مهب الرياح.

اتساع نفوذ جمال عبد الناصر

ولكن النزاع الذي دام عدة اشهر وتناول جميع الفئات اللبنانية لا يزول وتمحى اثاره بمجرد تعيين وزارة ائتلافية.

كان على الرئيس شهاب ان يستمر في السعي لتحقيق الوحدة الوطنية ويعمل جاهدا في سبيل اعادة الثقة بين الجميع فيعمل منها حزمة واحدة ضمن اتحاد وطني شامل.

ولتحقيق هذه الغاية الوطنية وتخطي صعوبات عديدة كانت تعترض فئات تفرقها اعتبارات عقائدية وطائفية وقومية اخذ يستعين تارة بالبطريرك الماروني وتارة ببعض الزعماء السياسيين وتارة بالرئيس عبد الناصر.

كان الرئيس جمال عبد الناصر يوسع يوما بعد يوم رقعة نفوذه، لا في دنيا العرب فحسب، حيث صار الزعيم غير المنازع الذي تنجذب اليه الشعوب العربية بخيط من السحر، بل في عدد لا يستهان به من دول العالم الثالث.

والوحدة بين مصر وسوريا اسكرت «الوحدويين العرب» كما اسكرت عبد الناصر نفسه، فاخذ يطمح الى تحقيق المد الوحدوي حيثما يستطيع. ولم يفكر في الجزر الذي يعقب كل مد. وتلك هي سنة الطبيعة. ثم ان عبد الناصر، كاكثر المصريين، لم يكن يعرف الكثير عن العرب، وعن البلاد العربية. واكبر ظني انه لم يقرأ تاريخ بني امية، وبني العباس، وملوك الاندلس، وتاريخ سورية ولبنان.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد صارت القاهرة، في عهد عبد الناصر العاصمة التي يحج اليها السياسيون من كل صقع من الاصقاع العربية.

الوجه الآخر لجمال عبد الناصر

وللزعيم الكبير جمال عبد الناصر صفحة اخرى رائعة، ملئت رجولة ووطنية. وكان لصوته الجرىء وقعه المؤثر في الاوساط الدولية مما حمل كثيرين من رجالها على ان يغيروا نظرتهم الى العالم العربي عامة، وصاروا يتجنبون اغضاب العرب — في الظاهر على الاقل — وكثيرون من الغربيين ما عادوا يجرؤون على تحدي شعوب الشرق واحتقار شأنها.

ومن جراء ذلك كله صار لسياسة عبد الناصر الوطنية اتباع وانصار وتلاميذ في مختلف الاقطار العربية بوصفه معيدا لامته اعتبارها وكرامتها، وصار هو الزعيم المفرد الذي يستطيع قيادة الجماهير في مختلف بلدانها لتحقيق الاماني العربية.

ولعبد الناصر في مصر انجازات تستحق الاعتبار والتقدير : اهمها انشاء سد اسوان الذي امن للصناعة والزراعة في وادي النيل طاقات عظيمة جدا. ولا يقل عن هذا الانجاز شأنا تمصير شركة قناة السويس وجعلها مصلحة مصرية تخضع لقوانين البلاد وانظمتها وسياستها بعد ان كانت شركة انكليزية فرنسية تذهب مواردها الى الاجانب.

السفير المصري « مفوض سام »

لذلك كان من الطبيعي ان يستعين الرئيس شهاب بالرئيس عبد

الناصر بواسطة سفير مصر في لبنان، في كل مرة يقع خلاف بين الوزراء او بين مختلف الفئات اللبنانية على قضايا قومية او طائفية.

على هذا الاساس كبر حجم اللواء عبد الحميد غالب سفير عبد الناصر في لبنان، وطالت اقامته فيه ستة عشر عاما، وهي مدة لم يسجلها تاريخ الديبلوماسية لاي سفير في الشرق. حتى اطلق عليه اللبنانيون بين ساخرين وغاضبين لقب المفوض السامي.
وصار اللواء السفير يتدخل في كل شأن من شؤون لبنان، واصابعه تمتد الى كل سياسي، وصحفي، وموظف، وانسان ذي شأن. وكثيرا ما كانت يداه مليئتين لا خاليتين.

كانت السنتان الاوليان من حكم الجنرال شهاب سنتي تجربة وتلمس طريق كما كانتا سنتي عمل في سبيل تحقيق الوحدة الوطنية بين جميع اللبنانيين.

وفاة اخي توفيق

في بداية عهد الجنرال شهاب فجعت باخي اللواء توفيق سالم رئيس الاركان العامة في الجيش. فقد لبى دعوة ربه وهو في ذروة نشاطه. وعرف بدماثة اخلاقه، وانضباطه، ووطنيته واخلاصه للجيش الذي وهبه حياته، ولوطنه الذي كان الجيش، ولا يزال، درعه الواقية.

بكيت اخي توفيق كما بكاه رئيسه المباشر الجنرال الرئيس، ورفاقه وكل من عرفه. وجرحتني وفاته جرحا عميقا هيهات ان يندمل.

رجعت نائبا وتركت مصلحة المياه

في عام ١٩٦٠ جرت انتخابات نيابية. وعدت الى المجلس نائبا عن الجنوب. واستأنفت الحياة السياسية التي انقطعت عنها عددا من السنين كرستها للعمل في الشؤون الاقتصادية كما ذكرت انفا.

ونتج عن انتخابي عضوا في مجلس النواب ان اضطررت الى الاستقالة من المديرية العامة لمصلحة مياه بيروت. لان احد القوانين التي صدرت في عهد فؤاد شهاب منع الجمع بين النيابة والوظيفة في المصالح المستقلة.

احدثت مغادرتي مصلحة المياه اثرا عميقا في نفسي، لم يحدث مثله في ابتعادي عن المؤسسات الاخرى التي انشأتها وقضيت فيها ردحا من الزمن. ذلك لاني اعطيت شركة مياه بيروت ثماني وثلاثين سنة من عمري. ورعيتها بعقلي وقلبي معا. فلما انسلخت عنها تألمت الما شديدا لم اجد، حتى في النهاية، عزاء عنه.

فؤاد شهاب والعدالة الاجتماعية

كان فؤاد شهاب نظيف اليد، مؤمنا بربه، حي الضمير، يحدب على الفقراء والمساكين والمعذبين في الارض.

وكان يميل الى البساطة في حياته، ويكره المظاهر ولا يغتر بابهة الحكم. ولما انتقل من قيادة الجيش الى رياسة الدولة لم يبدل شيئا من نظام حياته ونمط معيشته. حتى لقبه الناس بالناسك المتقشف.

والواقع الذي لا شك فيه ان شعور فؤاد شهاب بالاشفاق على

المناطق المحرومة، والقرى المتخلفة في لبنان، وعلى البائسين من ابناء لبنان، هو الذي دفعه الى تحريك آلة الدولة في اتجاه العدالة الاجتماعية ووضع اسسها في لبنان. واصدر التشريعات الرامية الى تحقيقها. كما دفعه الى الاهتمام بالمناطق المتخلفة، وانفاق الاموال الكثيرة عليها لرفع مستوى الحياة فيها، وتخصيصها بالطرق الحديثة، والمدارس والماء والكهرباء.

يضاف الى ذلك كله انه سليل اسرة لبنانية عريقة اشتهر كثيرون من افرادها بالبأس والشرف والوطنية. فحرص فؤاد شهاب على ان يحافظ عى الاسم الكبير الذي يحمله. ونجح في ذلك الى حد بعيد.

لماذا استقال

على اثر انتخابات ١٩٦٠، وكان قد توصل الى نتيجة ملموسة في تحقيق الوحدة الوطنية، شعر فؤاد شهاب انه في واد واللبنانيون في واد.

فاذا بمحطة الاذاعة تعلن في الساعة الثانية بعد ظهر ٢٠ تموز ١٩٦٠ ان رئيس الجمهورية قد استقال.

انفجر نبأ الاستقالة في الاوساط السياسية، وفي سائر الاوساط كما تنفجر القنبلة، وقوبلت للوهلة الاولى بالوجوم والدهشة والتساؤل.

ثم استعاد النواب ورجال السياسة روعهم، وادركوا انهم امام حدث خطير، فهبوا هبة واحدة، وهرعوا الى دار الرئيس في جونيه، يرجونه ويلحون عليه ان يعود عن استقالته ويجنب البلد هزة جديدة.

وكنت بين النواب الذين ذهبوا اليه واشتركوا في حمله على العدول عن الاستقالة.

وازدحمت داره في جونيه بالزائرين. وكلما مرت ساعة وصل اليها قادمون جدد. والجموع صوت صارخ: نرفض استقالتك يا فخامة الرئيس.

واخيرا نزل الرئيس عند رغبة النواب والسياسيين والجمع المحتشد امام الدار وفي داخلها واعلن انه عاد عن استقالته.

ووصل النبأ الى العاصمة والقرى المجاورة فكان له صدى بعيد.

والطريف ان تلك الاجراس التي قرعت حزنا يوم تسلم شهاب سدة الرياسة، هي التي قرعت فرحا وابتهاجا بعودته عن الاستقالة.

ضربة معلم

وضع الجنرال شهاب قبضته على الحكم بعد ٢٠ من تموز. وقد شعر ان تلك الاستقالة استفتاء جاءت نتيجته لمصلحته. لقد الح عليه جميع السياسيين، وفي طليعتهم الزعماء المسيحيون، بان يطوي الاستقالة، فطواها. وزال معها مركب النقص الذي كان يشعر به الرئيس نحوهم، فقد انتخبه لبنان بالفعل رئيسا للجمهورية في ٢٠ من تموز.

وهذا ما قصد اليه الرئيس. اراد ان يختبر رجال السياسة وسواهم من الناس فاختبرهم. واكبر ظني انه لم يكن يحسب انهم سيزحفون الى بيته كما زحفوا ليتوسلوا اليه على شكل دراماتيكي ان يبقى.

ووفق اخراج تلك الاستقالة، ثم العودة عنها، كل التوفيق. ولست

ادري هل خطط لها الرئيس ودبرها عن سابق تصور وتصميم ام جاءت عفو الخاطر. ومهما يكن فقد كانت ضربة معلم.

ومهما يكن من امر، وايا كان التفسير الذي يمكن ان يعطيه كل انسان، حسب اهوائه، لاستقالة ٢٠ تموز، فقد اثمرت هذه الاستقالة، وعودة الرئيس عنها تحت ضغط السياسيين وجميع الاوساط اللبنانية، ثمرة طيبة، هي ان الرجل عاد الى الكرسي الاول اقوى منه بكثير، ورجع الى سدة الرئاسة مشمولا بتأييد جماعي لم يعرفه رئيس آخر.

قويم الاخلاق يجهل السياسة

انصرف الرئيس الى شؤون الحكم وبدأ يفكر في انشاء مؤسسات جديدة لم يفكر فيها رئيس قبله. وكان هدفه الى ذلك ابعاد الادارة عن السياسة ونفوذ السياسيين. واستقدم عددا ضخما من الخبراء الفرنسيين فرض على الدولة ان تتعاقد معهم. وخيل للناس، ولا سيما الموظفين، ان لبنان عاد من جديد الى عهد المستشارين. ومع ذلك فقد حقق بعض الاصلاح في الدواوين. ووضع الاسس لخلق دولة حديثة مبنية على التنظيم العلمي والتخطيط والاحصاء.

مما لا شك فيه ان الجنرال شهاب رجل نظيف طاهر الكف قويم الاخلاق. لكنه لم يمارس السياسة في حياته قط. لا بل انه كان بعيدا عن السياسيين، يتحاشىٰ الاختلاط بهم. كان يعيش في عزلة عنهم وعن الناس. وكان يسمي السياسيين اكلة الجبنة. والجبنة هي خيرات الدولة التي توفرها السياسة لمحترفيها.

الجيش حياته كلها

ثم ان الجنرال قضى حياته كلها في الجيش. فالجيش هو مدرسته، وهو البيئة التي ترعرع فيها وتنشق هواءها. والبيت الذي سكنه وعاش فيه. وبما انه لم ينجب ولدا، فقد وجد في الجنود اولاده، وفي ضباط الجيش رفاقه واصحابه. حتى اعتبر بحق والد الجيش الروحي.

فمن الطبيعي، والحالة هذه، ان يصير الجيش القاعدة التي يبني عليها الرئيس شهاب حكمه، ويستعينه ويستعين افراده كبارا وصغارا لادارة البلاد بعد ان الفهم والفوه، واحبهم واحبوه. فما دعا السياسيين الى معاونته الا حين لم يكن له مهرب من ذلك. ولكنه ظل يحيط نفسه بضباط من الجيش يتلقون منه التعليمات ويشيرون عليه، ويشاركونه الحكم، ويستلمون المراكز الحساسة في الدولة. فخلق ذلك كله نوعا من الاستياء بين المدنيين والعسكريين. ونشأ عن هذا الاستياء نقمة صامتة شملت السياسيين وفريقا كبيرا من اللبنانيين. كما شملت الرأي العام.

المكتب الثاني

في هذا الجو جرت محاولة الحزب القومي السوري اشعال الثورة في البلاد للاستيلاء على الحكم. ولكن المؤامرة اخفقت بعد ساعات ووجد فيها المكتب الثاني فرصة سانحة فاستغلها.

المكتب الثاني في الاصل شعبة في كل جيش من جيوش العالم، ولا سيما الجيش الفرنسي، مهمتها مراقبة نشاط العدو، ومكافحة التجسس، والاستخبارات، وجمع اكبر قدر من المعلومات عن اي انسان او مؤسسة او مجموعة من الناس يجوز ان تشكل خطرا على البلاد.

والمكتب الثاني، قبل ثورة الحزب القومي السوري، كان يقتصر عمله ونشاطه على اداء المهمات التي حددتها له الانظمة العسكرية.

ولكن بعد الثورة التي كانت استهدفت الاستيلاء على الحكم بقوة السلاح، والتي قام افرادها بخطف بعض كبار الضباط من بيوتهم وهم في ثياب النوم واحتجازهم في اماكن نائية. والتي حاصرت قصر الرئيس شهاب قصد اعتقاله ان لم يكن اكثر. ارخى فؤاد شهاب العنان للجيش لقمع الثورة. فوجد فيها المكتب الثاني فرصة حياته فاستغلها استغلالا ذكر الناس بطغيان الغستابو في عهد هتلر. سيق المئات من الناس، ممن كان يشتبه بصلته بالحزب القومي السوري الى السجون حيث تعرضوا للضرب والتنكيل.

وفجر ضباط المكتب الثاني احقادهم ضد الخصوم السياسيين وكل من سجلوا اسمه في عداد المغضوب عليهم. وراح هذ المكتب يحصي على اللبنانيين انفاسهم، ولا يميز بين الذين يشكلون خطرا على امن البلاد وبين الناس الآمنين.

وهكذا صار المكتب الثاني سلطة جديدة في لبنان. وكبر حجم

رئيسه، وازداد نفوذه، ولم تعد غرفة الانتظار الملحقة بمكتبه تتسع لعشرات الزائرين الملتمسين الدخول عليه، واسترضاءه، وتقديم شعور الولاء له ولسيده، بينما خلت السرايا من الزائرين واصحاب الحاجات.

وفاة الرئيس بشاره الخوري

يوم السبت في ١١ كانون الثاني ١٩٦٤ مساء، والناس في سهرهم وسمرهم فوجئوا بالاذاعة اللبنانية توقف برنامجها لتنقل اليهم نعي الرئيس الشيخ بشارة، فتلقوه بذهول وحزن وصدرت الصحف في اليوم الثاني تحمل النبأ الحزين في مقالات ضافية ورسوم تذكارية للفقيد في مواقف وطنية وقد اجمعت على اختلاف نزعاتها على اكبار المصاب به، واجمعت على نعته ببطل الاستقلال، وابي الاستقلال، وقائد الاستقلال. وقل ان اتفقت الصحافة على رأي واحد، اجماعي، مثل اتفاقها يوم ذاك على تقدير الرئيس الراحل، والاعجاب ببعد نظره وثقافته ودهائه ورصانته وذكرت حسناته وخدماته في سبيل وطنه. وقد اقيم له مأتم وطني رسمي وتلا السيد رشيد كرامي رئيس الوزارة تأبينا وضعوه في القصر الجمهوري باسم الرئيس فؤاد شهاب فيه اتزان وعدل وانصاف تؤكد نضج الفكر اللبناني.

عاش الرئيس بشارة اربعا وسبعين سنة قضى منها خمسا وخمسين سنة في خدمة لبنان ويعتبره التاريخ من الرجال العرب الاولين في النصف الاول من هذا القرن، رحمه الله.

شيطان السياسة ارهقني

كنت، وانا بعيد عن البرلمان، اعزز مركزي الاقتصادي، شأني في ذلك كل مرة اغيب فيها عن مجلس النواب. فوفر لي ذلك عيشا كريما

واستقلالا ذاتيا لا بد منهما لاي سياسي يأبى عليه خلقه ان يكون عرضة للانزلاق في المهاوي الخطرة.

ولكن عندما جرت انتخابات ١٩٦٠ عادني شيطان السياسة وذكرني بالايام التي عشتها في السفارات والوزارت والمؤتمرات الدولية وحسن لي العودة اليها، فغررت ببهجة الماضي وانزلقت في السياسة من جديد.

عدت الى النيابة سنة ١٩٦٠، وكان لا بد من ان اصرف بعض اوقاتي للاهتمام بالقضايا العامة، فابتعدت، وان قليلا، عن اعمالي الخاصة وعن الشركات التي في عهدتي.

وابتدأت هذه المؤسسات تفلت من يدي الواحدة بعد الاخرى وتنتقل الى ايدي اصحابها.

فكما استقلت من مصلحة مياه بيروت، كذلك اضطررت الى الاستقالة من رئاسة مجلس ادارة شركة الاتحاد الوطني للضمان. واكتفيت بأن ابقى رئيسا فخريا لها.

وفي ذلك الحين انتقلت اكثرية اسهم الكوكاكولا الى الصديق نجيب صالحة، فتخليت له عن رئاسة مجلس ادارتها. كما اني تخليت عن رئاسة مجلس ادارة البنك الاهلي، بعد ان اصبحت اكثرية الاسهم ملكا للسيد ادريان جدي.

اذهب الى المراجع الاعلى مني

قلت ان المكتب الثاني في الجيش اتخذ من ثورة الحزب القومي

السوري حجة للتدخل في كل ما له علاقة بالادارة وسلامة المواطنين. وسياسة الطغيان هذه تناولت كل مرافق الدولة.

كان لبنان يعيش في هذا الجو عندما حان موعد الانتخابات النيابية في العام ١٩٦٤.

اما انا فاعددت العدة للمعركة الانتخابية هذه، مع زميلي في اللائحة الرئيس عادل عسيران.

كان كل شيء ينبىء بان فوزنا مؤكد لا شك فيه. ولكننا لم نحسب حساب المكتب الثاني وطغيانه. ففوجئت قبل موعد الانتخابات بثلاثة ايام بانقلاب الموقف ضدنا، كأن الدنيا اطبقت علينا. فسارعت الى المقدم توفيق جلبوط، وهو من خيرة الضباط واصدقهم وطنية، وكان يشغل منصب مدير الامن العام. وسألته عن الخبر.

فاجابني بالحرف الواحد. يا سيدي، لدي اوامر من المراجع التي هي اعلى مني. فاذهب اليها ولا تسألني.

فهمت. لكنني لم اذهب الى احد. وفضلت الفشل في الانتخاب على تعريض كرامتي للامتهان.

وجرى الانتخاب. فخسر كلانا، عادل عسيران وانا.

قد يكون الرئيس شهاب بعيدا عن هذا التدخل. وهذا التصرف من جانب الضباط. وقد لا يكون. من يدري.

ولكن مما لا شك فيه ان زبانيته من رجال المكتب الثاني ومن

يأتمرون بامرهم اخذوا يعدون العدة لتجديد رئاسة الجنرال لكي تظل ايديهم قابضة على الدولة وخيراتها ويظل نفوذهم متحكما برقاب اللبنانيين.

وبعد هدوء العاصفة التي تهب دائما في مواسم الانتخابات بدأت قصة التجديد تتبلور. وعلمت ان المكتب الثاني يراقبني ليعرف كل شيء عني. ونبشوا ماضي وفسروا مواقفي كما كانوا يشتهون. يوسف سالم عمل كذا مع بشارة الخوري. وكيت مع رياض الصلح. وخلق القوة الثالثة ضد كميل شمعون.

خشوا ان انقم عليهم ولا انام على ضيم. وصرت اعرف اخبارهم فلا اعبأ بها واسخر منهم ومنها.

لكن حساب الحقل لم يوافق حساب البيدر. وعلى رغم ان المجلس عدل الدستور ليستطيع الرئيس التجديد، فان الجنرال شهاب رد تعديل الدستور الى المجلس، وتلاشت احلام المكتب الثاني، رغم ان فؤاد شهاب كان يستطيع ان يجدد لنفسه لا بطرق ملتوية، بل هادئة ومستقيمة.

والدليل على ذلك انه هو الذي فرض شارل حلو خلفا له.

والذي اعرفه ان فؤاد شهاب لم يندم في حياته على شيء كما ندم على هذا الاختيار.

عهد شارل حلو

بعد مضي حوالي سنتين على مجيء شارل حلو الى الرئاسة حدث ان توقف بنك انترا عن الدفع وهو من اكبر المصارف اللبنانية حجما واتساعا.

وكان واجبا على الدولة ان تحول دون انهياره فتوفر على لبنان واقتصاد لبنان كارثة عانى منها طويلا. ولكن الدولة لم تفعل بل اسهمت في الانهيار لتقطع للنافذين فيها قطعا دسمة من لحم البقرة التي وقعت وكثر سلاخوها.

واهتزت السوق المالية في لبنان وفقدت سيولة المال في عدد كبير من المصارف.

ظل فؤاد شهاب مرجعا

انقطعت بعد انتخابات ١٩٦٤، التي اخفقت فيها، عن الجنرال شهاب وقطعت كل اتصال به لشعوري بأنه هو ورجاله قد حالوا بيني وبين النيابة.

وعلى رغم مغادرة فؤاد شهاب الحكم وتسلم شارل حلو مقاليد الرئاسة، فقد ظل الرئيس شهاب مرجعا يقصد اليه السياسيون ويطرق بابه اصحاب الحاجات.

فالناس يشعرون بان المكتب الثاني هو الذي يحكم من وراء الستار. يعرفون ان ضباطه لا يزالون على ولائهم واخلاصهم للجنرال، وان نفوذ شهاب يوازي نفوذ شارل حلو، بل يفوقه. لذلك ظل بيت «ناسك جونية» قبلة انظار السياسيين.

سالتقي بشخص يحبني

وحدث ذات صباح ان رن جرس التلفون في منزلي، فاذا السيدة مي قرينة الاستاذ فكتور موسى تكلمني وتدعوني الى العشاء في منزلها. ثم تضيف : «وستلتقي بشخص يحبك.»

لبيت الدعوة من دون ان اهتم بمعرفة الشخص الذي تعنيه. ولما دخلت دار الاستاذ موسى في الاشرفية، وجدت عنده العماد يوسف شميط رئيس الاركان العامة في الجيش.

تبادلنا التحية. وتناولنا كأسا من الويسكي ثم قمنا الى العشاء وظل الحديث بيننا عاديا يرتدي طابع المجاملات.

وبعد العشاء، وفيما نحن نشرب القهوة اشارت الي السيدة موسى اشارة فهمت منها ان العماد شميط يريد ان يخلو بي. فقمت وقام الى غرفة اغلقنا بابها واختلينا فيها.

سألني : «شو قصتك مع الجماعة؟» (يعني ضباط الجيش، او على وجه التحديد : المكتب الثاني).

فاخبرته بما حدث في انتخابات ١٩٦٤.

قال : انا اعرف ان الجنرال شهاب يحبك ويحترمك. فلماذا انقطعت عنه؟

قلت : لم يبق لي عنده حاجة. ولا لي ما اقوله له.

قال العماد شميط : انت تعرف الجنرال جيدا. وتعرف المكانة

التي كانت للمرحوم شقيقك توفيق في نفسه. واذا كنت تريد ان تتأكد من محبته واحترامه لك، فأرى ان تزوره. واني متأكد انك اذا طلبت موعدا لزيارته فسيحدده لك في خلال اربع وعشرين ساعة، مع ان الذين يطلبون المواعيد لا يحصلون عليها قبل اسبوع او اسبوعين.

واخذ اللواء شميط يحدثني عن انتخابات ١٩٦٤. وقال : «ان الجنرال شهاب كان بعيدا عما جرى فيها. اما المسؤولون عما حدث فهم بعض الضباط الكبار الذين ارادوا ان يضمنوا فوز اكثرية ساحقة من النواب كفيلة بتعديل الدستور وتجديد الرئاسة لشهاب، لكي يحافظوا على سلطانهم ونفوذهم في البلاد. ولكن سيد العهد بقي غريبا عن هذا المخطط.»

وانتهى الامر بان وعدته بان اطلب موعدا لزيارة فؤاد شهاب، فطلبت الموعد. وحدد لي في اليوم التالي.

اظهرت للجنرال عتبي

ولما زرت الجنرال اظهرت له عتبي على ما جرى في الماضي، فاوضح لي الامور على الشكل الذي شرحه شميط. قبلت الايضاح وعادت المياه الى مجاريها.

امتدت جسور جديدة من الود بيني وبين ناسك جونية، الجنرال شهاب، فكنت ازوره من حين الى حين وتدور بيننا الاحاديث حول شؤون الحكم ومستقبل البلاد.

وكنت احرص على ان ادس في حديثي، مرة بعد مرة، سؤالا عما ينوي الجنرال عمله في مستقبل الايام. وهل هو راغب في العودة الى

الحكم، ام انه طلق السياسة الى الابد. فكان الجنرال يتجاهل السؤال ويحيد عن الموضوع بلباقة. ولكنه لم يكن يوفر الرئيس شارل حلو من انتقاده، ويقول انه اصيب فيه بصدمة كبيرة، وخيبة امل اكبر.

ونشأ عن عودة العلاقات بيني وبين الجنرال شهاب، قيام صلة تعارف وتزاور وثيقة بيني وبين المقدم غابي لحود، رئيس المكتب الثاني في ذلك الحين.

وكثيرا ما كان لحود يزورني في منزلي ويتناول طعام الغداء على مائدتي مع بعض الاصدقاء.

حرب الايام الستة

كان ربيع العام ١٩٦٧ شديد الحرارة في مصر. فقد هبت رياح الخماسين مبكرة على غير عادتها، كانها نذيرة بصيف محرق لاهب.

وفجأة ارتفعت الحرارة عندما حملت امواج الاثير الى ملايين المصريين، وملايين العرب انباء عدوان اسرائيلي على سورية، وقد اتخذ هذه المرة شكل حرب نظامية، لا شكل عدوان عادي:

قالت اذاعة دمشق ان اسرائيل دفعت بالجرارات الزراعية الى المنطقة المجردة شرقي بحيرة طبرية، تمهيدا لاحتلالها، فتعرضت لها المراكز السورية بالنار، وبدأت معركة دامت حتى ساعة متأخرة من الليل بين الدبابات والمدفعية الاسرائيلية والقوات السورية. وتدخل سلاح الجو الاسرائيلي في المعركة باسراب متتالية من الطائرات واشتبك مع سلاح الجو السوري.

قبل ذلك التاريخ دخلت المنطقة، ولا سيما مصر، في جو الحرب الشاملة ضد اسرائيل.

سحب قوات الطوارىء الدولية

وتوالت الاحداث. وتسارعت وشعر عبد الناصر ان الفرصة قد سنحت له ليظهر للعالم وللعرب خاصة، انه المسؤول العربي الاول عن اي بلد تتعرض سلامته لعدوان العدو المشترك. وجرت بينه وبين حكام سورية وقادتها مخابرات ومفاوضات وضع فيها السوريون مصيرهم بين يدي الزعيم العربي الكبير، لا تنفيذا لاتفاق الدفاع المشترك بين الدول العربية جميعا وحسب، بل لان عبد الناصر هو زعيم العرب دون منازع.

بدأ الرئيس عبد الناصر يتخذ الخطوات السياسية اولا، قبل

الخطوات العسكرية التي تقود الى الحرب.

ففي ١٦ من ايار ١٩٦٧ تلقى قائد قوات الطوارئ الدولية في غزة من القيادة العليا المصرية امرا بسحب قوات الطوارئ الدولية المتحركة من نقاط المراقبة على حدود سيناء الشرقية.

وذهل العالم. لقد كانت قوات الطوارئ الدولية التي ارسلتها الامم المتحدة تقف حاجزا بين عبد الناصر واسرائيل.

ومعنى الامر الذي اصدره رئيس مصر واضح : انه لا يريد ان يعوقه عائق يحول بينه وبين الاشتباك بحرب مع اسرائيل اذا اعتدت على اي بلد عربي كما اعتدت في ٧ من نيسان على سورية.

القوات المصرية مكان قوات الطوارىء

واحدث التدبير الذي اتخذه عبد الناصر دويا هائلا في المحافل الدولية. ولم تستطع الامم المتحدة الا ان تنصاع للامر فقد صرح يوثانت الامين العام للامم المتحدة بقوله : «ان القوات الدولية قد ذهبت منذ عشر سنوات الى المنطقة بموافقة الجمهورية العربية المتحدة، وانه اذا طلبت القاهرة سحب قواتها فعليها ان تنسحب.»

وقد انسحبت قوات الطوارئ الدولية فعلا وحلت محلها القوات المصرية.

واخذت الاحداث تتطور بسرعة هائلة. فقد حشدت اسرائيل قواتها في مواجهة الجبهة السورية. واندفع الجيش المصري الى المواقع الامامية في جبهة سيناء.

وكان العرب، وفي طليعتهم الرئيس عبد الناصر، مقتنعين كل الاقتناع ان الاتحاد السوفياتي يساعدهم على اسرائيل، ويشد ازرهم اذا وقعت الواقعة.

مستعدون للحرب

قال عبد الناصر في احد تصريحاته : «ان الاتحاد السوفياتي هو الذي نبهنا الى خطورة التحرك الاسرائيلي. اصدقاؤنا الروس وصلتهم معلومات موثوقة ان اسرائيل تريد ان تقوم بحملة عسكرية على سورية لاسقاط النظام القائم. ونحن طبعا ملزمون بالدفاع عن سورية تنفيذا لاتفاقية الدفاع المشترك وقياما بواجبنا الوطني.»

وبعد انسحاب القوات الدولية احتلت القوات المسلحة المصرية شرم الشيخ. وصرح عبد الناصر على اثر ذلك بقوله : «معنى هذا تأكيد حقوقنا وتأكيد سيادتنا على خليج العقبة. خليج العقبة يمثل المياه الاقليمية المصرية. ولا يمكن بحال من الاحوال ان نسمح للعلم الاسرائيلي ان يمر في خليج العقبة اليهود يهددون بالحرب فنقول لهم : اهلا وسهلا. نحن مستعدون للحرب. قواتنا المسلحة وشعبنا وكلنا مستعدون للحرب.»

في ٣٠ من ايار ١٩٦٧ فوجئت القاهرة بوصول الملك حسين اليها، وكانت بينه وبين عبد الناصر شبه قطيعة. وتعانق الملك والرئيس وعقدا معاهدة للدفاع المشترك بين القاهرة وعمان ضد العدو المشترك اسرائيل واتفقا على قيام قيادة مشتركة يتولاها ضابط مصري كبير.

بطولة عربية في قلب القدس

في صباح الخامس من حزيران هاجم الطيران الاسرائيلي مطارات مصر بامواج متتالية من الطائرات الحربية فدمر مطارات مصر كلها وحطم طائراتها. والتحمت قواتها البرية بالقوات المصرية في غزة وسيناء فهزمتها ولاحقتها عبر الصحراء وهي بدون غطاء جوي فانزلت بها هزيمة فادحة.

وقاتلت القوات الاردنية قتالا مريرا في قلب القدس حتى احتلت جبل المكبر، ولكنها اضطرت الى اخلائه بعد يوم واحد لان القاهرة اخفت عن العالم العربي الهزيمة التي لحقت بجيشها البري وتحطيم اسطولها الجوي.

وظلت قوات الملك حسين مشتبكة مع العدو طوال الايام الخمسة الاولى الى أن اضطرت إلى اخلاء الضفة الغربية كلها بعد ان منيت بخسائر فادحة. وقد قاتل الملك حسين بنفسه كأي جندي من جنوده.

واما الجيش السوري فوقف على حدود القنيطرة ولم يتدخل الطيران في المعركة الا في اليوم الرابع. واحتل الجيش الاسرائيلي مرتفعات الجولان. ثم اعلنت دمشق ان القنيطرة قد سقطت بينما كان القتال لا يزال دائرا في شوارعها.

واما القوات العراقية التي اوفدتها بغداد فوصلت الى المفرق من دون غطاء جوي فقصفها الطيران الاسرائيلي وجمدها في مكانها.

اسرائيل ترفض وقف الحرب

في اليوم السادس اصدر مجلس الامن قرارا بوجوب وقف اطلاق

النار فاعلنت مصر والاردن انصياعهما للقرار. ورفضته اسرائيل...

ولكن الحرب كانت قد انتهت فعلا وانجلت عن اكبر هزيمة عرفها العرب في تاريخهم.

وفي يوم الجمعة ٩ من حزيران خطب جمال عبد الناصر بصوت متهدج من اذاعة القاهرة واعلن مسؤوليته عن الهزيمة.

استقالة الرئيس عبد الناصر

ومما جاء في خطاب عبد الناصر قوله والدموع تخنق صوته :

«في صباح الخامس من يونيو حزيران جاءت ضربة العدو باكثر مما توقعناه. ان العدو جاء من الغرب وكان من المتوقع ان يجيء من الشرق.

... واقول لكم بصدق انني على استعداد لتحمل المسؤولية كلها...

لقد قررت ان اتنحى تماما ونهائيا عن اي منصب رسمي واي دور سياسي وان اعود الى صفوف الجماهير اؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر... وقد كلفت زميلي وصديقي واخي زكريا محيي الدين بان يتولى منصب رئيس الجمهورية...»

وختم خطابه قائلا بحزن عميق : «ان قلبي معكم... واريد ان تكون قلوبكم كلها معي.»

على اثر هذا الخطاب. وعلى رغم الهزيمة، قامت في القاهرة والاسكندرية وفي بيروت ومدن عربية اخرى تظاهرات مشت فيها ملايين الناس هاتفة : ناصر... ناصر...

ونقلت صحف لبنان ان تظاهرات مماثلة، وان تكن اقل عددا وحماسة، جرت في بعض البلدان العربية الاخرى.

واستجاب عبد الناصر الى صياح الجماهير، فعاد عن قراره بالانسحاب.

انتخابات ١٩٦٨
المساعي لتجديد رئاسة شهاب

ابتدأت سنة ١٩٦٨ وحديث الانتخابات النيابية على كل شفة ولسان. وكان في نفسي ما فيها من الحنان الى النيابة. وكنت قد اتفقت مسبقا مع الرئيس عادل عسيران ان نخوض المعركة معا، وابتدأنا اعداد العدة في هذا السبيل.

وكان العقيد غابي لحود رئيس المكتب الثاني يؤكد لي ان السلطة هذه المرة، لا تعارض ترشيحي بل بالعكس تنظر اليه بكثير من العطف.

ولكن لم يمض وقت طويل حتى تبين لي ان هذا العطف لا يتناول رفيقي في اللائحة، وان مخطط المكتب الثاني كان يرمي الى العمل لاقصاء عادل عسيران المعروف بعدائه للجنرال شهاب.

وفي احد الايام زارني احد ضباط المكتب الثاني في الجنوب وسألني عن هذا الموضوع. فلم اترك له مجالا للاخذ والعطاء، بل اوضحت له ان صداقتي للرئيس شهاب وصلتي بالمكتب الثاني يجب ان لا تفسرا باني صرت واحدا من رجال المكتب الثاني، التابعين له، اولئك الذين يتلقون منه الاوامر فيصدعون بها وينفذونها من دون مناقشة او سؤال.

وافهمته ان الامور بيننا يجب ان تنطلق من هذا المبدأ، وتبنى على هذه القاعدة في اطار من الاحترام المتبادل لا ارضى عنه بديلا.

كنت ادرس خطة المعركة الانتخابية مع صديقي الرئيس عادل عسيران. وكان كلانا يعرف ان الشهابيين يبادلون عادل عسيران الحذر والتحفظ، كما كان موقفهم بالنسبة الي قبل ان اتفاهم والجنرال شهاب. لقد كانوا حريصين على اختيار المرشحين الذين يثقون بهم، وبانصياعهم لرغباتهم اذا آن الاوان، وهذه الرغبات تنحصر كلها في تجديد الرئاسة للجنرال شهاب عام ١٩٧٠.

وذات يوم عاد غابي لحود نفسه يسألني عن رفيقي في اللائحة، والح هذه المرة في السؤال.

وقبل ان اجيبه بادرني بقوله : «هل لديك مانع من التعاون مع المرشح عبد الكريم الزين ؟

قلت : «يستحيل علي ذلك لانني متفق مع عادل عسيران. ولن انكث بعهدي ولو ادى ذلك الى سقوطي في الانتخاب.»

واضفت : «عليكم ان تعتبروني صديقا لكم، حريصا على هذه الصداقة، امينا لها. ولكنني لا ارضى بان تعتبروني صنيعة من صنائعكم».

كنت اعلم ان ردي كان عنيفا. لكنني اردت منه حسم الامر في الحال حتى لا يبق في ذهن رئيس المكتب الثاني شك في نوع الصداقة التي تربطني بسيده.

وتناقشنا. وطال بيننا الجدال. وانتهى الامر بان طلب مني غابي لحود ان اجمعه بالرئيس عادل عسيران واخلق بينهما جوا مناسبا للتحدث والحوار، فلعل ذلك يؤدي الى تفاهم وتعاون في الانتخابات.

وكان صعبا علي ان ارفض هذا الطلب. واصعب منه ان اجد مناسبة صالحة للقاء يتم بين الاثنين. فقد كنت حريصا على صداقتي للرئيس عسيران، والمحافظة على عهد التعاون بيني وبينه، حرصي على ان لا يبلغ حذره من الشهابيين، وحذرهم منه حد القطيعة والبغضاء. فيشنوا عليه حربا لا هوادة فيها، واكون انا احد ضحاياها.

ذهبت الى عادل عسيران واستأنفنا البحث في موضوع الانتخابات. وفجأة تكلمت عن المكتب الثاني، وعما أعرفه ويعرفه الجميع من تصميم الضباط على التدخل في معركة الانتخاب كما فعلوا سنة ١٩٦٤، مما جعلنا نخسر تلك المعركة. واضفت ان مصلحتنا تقضي بأن نأمن هذه المرة شر المكتب الثاني، ونتلافى خطر عداوة الضباط لنا، ومحاربتهم ايانا.

كنت اعرف عادل عسيران معرفة جيدة، وأعرف صلابة خلقه. لكنني لم أكن انتظر ان اسمع منه ما سمعت. قال انه لا يتعاون معهم، ولا يريد ان يأتمر بأمر أحد. وانه على استعداد لخوض المعركة ضدهم اذا لزم الامر.

وبعد جدل طويل استطعت اقناعه بأني لم آت لأطلب منه ان يتعاون مع المكتب الثاني أو أن يستزلم للشهابيين. بل كل ما في الامر ان نتقي الشر قبل وقوعه، وان لا نورط انفسنا بما وقعنا فيه في الانتخابات السابقة.

واضفت: «لذلك رايت ان ادعو غابي لحود الى الغداء في منزلي. ورايتها مناسبة لأن أدعوك انت ايضا. ولا يعني وجودك ووجودي الى مائدة واحدة مع غابي لحود اننا ارتبطنا بأي موقف، او اننا اخذنا على انفسنا اي عهد»

وبعد تفكير طويل قال عادل بك: «اذا كان الامر كذلك فلا مانع عندي».

ومنذ ذلك الحين تبدل جو العلاقات بين الرئيس عسيران والمكتب الثاني.

وجرت انتخابات ١٩٦٨ ففاز كلانا، عادل عسيران وانا.

استقالة شارل حلو

خيب شارل حلو أمل فؤاد شهاب بأن يكون عهده امتدادا للعهد الشهابي.

وشارل حلو رجل لبق، مثقف، وذكي. لكنه مفرط في الوعود، وفيه ميل فطري الى ارضاء سامعه أو جليسه. وهو لا يؤمن بالقول المأثور «اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب». بل يقلب الآية تماما.

وحصل ما لم يكن بد من حصوله، فاذا عهد شارل حلو لا يعرف له هوية.

والرجل نفسه كان حائرا بين القوى الكثيرة التي تتجاذبه، وفي طليعتها قوة المكتب الثاني التي ظلت مسيطرة عليه ولم يستطع أن يتحرر منها. وبدت هذه الازدواجية في الحكم اكبر ظاهرة في عهده.

لقد أغضب عهد شارل حلو كثيرا من الناس، وفي طليعتهم فؤاد شهاب. واذا ذكر التاريخ عهده فانه سيذكره مع علامة استفهام كبرى لأنه، بين جميع العهود اللبنانية، عاش حائرا مترددا بين قوى كثيرة، واناس عديدين، متأرجحا بين جميع الفئات والاحزاب، قريبها وبعيدها.

خطر على بال شارل حلو ان يتخلص من هذا الموقف الحائر، ومن

تلك الازدواجية في الحكم، فلم ير مخرجا سوى اللجوء الى الاستقالة، لعل السياسيين والنواب يهبون كما هبوا في ٢٠ من تموز يوم استقال فؤاد شهاب ويتوسلون اليه ان يبقى في سدة الرئاسة.

كان الوقت ليلا عندما ترامت الى بعض النواب أنباء استقالته، وانتشر الخبر بين السياسيين، فهب عدد وافر منهم وذهبوا اليه في مقر الرئاسة في سن الفيل، وكنت انا في عدادهم. وبعد الرجاء والتأكيد والأخذ والعطاء انثنى عن الاستقالة وانتهى الأمر.

وبقي المكتب الثاني الحاكم الفعلي

ولكن ردة الفعل لم تحصل بالضخامة التي تمناها صاحب العهد. ولم يشعر بها الشعب اللبناني كما حدث يوم استقالة فؤاد شهاب.

والسياسيون الذين اعتقدوا ان الاستقالة كانت جدية والذين هرعوا ليلا الى مركز الرئاسة، انما فعلوا ذلك لأنهم فضلوا ان يبقى شارل حلو على رأس الدولة للمزايا العلمية التي يتحلى بها، وان يحولوا دون توريط البلاد في ازمة قد تنجلي عن وصول رجل الى سدة الرئاسة كالجنرال اميل بستاني قائد الجيش يومذاك الذي أخذ يسعى اليها بجد واجتهاد.

ومهما يكن من أمر تلك الاستقالة والرجوع عنها، فقد تحسن وضع شارل حلو بعض الشيء. لكن الازدواجية ظلت هي الطابع الغالب على عهده، وبقي المكتب الثاني هو الحاكم الفعلي.

تعييني وزيرا للخارجية

في بداية العام ١٩٦٩ عينت وزيرا للخارجية.

كنت في تلك الليلة غارقا في النوم عندما رن جرس التلفون في منزلي، والمتكلم الرئيس رشيد كرامي الذي طلب الي ان احضر الى القصر الجمهوري في سن الفيل، والوقت منتصف الليل.

وعندما دخلت القصر وجدت فيه عددا من زملائي النواب المرشحين لدخول الوزارة. والبحث يدور حول توزيع الحقائب. دعيت الى الدخول على رئيس الجمهورية فوجدت عنده رشيد كرامي. فقال لي الرئيس: «لقد رأينا ان نسند اليك وزارة الخارجية لما نعرفه عنك من اطلاع واسع على سياسة لبنان الخارجية والسياسة الدولية. وقد خبرت سياسة لبنان وعلاقاته بالخارج عندما كنت سفيرا في القاهرة ومندوبا للبنان في عدد من المؤتمرات الدولية».

فشكرته على الثقة التي أولاني اياها والاطراء الذي أعرب عنه، وعاهدته على أن أبذل جهدي في خدمة لبنان.

وضع ينذر بالانفجار

الشرق الاوسط في غليان والوضع الداخلي في لبنان ينذر بالانفجار في اية لحظة.

هيبة السلطة في الحضيض. الاعصاب متوترة. والناس قلقون لا يعرفون أي مصير يحمله الغد لهم وللبنان. فالحدود الجنوبية معرضة من

الداخل ومن الخارج، والمنظمات الفدائية الفلسطينية ناشطة جدا ضمن الدولة اللبنانية.

الفدائيون يقيمون الحواجز حيثما ارادوا، حتى في قلب العاصمة بيروت، ويوقفون السيارات ويفتشونها، ويأمرون ركابها بابراز تذاكر هويتهم.

واللبنانيون يشعرون ان في ذلك خروجا على السيادة. والسلطة مغمضة عينيها عن كل ما يجري، مسلمة امرها الى الله، ساكتة حائرة لا تدري ما تفعل وما تقول.

اقتراح فدائي خطير وخطر

في هذا الجو من التوتر دعي مجلس جامعة الدول العربية الى الانعقاد في القاهرة على مستوى وزراء الخارجية. وكنت انا بالطبع رئيس وفد لبنان. ومثل السيد خالد الحسن المنظمات الفلسطينية.

وفي اول جلسة من جلسات الجامعة العربية وقف السيد الحسن وطالب بأن تكون اراضي الدول العربية المحيطة باسرائيل مجالا طبيعيا مفتوحا لنشاط العمل الفدائي، وحرية هذا العمل مطلقة لا يحدها ولا يقيدها شيء، وان لا يكون لهذه الدول حق التدخل في شؤون الفدائيين وتحركهم في داخل اراضيها وانطلاقهم منها الى حيث يشاؤون.

وطالب السيد الحسن في ختام بيانه ان يتخذ مجلس الجامعة قرارا بهذا المعنى.

هالني الطلب، فضلا عن انني رأيت فيه تحديا لسيادة البلدان العربية المتاخمة لاسرائيل، فطلبت الكلام. وقفت واثنيت الثناء الحسن على العمل الفدائي. وأعربت عن رغبة بلادي في ان تسهم في توفير جميع اسباب نجاحه، وان تساعد المنظمات الفدائية، بكل طاقتها على بلوغ هدفها المقدس، وهو تحرير فلسطين.

اعترضت على شكل الاقتراح

لكنني اعترضت على الشكل الذي صيغ به الاقتراح لأن فيه مساسا بسيادة بلادي وسلطانها على أراضيها. وطلبت ان تكون للعمل الفدائي حرية منسجمة مع سيادة البلاد التي يعمل فيها، شرط موافقة الدول المعنية بالامر على ما تطلبه المنظمات.

ولما انتهيت من القاء كلمتي وقف ممثل المنظمات الفدائية وقال انه يرفض التحفظ الذي أبديته ويطلب الموافقة على اقتراحه كما ورد.

طلبت الكلام ثانية وكررت ما سبق لي وقلته عن تقديرنا العظيم للعمل الفدائي. وأضفت: اني أؤمن ايمانا عميقا صادقا بأنه عندما يعاهد الانسان نفسه على الفداء من اجل قضية مقدسة عادلة كقضية استرجاع بلده الذي اغتصبه العدو، وأرضه التي دنسها بأقدامه، وبيته الذي طرده منه، فقد بلغ ذروة التضحية وقمة نكران الذات.

واللبنانيون، وانا واحد منهم، آمنوا بهذه الرسالة واحترموها، وبذلوا في سبيل خدمتها كل طاقتهم.

ولكني اريد ان اوضح ايضاً ما اؤمن به ايمانا ينبع كذلك من حرصي على مصلحة العمل الفدائي نفسه.

فلبنان قد فتح ابوابه للفدائيين الذين نذروا ارواحهم لتحرير فلسطين، واستطابوا الموت في سبيل هذا الهدف السامي. ولم يبخل لبنان عليهم بشيء، وهو البلد الصغير ذو الموارد الطبيعية الضئيلة ووسائل الدفاع المحدودة بالنسبة الى شقيقاته العربيات. ولكنه، وهو يقوم بهذا العمل الذي يعتبره واجبا، ولا يطلب جزاء ولا شكورا، حريص على ان لا يصير هدفا لعدوان اسرائيل عليه كل يوم، بحجة اقامة الفدائيين فيه، وانطلاقهم منه، وتحركهم في داخله تحرك من ينسى ان لبنان دولة ذات سيادة وسلطان وكيان تحرص عليها حرصها على الحياة.

لهذه الاسباب يستحيل علي ان ارضى بالاقتراح الذي ورد على لسان الاخ خالد كما هو. وبوصفي وزيرا لخارجية لبنان ورئيسا لوفده اطلب تسجيل تحفظي على الاقتراح.

عبد الخالق حسونه وميثاق الجامعة

عندئذ توجه الي رئيس الجامعة السيد عبد الخالق حسونه بقوله: ولكن يا معالي الوزير، لقد مضى خمس وعشرون سنة من تأسيس الجامعة العربية ولم يصدر أي تحفظ من أحد الاعضاء على مقررات الجامعة.

فأجبته: ولكن يا سيادة الرئيس، كان لي الشرف ان أمثل لبنان في تحضير ميثاق الجامعة. وانا أعلم أن مقرراتها لا تسري الا على من يقبلها من الاعضاء.

وقبل أن أنهي كلامي قاطعني السيد مصطفى السيد، وزير خارجية سورية وخاطبني بلهجة لا تنطوي على ذرة من اللياقة وقال: يا أخ شو انت بدك تعمل وصي على العمل الفدائي؟

فالتفت اليه، وخاطبته باللهجة عينها التي خاطبني بها وقلت: «كلا يا اخ. ما بدي اعمل وصي على أحد. لكنني ارفض وصاية أي كان على بلادي».

ثم التفت الى السيد عبد الخالق حسونه امين الجامعة العام وخاطبته بقولي ارجو يا سيادة الامين العام تسجيل اعتراضي على الاقتراح، واعتبر تحفظي هذا انسجاما مع ميثاق الجامعة، ولا يُلزم لبنان.

وهكذا كان. وصدق الاقتراح بالاكثرية. وسجلت معارضة لبنان وانتهت الجلسة.

«عملت مليح ومعك حق»

خرجنا من الاجتماع. وبينما نحن في طريقنا الى سياراتنا تحلق حولي عدد من وزراء خارجية الدول العربية وقالوا لي، بأصوات خافتة: «عملت مليح. ومعك حق. لكننا نحن لا نقدر ان نصرح بما صرحت به انت».

في تلك الجلسة من جلسات الجامعة أردت ان أحدد على شكل واضح صريح لا يقبل الابهام طبيعة العلاقات بين لبنان والمنظمات الفدائية. أردت أن أوضح كيف يجب أن تكون هذه العلاقات. لبنان يقدم للمنظمات الفدائية كل مساعدة يستطيع أن يقدمها لهذا العمل المقدس، ولكن في حدود امكاناته، ومع المحافظة التامة على سيادته وعلى كل شبر من أراضيه.

عدت الى بيروت واجتمعت فورا بفخامة الرئيس حلو ونقلت اليه ما جرى في مجلس الجامعة. فأثنى على موقفي وطلب الي أن انقل حديثي هذا لدولة رئيس الوزراء.

لم يتحرك جفن في عينيه

ذهبت لمقابلة الرئيس كرامي وعرضت عليه ما جرى بالتفصيل، وأوضحت له تحفظ لبنان تجاه قرار الجامعة. فلم يتحرك جفن في عينيه وانتقل الى موضوع آخر. واظن انه كان عالما بالامر مسبقا ولم يكن مرتاحا اليه.

في أثناء هذه الأحداث كانت الدعاية السيئة ضد لبنان تغمر البلاد العربية كلها، وتصور هذا البلد المضياف بصورة تشوهه، وتقول عنه انه يضطهد الثورة الفلسطينية ويحول دون انطلاقها.

كانت هذه الدعاية تجنيا على لبنان الذي قدم الى المنظمات من المساعدات والتسهيلات ما لم يقدمه اليها أي بلد عربي آخر. وحسبه انه البلد الوحيد الذي يضم داخل اراضيه مجموعة ضخمة من الفدائيين، بالاضافة الى حوالى ثلاثمائة الف من اخواننا الفلسطينيين.

الانفتاح على الدول العربية

ما انفككت، وانا وزير للخارجية، عن مطالبة الرئيس بوجوب اعتماد سياسة الانفتاح على الدول العربية من دون استثناء، وعدم تفضيل دولة على دولة، والاعلان بجميع الوسائل عن واقع الوضع اللبناني، ومدى العون الذي يبذله للعمل الفدائي، حتى تتفهم البلدان الشقيقة حقيقة ما يفعله لبنان، وما يتحمله من عدوان اسرائيل عليه متذرعة بوجود الفدائيين فيه وحرية العمل التي يمارسونها داخل اراضيه.

واقترحت على الرئيس اكثر من مرة ان نكلف سفراء لبنان في الدول العربية شرح ذلك كله للمسؤولين فيها وحثهم على وقف الحملات الظالمة على لبنان.

لقد اعتدت اسرائيل على لبنان عشرات المرات، والحقت به من الاضرار والتهديم والخسائر في الارواح والممتلكات ما يزيد الف مرة على ما الحقه باسرائيل العمل الفدائي المنطلق من لبنان.

ولا ازال ارى ان من واجب العمل الفدائي نفسه ان يكون بينه وبين النظام اللبناني، وسكان لبنان، والمسؤولين عن سلامته وسيادته تفاهم تام، ورغبة صادقة مخلصة في المحافظة على الامن والطمأنينة في البلد الذي نزلوه. وان في ذلك مصلحة العمل الفدائي قبل مصلحة لبنان.

ورحب الرئيس شارل حلو بافكاري هذه وطلب مني ان ابحثها واناقشها مع رئيس الوزراء. فلما عرضتها على الرئيس كرامي اجابني انه سيتشاور بشأنها مع السيد حسن صبرى الخولي الممثل الشخصي للرئيس جمال عبد الناصر حين يأتي من القاهرة الى بيروت، وزياراته لبيروت متعددة، وان الخولي يتولى بدوره ابلاغها الى الدول العربية.

وفي نهاية الامر صرف النظر عن هذا الاقتراح.

لاشك ان الرئيس كرامي يعتبر من رجالات لبنان الاكثر اخلاصا ومن اصحاب الحكم الصادقين. ولا ازال اكن له كل احترام وتقدير. ولكن كنت اشعر عنده بعض الضعف تجاه سياسة الرئيس عبد الناصر العربية. بينما كنت اتطلع انا الى تلك السياسة من خلال وضع لبنان الداخلي والخارجي. وهو وضع يختلف اختلافا تاما عن سياسة عدد كبير من الدول العربية.

ذات يوم تلقيت دعوة شخصية من صديقي عبد المنعم الرفاعي وزير خارجية الاردن لزيارة عمان. فحملت الدعوة وعرضتها على الرئيس حلو. وعلى عادته قال رئيس الجمهورية: شوف رشيد افندي.

فذهبت الى رشيد افندي فلم يوافق بادئ ذي بدء على تلبية الدعوة. قلت انها دعوة شخصية من وزير في الحكومة الاردنية هو صديقي.

قال، بعد تفكير، انا لا امانع. شرط ان تكون الزيارة شخصية لا تحمل اي طابع رسمي.

كان رشيد كرامي لا يقدم على عمل الا اذا كان واثقا بان القاهرة راضية عنه. وسياسة القاهرة، وسيد القاهرة هي الخط الذي كان يسير عليه، ولا يحيد عنه مع انه رئيس وزراء لبنان.

وكان الرئيس كرامي يعرف كل المعرفة انني حريص على ان تكون سياسة لبنان الخارجية مستقلة استقلالا تاما عن سياسة سائر بلدان الشرق العربي، لان للبنان وضعا خاصا يفرض عليه الانفتاح التام على دول العالم كلها في الشرق والغرب.

قمت بزيارة صديقي عبد المنعم الرفاعي في عمان. وعلى رغم طابع الزيارة الشخصي فقد استقبلت استقبالا رسميا. وحللت ضيفا على الحكومة الاردنية. وتشرفت بمقابلة جلالة الملك حسين ودعوته باسم رئيس الجمهورية اللبنانية لزيارة لبنان.

ولبى جلالته الدعوة وزار لبنان بعد اسابيع ونزل ضيفا على الرئيس حلو وجرى له استقبال حافل عند وصوله، وودع بما يليق به من اجلال واكرام.

ذلك لان اللبنانيين في كثرتهم الساحقة يكنون للملك حسين حبا عميقا، واعجابا كبيرا بشجاعته الفائقة الحد.

مشكلة الجنرال بختيار

عندما تسلمت وزارة الخارجية زارني سفراء الدول المعتمدون في لبنان، وكان الحديث بيني وبينهم يقتصر على المجاملات، كالواقع اللبناني، ورغبة هذا البلد في تعزيز صداقاته مع الدول، ولم نكن نتناول موضوعا معينا لان تلك الزيارات ترتدي عادة طابع المجاملة لمناسبة تسلم وزير الخارجية منصبه الجديد.

واختلف الامر حين زارني السيد ظللي سفير ايران. فقد قال لي ان حكومته طالبت بتسليم الجنرال تيمور بختيار الموقوف في لبنان لكي يحاكم في طهران بتهمة اقترافه جرما عاديا لا علاقة له بالسياسة، وان الحكومة اللبنانية السابقة درست الموضوع وابلغته موافقة المراجع

القضائية، وبالتالي موافقة وزير العدل على تسليم بختيار الى حكومة ايران.

وقال السفير انه بناء على طلب لبنان ارسل رئيس وزراء ايران كتابا تعهد فيه بالمحافظة على حياة بختيار، وبمحاكمته محاكمة علنية عادلة، وبان تقتصر هذه المحاكمة على التهمة التي تطلبه ايران من اجلها. وللحكومة اللبنانية ان ترسل اذا شاءت ممثلا عنها يحضر المحاكمة.

وختم السفير حديثه بسؤالي عن الموعد الذي تستطيع حكومته ان تتسلم فيه الجنرال بختيار. وتمنى ان يحدد الموعد في اقرب وقت مستطاع.

استمهلت السفير اسبوعا لكي ادرس الموضوع. وودعني على امل ان احدد له موعدا آخر للبحث فيه.

درست قضية بختيار من جميع نواحيها ووجدت ان كل ما ذكره لي سفير ايران صحيح. فوضعت ملف «بختيار» في حقيبتي وقصدت الى رئيس الجمهورية شارل حلو وقلت له بالحرف الواحد: انا لو كنت وزيرا للخارجية يوم طلبت ايران تسليم بختيار لرفضت الطلب. اما وقد قبلت الحكومة السابقة الطلب وعرضته على القضاء اللبناني ووافق عليه وابلغتم الحكومة الايرانية موافقة وزير العدلية واشترطتم عليها شروطا قبلت بها كلها فلم يبق امامنا مجال لرد الطلب.

قال الرئيس: «سأعرض الامر على مجلس الوزراء»
عرض الامر على مجلس الوزراء فوافق عليه بالاكثرية الساحقة.

طلب ارجاء القرار

عندئذ طلب الرئيس شارل حلو ارجاء القرار النهائي الى الجلسة التالية.

ومن غرائب الامور انه عندما عرضت القضية بعد اسبوع على مجلس الوزراء لم يوافق على قرار التسليم. وسقط المشروع!

اذهلتني هذه المفاجأة، ولم اعرف اي وحي هبط على الوزراء حتى حصل هذا التغيير. وعند ذلك لم اتردد عن مصارحة رئيس الدولة ورئيس الحكومة وزملائي الوزراء بأن الحكومة الايرانية التي اطلعت في الصحف على القرار الاول وأعدت العدة لتسلم الجنرال بختيار، ستفاجأ مفاجأة سيئة بالقرار الثاني المناقض للقرار الاول، وأخشى أن تقطع ايران علاقاتها السياسية مع لبنان.

لكن كلامي لم يقدم ولم يؤخر شيئا.
ووقع ما كنت أخشاه. وقطعت ايران علاقاتها بلبنان.

غضب الشاه

بعد ايام توفي الرئيس الاميركي ايزنهاور. واقيم له مأتم وطني تمثل فيه اكثر رؤساء دول العالم. وطلب الي الرئيس حلو ان امثله فطرت الى واشنطون.

وكان شاه ايران هناك كما كان الجنرال ديغول.

وطفت على رؤساء الدول الذين تربطنا بهم صداقة او صلة اصافحهم واتبادل معهم المجاملات. فاما الجنرال ديغول فسلم علي بحرارة وردد انه يحب لبنان ويتابع باهتمام كل ما يجري فيه، ويقلقه عدوان اسرائيل المتكرر عليه. وقال لي ديغول انه مستعد دائما لمساعدة لبنان سياسيا وديبلوماسيا في جميع الاحوال.

ووصلت الى حيث وقف شاه ايران. فقدمني اليه وزير خارجيته. فاستوقفني الشاه هنيهة وسألني بلهجة جافة كيف افسر كل ما حدث في لبنان بشأن قضية بختيار؟ فحاولت ان ابرر الموقف بقولي ان التقاليد التي يتبعها لبنان لا تسمح له بتسليم اللاجئين السياسيين. ولكن الشاه بدا متاثرا، منفعلا اشد الانفعال. وقال لي، بنبرة غضب: «ان بلاده ستقطع علاقاتها بلبنان. وان التدابير تتخذ الان لاعلان ذلك فور عودته الى بلاده.»

فرجوت منه ان يعيد النظر في قراره وقلت ان لبنان حريص على...،
لكن الشاه لم يدعني اكمل عبارتي بل قاطعني بقوله: «لقد طلبتم مني ان اعطيكم كل الضمانات للمحافظة على حياة بختيار ففعلت رغم ان بختيار لا يهمني. ولكن لبنان سخر منا. فبعد ان جرنا على هذا الشكل الزري انتهى الى ابلاغنا انه لن يسلم بختيار. لماذا لم يقل لبنان ذلك بصراحة منذ البداية؟».

احرجني كلام الشاه فلم احر جوابا. وانصرفت عنه بتأدب الى سواه من رؤساء الدول.

اشاعات تناولت شخصيات كبيرة

والواقع ان قضية بختيار اساءت الى لبنان وسمعة الحكم فيه

وهيبة السلطة، لما رافقها من مواقف متناقضة يوما بعد يوم. وما غمرها من إشاعات تناولت شخصيات كبيرة...

فلما عدت الى لبنان ورويت للرئيس حلو حديث الشاه وسألته: «لماذا دخل لبنان الرسمي هذه الدوامة؟».

اجابني: «غلطة. وسندفع ثمنها.»

ودفع لبنان ثمنها فعلا. اذ ان ايران لم تلبث ان قطعت علاقاتها السياسية، والاقتصادية، والسياحية.

ونحن في لبنان نجد دائما «مجهولا» نحمله المسؤولية حين نقترف الخطأ ولا نسير على الخط المستقيم.

ويا ليتنا نتعلم!

حسين وعبد الناصر متفقان على الحل السلمي

اغتنمت فرصة وجودي في واشنطون فزرت جلالة الملك حسين. ودار الحديث حول الموقف في الشرق الاوسط.

وسألت الملك هل يعتقد ان الحل السلمي ممكن؟ فقال: «كل شيء ممكن. لقد اعلنت منذ قليل ان الاردن يوافق على تنفيذ قرار مجلس الامن الصادر في ٢٢ من تشرين الثاني ١٩٦٧.»

واضاف الملك حسين: «صرحت بذلك بصورة رسمية منذ ساعة

وانا متفق على هذا مع سيادة الرئيس جمال عبد الناصر. لكن عبد الناصر قد يؤخر اعلان موافقته بضعة ايام.»

ولما سألني الصحفيون في بيروت لدى نزولي من الطائرة عن رأيي في موافقة الاردن على قرار مجلس الامن قلت ان هذا القرار لا يعني لبنان لان وضع لبنان الدولي بالنسبة الى اسرائيل هو الهدنة. واضفت: «ومع ذلك اذا كانت الدول المعنية تقبل بقرار مجلس الامن فانه لا يسعنا الا ان نرحب به نحن ايضا.»

ولقد احدث تصريحي ضجة في بعض الصحف، التي انكرت علي ترحيبي بقرار صادر عن مجلس الامن، رغم انه يقضي باعادة جميع الاراضي التي احتلتها اسرائيل في ٧ من حزيران ١٩٦٧ الى اصحابها.

عبد الناصر يسكت الجميع

وفي اليوم التالي انعقد مجلس النواب. فنهض السيد عبد الله اليافي رئيس الحكومة السابق واستنكر «ما صرح به وزير الخارجية». وكذلك فعل الرئيسان كميل شمعون وصائب سلام.

فلما صدر تصريح الرئيس عبد الناصر، بعد اسبوعين، بقبول الجمهورية العربية المتحدة لقرار مجلس الامن، سكت الجميع وباركوا ما قال.

وهذا يؤكد اننا لا نزال ننتظر كلمة السر والوحي من الخارج. ونأبى على انفسنا ان ندلي برأينا كأسياد يعرفون ما يفعلون.

لقد سفهوا رأيي. وانكروا علي ما قلت. فلما اعطتهم القاهرة الضوء الاخضر، سارت القافلة على الطريق المرسوم!

سياستنا «الفدائية» أيضا

وحدث ان ذهبت الى نيويورك لاحضر دورة اجتماع الامم المتحدة للعام ١٩٦٩ — ١٩٧٠ رئيسا للوفد اللبناني.

والتقيت في نيويورك بوزير خارجية المانيا الذي اعرب عن رغبته في زيارتي. فرحبت به وتواعدنا على ان نجتمع في اليوم التالي.

وفي الموعد المضروب جاءني الى فندق والدورف استوريا حيث اقيم. فرحبت به أجمل ترحيب، وجرى البحث في الاسباب التي أدت الى قطع العلاقات الديبلوماسية بين بلدينا. فبادرني بالسؤال: «ألا ترى أنه قد حان الوقت لاعادة هذه العلاقات، ولاسيما أن هنالك ست دول عربية لا تزال صلاتها معنا على احسن وجه؟»

قلت للوزير الالماني: «قبل ان اجيبك عن سؤالك نريد ان نعرف هل لا تزال حكومتك تقدم المساعدات المالية والعسكرية لاسرائيل؟»

قال: «ليس هنالك من مساعدات عسكرية. بل كل ما نقدمه لاسرائيل هو بعض المساعدات المالية التي نقدم مثلها لعدد من الدول النامية. ولا مانع عندي من ان اكشف لك عن المبلغ المرصد في موازنة المانيا لمساعدة الدول النامية. ان هذا المبلغ هو ٥٠٠ مليون مارك يذهب منه مائة وعشرون مليونا لاسرائيل وستون مليونا للاردن وخمسة عشر مليونا لليمن.

فسألته: «وهل تعتبرون اسرائيل دولة نامية؟»
قال: «نعم. وكذلك نعتبر لبنان. ولو كانت علاقاتنا الديبلوماسية بلبنان قائمة لناله مساعدات ضخمة.»

واضاف: «ان بون مستعدة لتقديم المساعدات الاقتصادية والفنية، والزراعية، الى بلدكم بالاضافة الى رغبة الحكومة الالمانية في توثيق علاقات الصداقة بلبنان بنوع خاص.»

فاجبته اني ساراجع حكومتي في هذا الموضوع.
وانتهى الحديث.

ولما عدت الى بيروت عرضت الامر على رئيس الجمهورية فأحالني كالعادة على رئيس الحكومة السيد رشيد كرامي.

ومن دون تردد قال الرئيس كرامي: «اذا كانت غايتك من رواية الحديث الذي دار بينك وبين الوزير الالماني اعادة العلاقات بين لبنان والمانيا فهذه مسألة لا نستطيع التفكير فيها قبل ان تتخذ القاهرة خطوة ايجابية بشأنها.»

القاهرة! دائما وابدا القاهرة في ذهن الرئيس كرامي وتحت لسانه!

قررت الاستقالة حفاظا على تبعاتي

عندما كانت تقع حوادث مع الفدائيين في لبنان، كانت تعقبها محادثات، ومشاورات بين الجانب اللبناني والجانب الفلسطيني لتنقية الاجواء ولتدارك تكرار الحوادث، وكنت افاجأ من وقت الى آخر بوجود

السيد حسن صبري الخولي في بيروت، وهو الممثل الشخصي للرئيس عبد الناصر.

يأتي السيد الخولي الى العاصمة اللبنانية، ويعقد الاجتماعات برئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، ويفاوض، ويستشار ويشير، وانا، وزير الخارجية اللبنانية لا علم لي بمهمته، ولا اجتمع به الا في المناسبات الرسمية.

عز علي الامر. ورأيت في هذا التصرف تجاهلا للمهمات السياسية الملقاة على عاتقي كوزير خارجية. وقررت الاستقالة.

طلبت مقابلة الرئيس حلو وبادرته بقولي: لقد لاحظت يا فخامة الرئيس ان هنالك محادثات سياسية خطيرة تجري بين مصر ولبنان، وانا بعيد عنها. وهذا ما لا ارضاه، ولا يتفق مع المسؤوليات التي اتحملها. لذلك قررت تقديم استقالتي من وزارة الخارجية.

فأجابني بشيء من الارتباك: اذا كنت تشير الى محادثاتنا مع ممثل الرئيس عبد الناصر فأحب أن أوضح لك ان السيد حسن صبري الخولي يمر ببيروت من حين الى آخر، ويشترك في الاجتماعات التي تعقد مع ممثلي المقاومة الفلسطينية لذلك لا ارى وجوبا لاستقالتك، وانت تعلم انك حائز كامل ثقتي وثقة دولة رئيس الوزارة.

كان يقول لي شارل حلو هذا اما انا فكنت اعلم ان ممثل الرئيس عبد الناصر كان يحضر الى بيروت من وقت الى آخر، بناء على طلب من رئيس الدولة والبحث معه في تنسيق سياسة لبنان مع الدول العربية ومع المقاومة الفلسطينية.

ويبدو ان الرئيس كرامي لم يجد غضاضة في ابعاد وزير خارجية لبنان عن مثل تلك الاجتماعات او استشارته، او حتى اطلاعه من باب العلم بالشيء.

تدخل الياس سركيس

تركت قصر رئاسة الجمهورية، وفي اليوم الثاني حضر الى مكتبي في وزارة الخارجية الاستاذ الياس سركيس امين عام رئاسة الجمهورية وبادرني بقوله: ان فخامة الرئيس يطلب اليك عدم التفكير في الاستقالة، وهو يكن لك كل محبة وتقدير. وان ما حصل قضية عارضة غير مقصودة.

فأخبرته بالتفصيل ما حصل بخصوص دعوة السيد حسن صبري الخولي عدة مرات من دون علمي، وتناولت بالمناسبة ما حصل في قضية طلب تسليم بختيار من قبل حكومة ايران، وكيف ان الدولة بعد ان ابلغت سفير ايران ان وزارة العدل افتت بالتسليم، وبعد ان طلبت بعض الضمانات من رئيس حكومة ايران ومن جلالة الشاه ذاته، وبعد ان حصلت على كل هذه التعهدات، تخاذلت عن القيام بها، مما جرنا الى انقطاع العلاقات مع ايران.

فأجابني الاستاذ سركيس: ارجو منك طي الصفحة عن كل ذلك، وان تعدني بعدم تقديم استقالتك لأن ذلك قد يجر صعوبات عديدة تحرج الحكومة، وقد لا ننتهي منها بسهولة. خصوصا ان الحكومة بكاملها صارت على وشك الاستقالة، فلا تستعجل الأمر.

وبالفعل استقالت الحكومة. لكنها بقيت في وضع تسيير الامور

عدة اشهر حتى جاء الوقت واعلن رئيس الجمهورية قبول استقالتها.

كلف فخامة الرئيس رشيد افندي كرامي، اعادة تأليف الحكومة الجديدة. وفي فترة الانتقال من حكومة الى اخرى، اوفد رئيس الحكومة الى القاهرة الجنرال اميل بستاني للعمل على تنسيق العمل الفدائي بين السلطة اللبنانية والمقاومة، والتوقيع على الاتفاقية المعروفة باتفاق القاهرة التي تكرس الحرية المطلقة للفدائيين في لبنان.

ورغم مطالبة فريق كبير من أعضاء مجلس النواب، ومن اقطاب السياسيين، ورغم الحاح الصحافة على نشر هذا الاتفاق فقد اخفاه المسؤولون. ولم يطلع عليه سوى عدد قليل منهم.

ذيول اتفاق القاهرة

وكانت نتيجة «اتفاق القاهرة» ان انطلق الفدائيون من الحدود اللبنانية على اسرائيل. فقابل العدو هذا الانطلاق باعتداءات متواصلة على جنوبي لبنان. مما ادى الى ان كل بيت هدمه الفدائيون في اسرائيل ثأرت له اسرائيل بتهديم عشرات البيوت. وكل اسرائيلي قتلته صواريخ الفدائيين التي اطلقت من الحدود اللبنانية قتل مقابله عشرات اللبنانيين بقنابل العدو!

واريد ان اكرر هنا، وشأني في ذلك شأن السواد الاعظم من اللبنانيين، انني اعتبر العمل الفدائي عملا مقدسا. ولست اقول ذلك تملقا وزلفى. بل عن ايمان صادق وعقيدة راسخة في نفسي.

وانا اعرف ان تاريخ كفاح الشعوب التي غلبت على امرها، فقاومت، وكافحت في سبيل استعادة حقها السليب، وارضها التي

دنستها اقدام العدو، قد اعتمدت سلاح المقاومة في جملة ما اعتمدته من اسلحة.

عندما غزت جحافل هتلر روسيا، واحتلت اوكرانية كلها تشكلت فرق «الانصار». وراحت تقاتل العدو وراء خطوطه في قلب اوكرانية المحتلة. وترهقه ليل نهار، ولا تدعه يلتقط انفاسه.

كان «الانصار» فدائيين لا اسم لهم، ولا هوية، ولا مكان. لانهم كانوا في كل مكان يوجد فيه العدو.

وعندما احتل هتلر فرنسا واطلق ديغول نداءه الشهير، نشأت «المقاومة» الفرنسية في التو واللحظة، وفي قلب فرنسا نفسها.

وليس من قبيل الصدف ان تطلق اللغات الاجنبية على حركات المقاومة والفداء اسم «تحت الارض». لان الاصل في المقاومة ان تعمل في الخفاء، لا في العلانية. وان لا يعرف افرادها، وزعماؤها، ولا تعرف لهم اسماء، ومنازل، وامكنة يجتمعون فيها، حتى لا يجعلوا من انفسهم ومن منظماتهم هدفا يسهل على العدو اصابته ساعة يشاء، او ساعة يستطيع.

وضاعت المسؤوليات بين القاهرة وبيروت

ادركت الحكومة في لبنان الضرر الذي الحقه «اتفاق القاهرة» بالبلد، ولم يلحقه بالعدو، ولا استفاد منه الفدائيون.

وكانت النتيجة ان ضاعت المسؤوليات بين القاهرة وبيروت وساد العلاقات اللبنانية الفدائية جو ريبة وارتباك لم يكن في مصلحة احد. ولم يكن ــ بخاصة ــ في مصلحة الفدائيين.

انتخاب سليمان فرنجية رئيسا للجمهورية

تلك كانت فترة عصيبة مر بها لبنان.

واقترب موعد انتخاب رئيس جديد للجمهورية اللبنانية. فانصرف اللبنانيون الى الاهتمام بمعركة انتخابه. وراحوا يتبعون تطورهـا باهتمام لم يسبق له مثيل.

آخر لبناني، في اخر قرية من قرى لبنان، يعتبر نفسه طرفا في تلك المعركة.

وحصرت المعركة بين الشهابيين، يمثلهم سيد الشهابية الجنرال فؤاد شهاب، وبين خصوم الشهابيين يمثلهم اقطاب المعارضة من الطائفة المارونية: شمعون واده والجميل. ولم يكن واضحا من يكون من هؤلاء الاقطاب المرشح ضد فؤاد شهاب.

قبل ان يبرز اسم سليمان فرنجيه

اما انا فكنت وعدت وعد شرف بأن أقترع للجنرال شهاب بسواء أكان هو المرشح، او كان هنالك مرشح سواه يؤيده الجنرال.

ولم يكن اسم الرئيس سليمان قد برز بعد الى ميدان الترشيح، لأن الاقطاب الموارنة كانوا يتريثون حتى لا يكشفوا اوراقهم فيستفيد منها خصومهم.

وفجأة اعلن فؤاد شهاب عدوله عن ترشيح نفسه، قبل موعد الانتخاب ببضعة أيام.

وبرز اسم الياس سركيس مرشحا بدلا منه.

وعلى أثر ذلك، وقبل موعد الانتخاب بيومين، اعلن ان سليمان فرنجيه هو مرشح المعارضين للنهج الشهابي.

ووجدتني في مركز حرج جدا. ذلك لان صداقة متينة تربطني بالرئيس سليمان فرنجيه. فقد عرفت فيه خلال ثلاثين عاما، واكثر، صلابة في الوطنية قدت من صخور الجبل الاشم، وقوة ارادة ونزاهة، وشجاعة واحتراما. كما عرفت فيه فروسية اصيلة نادرة.

اقترعت لالياس سركيس

ووفيت بعهدي، فاقترعت للسيد الياس سركيس.

وفاز سليمان فرنجيه بالرئاسة في معركة حبس اللبنانيون في لبنان وديار الاغتراب أنفاسهم في انتظار نتيجتها.

فلما أعلن فوزه غمرت لبنان أدناه الى اقصاه موجة فرح وابتهاج لم ير اللبنانيون لها مثيلا، وكنت شخصيا اول السعداء بها.

واندلعت موجة من الحماسة قل نظيرها، لأن اللبنانيين اعتبروا فوز الرئيس فرنجيه فوزا لكل واحد منهم. رئيس رفعته الى سدة الرئاسة اصوات الشعب ممثلا بنوابه، لا السفارات، ولا السرايات، فأرضى انتصاره كبرياء اللبنانيين وعزة نفوسهم لأنه هو رمز الانفة وعزة النفس.

وانسحب الياس سركيس من الميدان الذي هزم فيه، بالهدوء والكرامة والكبر، وهي بعض المناقب التي عرف بها. وكان اول من هنأ الرئيس الفائز. وعرف الرئيس من أي معدن كريم صنع الياس سركيس فاحتفظ به في منصبه الرفيع وأكرمه. واعتبره، ولا يزال يعتبره، أحد الرجال الافذاذ الذين يرفعون راس لبنان.

وتربع الرئيس سليمان فرنجيه في سدة الرئاسة. وبديهي ان يضع

اللبنانيون ذوو الارادة الحسنة انفسهم في خدمته وخدمة عهده. واحسبني واحدا من الذين لم يتأخروا لحظة عن ذلك.

الخاتمة

لا اريد ان اختتم هذا السجل الحميم الذي حاولت أن اسرد فيه بعض الاحداث التي وقعت تحت سمعي وبصري، واصور اكثر الاشخاص الذين عرفتهم بأمانة وصدق، دون ان استخلص منه الدروس والعبر.

لقد علمتني الحياة، وهي المدرسة الكبرى التي لا تدانيها اية مدرسة، انه بالمحبة والتسامح والاعتدال يستطيع الانسان أن يشيع في نفسه الراحة والطمأنينة وينشىء علاقاته مع الاخرين على اساس من الثقة كفيل بأن يخلق الصداقة.

وعلمتني الحياة، والتجارب التي مررت بها، وحدثت القارىء عنها حديثا عفويا مخلصا، اننا في لبنان احوج ما نكون الى هذه الخصال الثلاث التي ذكرتها وهي المحبة والتسامح والاعتدال.

لبنان وطننا. وهو وطن حباه الله من روائع الجمال ما لم يحلم به بلد آخر. فكيف نخدمه، ونحترمه ونحافظ عليه؟

خمسون عاما قضيتها من حياتي، وانا اطرح على نفسي كل يوم هذه الاسئلة وأحاول في مسلكي، وتعاملي مع الناس، وعملي الخاص والعام، ان اجيب عنها بالفعل لا بالقول.

لبنان وطن الجميع، وطن المسلمين والمسيحيين على السواء. يشارك كل لبناني أخاه في افراحه وأتراحه. فوجب على الجميع ان يحافظوا عليه، على تراثه، ومزاياه، وكيانه.

على كل لبناني ان يعتبر لبنان جزءا من قلبه وروحه. ان يجعله مثله الاعلى. والغاية التي ما بعدها غاية.

الحرية والديمقراطية مزيتان من مزايا لبنان لا اغلى منهما ولا اثمن.

لقد قاتلت بلدان، وثارت شعوب، وسفكت دماء غزيرة للحصول عليهما ونحن في لبنان نتمتع بهما وكأننا لا نقدر قدر هذه النعمة.

فعلينا ان لا نجعل الحرية فوضى، والديمقراطية ستارا يختفي وراء الفساد وطغيان فرد، او جماعة، او مؤسسة، او حزب.

تكلمت عن المزايا ولم اتكلم عن العيوب.

في رأس العيوب التى تشوه وجه لبنان الطائفية البغيضة.

لقد صارت الطائفية داء عضالا لم يستطع لبنان بعد، أو لم يرد، ان يشفى منه.

الطائفية شوكة فرضتها احداث الماضي السحيق جدا، ثم تمسكنا بها مع الايام ورعاها الاجنبي في جسم لبنان. فلما بدأت المعرفة تنشر نورها، ورحل الاجنبي، لم يقتلع رجال الاستقلال الشوكة، وكان في وسعهم أن يحاولوا.

وتوالت العهود، والطائفية تزداد تجارتها الرابحة لذوي الغايات والمكاسب، وهي في الحقيقة لطخة سوداء في جبيننا من عهد الظلام البعيد، صار من الواجب أن تمحى وتزال.

وأمر آخر أحب ان الفت اليه الانظار. وهو التبدل الهائل الذي حصل في العالم منذ خمسين سنة الى اليوم. ولا سيما في علاقات الناس بعضهم ببعض، وعلاقة الدولة بمواطنيها.

ان العالم يسير نحو تحقيق العدالة الاجتماعية بخطى سريعة، وذلك ليحول دون انفجار المظلومين والمعذبين في الارض.

ان صلة رب العمل بالعامل، وصاحب الارض بالفلاح، والغني بالفقير قد تبدلت تبدلا كبيرا. واتخذت في اجزاء من العالم شكلا عنيفا لم يكن هو الحل المثالي. كالاشتراكية التي ارادها مؤسسوها ان تلغي الطبقات وتزيل الفوارق بين الناس، وتمنع استثمار الانسان للانسان، وتساوي بين الغني والفقير. وكانت النتيجة نزاعا متواصلا بين أرباب العمل والعمال. كل يدعي بحقه في الحياة على حساب الآخر.

أرباب العمل يهولون بملكيتهم للمؤسسات التي يديرونها. والعمال يهولون بالاضراب عن العمل قصد التأثير في اصحاب العمل.

اني اؤمن بالاشتراكية في معناها الحقيقي، لا بالاشتراكية الزائفة.

اؤمن بالاشتراكية المطبقة في البلاد الاسكندينافية، وفي بريطانيا مثلا حيث تؤخذ الضرائب العالية من ذوي الدخل الكبير لتصب في صندوق العدالة الاجتماعية فتقي الفقير، والمريض، والمتقدم في السن،

أخطار الحاجة والمرض، والشيخوخة.

والاشتراكية الصحيحة هذه هي مناقضة تماما للاشتراكية الزائفة.

وأرى أنه لا بد من اتجاه لبنان الذي يؤمن بالنظام الحر، والمبادرة الفردية، نحو الاشتراكية التي تحقق العدالة الأجتماعية تحقيقا كاملا، الاشتراكية التي تحدثت عنها، لا اشتراكية التأميم وسلب الانسان أثمن ما يملك وهو الحرية.

لأنني أؤمن بلبنان وبطيبة أبناء لبنان

لبنان لنا فلا ندعه يفلت من ايدينا ليقع لقمة سائغة في فم كل غريب، أو فريسة بين براثن كل طامع آت من بعيد او قريب.

لنشارك بعضنا بعضا في حمل التبعات قبل ان ندعو الى المشاركة في اقتسام الغنائم. لكل حق يولد مسؤولية. وكل مسؤولية تلقي على عاتق المسؤول واجبات. ولا تستقيم الامور في وطن من الاوطان الا اذا قام حامل التبعات بواجبه على الوجه الاكمل.

وحامل التبعات ليس الحاكم وحده ولا رجال السياسة دون سواهم. انه كل فرد من افراد الشعب. انه العامل، والصانع، والفلاح، والتاجر، والرئيس، والوزير، والموظف سواء بسواء.

وأتساءل، وانا أضع نقطة الختام في نهاية هذا الكتاب: امتفائل انا ام متشائم في حاضر وطني ومستقبلهَ؟ في قدره ومصيره؟

اجيب على الفور من دون تردد، انني متفائل لأني اؤمن بلبنان وبطيبة ابناء لبنان!



المؤلف في الوسط ، يوم عين وزيراً مفوضاً للبنان في مصر . وإلى يساره تيمور باشا وإسماعيل باشا اللذان رافقاه إلى القصر الملكي لتقديم أوراق الاعتماد إلى الملك فاروق . ويبدو إلى يمين المؤلف الرئيس تقي الدين الصلح مستشار المفوضية ، والشيخ نجيب الدحداح السكرتير الأول يومئذ .



العربة التي أقلت المؤلف ورفاقه إلى القصر الملكي .

سان فرنسيسكو ١٩٤٥ : لمناسبة أول اجتماع لهيئة الأمم المتحدة . ويبدو من اليمين : المؤلف ، السيد وديع نعيم رئيس الوفد اللبناني ، الملك فيصل ، الرئيس فارس الخوري ، السيد نعيم انطاكي وزير خارجية سوريا يومئذ . ويشاهد وقوفاً إلى اليمين : الرئيس عبد الله اليافي والدكتور شارل مالك .



من اليمين : الرؤساء عادل عسيران ورياض الصلح وحبيب أبو شهلا والمؤلف .



١٩٤٥ : في مقر الأمم المتحدة في سان فرنسيسكو . من اليسار : الملك فيصل (وكان يومئذ وزير الخارجية في المملكة العربية السعودية ورئيس وفدها إلى الأمم المتحدة) والرئيس عبد الله اليافي والمؤلف ورئيس الوفد العراقي أرشد العمري رئيس الوزراء .



القاهرة ١٩٤٥ . من اليمين : المؤلف والرئيسان عبد الحميد كرامي وفارس الخوري وعزام باشا رئيس الجامعة العربية والنقراشي باشا وزير الخارجية المصرية .



١٩٤٥ : المؤلف ، وإلى يساره : الرئيس عبد الله اليافي ، السيد هنري فرعون ، الرئيس صائب سلام والسيدة سالم ، وذلك لمناسبة قدوم الوفد اللبناني إلى القاهرة لدرس وتوقيع ميثاق الجامعة العربية .



الرئيس بشاره الخوري يلقي كلمته في حفلة الروتاري . ويشاهد حوله السيدة سالم والسيدة فتال والرئيس رياض الصلح . وإلى أقصى اليمين ، المؤلف الذي كان حاكماً للروتاري يومئذ .



سان فرنسيسكو ١٩٤٥ : المؤلف في حديث مع أرشد العمري رئيس الوفد العراقي، والسيدين وديع نعيم رئيس الوفد اللبناني ونعيم انطاكي عضو الوفد السوري (إلى اليمين) والرئيس عبد الله اليافي (إلى اليسار) .



١٩٤٦ : المؤلف والرئيس رياض الصلح والبطريرك عريضه في الديمان



المؤلف مع رئيس وزراء سوريا خالد العظم .



يوم افتتاح الكوكاكولا ١٩٤٩ . ويشاهد في الوسط الرئيس رياض الصلح ، وإلى يمينه السيدة سالم والمؤلف . وإلى يساره الرئيس حبيب أبو شهلا .



١٩٤٦ : المؤلف والرئيس رياض الصلح أثناء وجودهما في لندن ، البحث في أمر الجلاء . ويبدو إلى اليسار الجنرال سبيرس . وإلى اليمين تحسين قدري سفير العراق.



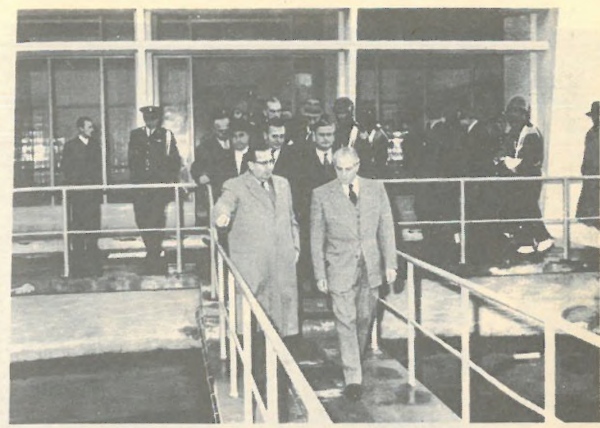
١٩٤٦ : المؤلف والرئيس رياض الصلح أثناء وجودهما في لندن ، للبحث في أمر الجلاء . ويبدو إلى اليسار الجنرال سبيرس .
وإلى اليمين تحسين قدري سفير العراق.



المؤلف مع رئيس وزراء سوريا خالد العظم .



يوم افتتاح الكوكاكولا ١٩٤٩ . ويشاهد في الوسط الرئيس رياض الصلح ، وإلى يمينه السيدة سالم والمؤلف . وإلى يساره الرئيس حبيب أبو شهلا .



١٩٥٣ : المؤلف يوم كان مديراً عاماً لشركة مياه بيروت، مع الرئيس كميل شمعون .



١٩٦٥ : المؤلف ، كرئيس لجمعية التجار ، يستقبل مع أعضاء الجمعية سفير فرنسا (في الوسط) .



١٩٦٩ : المؤلف مع روجرز في مقر الأمم المتحدة



المؤلف ممثلا لبنان في قاعة الاجتماع العام لهيئة الأمم المتحدة .



رئيس الجمهورية اللبنانية سليمان فرنجية يقلد المؤلف وشاح الأرز في عيد الاستقلال عام ١٩٧٤ .



١٩٦٩ : المؤلف يرئس الوفد اللبناني لتهنئة الرئيس بومبيدو (في الوسط) بانتخابه . ويبدو معه من اليسار : السادة رياض طه، فيليب تقلا ، عثمان الدنا وجورج حيمري .



١٩٦٩ : المؤلف مع وزير خارجية فرنسا روبير شومان أثناء وجوده في باريس لتهنئة الرئيس بومبيدو .



المؤلف مع رئيس جمهورية مصر العربية حالياً محمد أنور السادات ومفتّي الجمهورية اللبنانية المرحوم الشيخ محمد علي علايا والمرحوم الرئيس حسين العويني .



من اليمين : المؤلف والرؤساء سامي الصلح وبشاره الخوري وصبري حماده والأمير مجيد أرسلان .

المطابع التعاونية الصحفية ش م ل، بيروت، لبنان

تشرين الأول ١٩٩٨

عيّنوه في السلك الدبلوماسي كي يُبعدوه عن العمل في ميدان السياسة الداخلية. لكنّ يوسف سالم كان بارعاً ليُحوّل كلّ منصب يُسند إليه، إلى مهمّة من الدرجة الأولى.

وهكذا عُيّن عضواً في لجنة الدستور اللبناني وفي وفد الجلاء، ثم انتخب نائباً قبل العهد الاستقلالي.

وقيمة هذا الكتاب تكمن في صدقها وعرضها لفترةٍ تأسيسيّة من حياة لبنان الديمقراطي والوطني، وهي خبرة خمسين سنةٍ عاشها يوسف سالم مع الناس وللناس...

ISBN 2-84289-054-x